فاتنات الدنيــيا وأفاعى الزمــان

أحمد الشنوانى

الناشر
دار الكتاب العربي
دمشــق - القاهــرة

فاتنات الدنـــيا
وأفاعي الزمـــان

اسم الكتاب: فاتنات الدنيا وأفاعى الزمان
اسم المؤلف: أحمد الشنوانى
رقم الايداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٢/١٤١٤٦
الترقيم الدولى: I.S.B.N. 977-5346-38-X
تصميم واخراج الغلاف: وائل سلامة
اسم المطبعة: دار القبس للطباعة ت: ٣٦٤٠٨٣٥ - ٥٢٤٢٣١٤

الطبعة الأولى
٢٠٠٢



دمشـــق - القـاهـــرة

سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودى هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص.ب ١٣٣٤٤ فاكس: ٢٢٤٧٢٩٧
مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبد الخالق ثروت - شقة١١ تلفاكس: ٣٩١٦١٢٢
Email:darkitab@starnet.com.eg

تقديم

الأستاذ أحمد الشنوانى هو أحد الأدباء الصحفيين، أو الصحفيين الأدباء، فهو يجمع بين الأدب والصحافة، ويعيش فى الصحافة أديبا، كما يعيش فى الأدب صحفيا، وكثيرا ما ينوء المرء بحمل هاتين الصفتين، أو هاتين الصنعتين، لأن الأدب وحده حمل ثقيل، والصحافة وحدها عبء باهظ، فكيف يحملها معا، والسير بهما فى قوة وفتوة؟!.. إن صديقنا الأستاذ الشنوانى يفعل ذلك، ومن عجب أنه لا يحاول أن يلفت الأنظار إلى ما يفعله، فهو هادىء وادع متواضع قابع فى ركنه من مكتبة دار الهلال، لا يريم، ولا يتطلع إلا لما أخذ نفسه به من حمل عبئيه هذين كأنهما عبء واحد، وكأن هذا العبء الواحد - وهو فادح - مظلة يرفعها فوق رأسه، يستظل بها فى يوم حار، أو يوم مطير!..

عرفت الأستاذ أحمد الشنوانى عندما كان يزود مجلة «الهلال» بباب ثابت من مقتطفات الأدب والتاريخ والفن والعلم، وكنت أيامئذ - فى أوائل الثمانينات - رئيسا لتحرير مجلة الهلال، ولم أكن أعرف أنه مدير مكتبة دار الهلال، لأننى لم أكن أتردد عليها إلا نادرا، حتى اقتضت الأعمال أن أستعين ببعض المراجع من هذه المكتبة الحافلة، فاكتشفت عندئذ أن صديقنا الذى يزودنا فى «الهلال» بباب ثابت، هو مدير هذه المكتبة ذات التاريخ الطويل..

والحقيقة أن الأستاذ أحمد الشنوانى لم يتردد فى استغلال مكتبة دار الهلال، فقرأ مجلداتها بدأب، وتزود منها بزاد وفير، وتعلم منها أكثر مما تعلمه فى مراحل التعليم بالمدارس والجامعات، وتخرج فيها أديبا وكاتبا ومؤرخا واسع الحصيلة من العلم والأدب، وتحت سقف هذه المكتبة، وبجوار رفوفها المحملة بذخائر العلم، حدثته نفسه أن ينضم إلى أصحاب هذه الأسماء التى تحملها المجلدات والكتب، وأن يكون كاتبا تعرض المكتبات كتبه، لا مجرد مدير للمكتبة يعير كتبها لطلاب القراءة والتحصيل، ولا مجرد صحفى يكتب أبوابا ومقالات فى الصحف..

وهكذا جمع الأستاذ الشنوانى حصيلته من التعليم الرسمى، إلى حصيلته من العلم الذى اكتسبه بعرق جبينه وهو يطالع المكتبة ركنا ركنا، ويستعرضها سفرا بعد سفر، ومن هذا وذاك جاء هذا الكاتب الدءوب، المتدفق الأسلوب، الغزير المادة الذى

أخرج للمكتبة العربية ـ حتى الآن ـ مجموعة من كتب الأدب والتاريخ، يريد بها أن يسهم فى إثراء الفكر المصرى والعربى، والإنسانى، ولم يكن هذا المعنى بعيدا عنه حين أصدر آخر كتبه الذى جعل عنوانه: «المدينة المنورة ودولة الإسلام الأولى»، فضلا عن موسوعته الضخمة والتى تحمل عنوان «موسوعة الفكر الإنسانى» فى عشرة مجلدات، ومؤلفات أخرى كثيرة..!!

أما كتابه هذا الذى بين أيدينا.. الذى اختار له اسم: «فاتنات الدنيا وأفاعى الزمان» فهو فريد فى بابه، فكله عن نساء شهيرات لعبن أدوارا فى تاريخ بلادهن، بل فى تاريخ العالم كله، وجرت أقلام الأدباء والمؤرخين بسيرتهن فى مؤلفات كثيرة، أولها فى أول التاريخ، وآخرها فى هذا الزمن الأخير..

لقد بحث الأستاذ الشنوانى بصبر جميل، وذكاء ودقة، من هؤلاء النساء الشهيرات فى المراجع والمظان التى تحتويها المكتبة الكبيرة التى يديرها، وجلس إلى كل سيدة منهن فى احتشام واحترام، ليعرف منها أسرار حياتها فى التاريخ، وأسرار التاريخ فى حياتها.. ولم يترك واحدة منهن إلا بعد أن أستصفى كل ما عندها من أسرار الحياة وأسرار التاريخ، وسجل كل ما حصل عليه منهن، وأخرجه للناس فى مؤلفه هذا الحافل الذى يجمع بين العلم والقصة، ويأخذ من التاريخ، كما يأخذ من الخيال، جادا ومسليا فى وقت معا..

وبدءا من الملكة سميراميس التى عاشت قبل الميلاد فى أرض العراق، وحكمت دولة مترامية الأطراف، وانتهاء بأوجينى زوجة الإمبراطور نابليون الثالث، يبدأ هذا الكتاب الغزير المادة، وينتهى، عارضا على قارئه سلسلة من حاملات أزياء التاريخ الباهرة أمثال هيلين، فاتنة طروادة، وكليوباترا الملكة التى انتهت على يديها دولة البطالمة فى مصر قبل الميلاد، وشجرة الدر، قاهرة الصليبيين، التى كانت أول وآخر امرأة توجت نفسها ملكة على مصر الإسلامية، ثم أسقطها الخليفة العباسى «المستعصم» لمجرد كونها امرأة.. ولكن هذه المرأة انتصرت فى معركتها ضد الملك لويس التاسع الصليبى، أما الخليفة المستعصم فإنه انهزم فى معركته ضد هولاكو التترى!».

وفى قائمة الشهيرات اللاتى احتواهن هذا الكتاب القيم، تجد أسماء كثيرة أخرى، مثل كاترين الأولى ــ الملكة الروسية ـ وكاترين الثانية قيصرة الروس الكبرى،

وليدى هاملتون ساحرة نلسون قائد الأسطول البريطانى الذى قهر بونابرت، وجوزفين التى استولت على قلب بونابرت وشهدت صعوده وهبوطه، وأسماء أخرى، بين ملكات وفاتنات ومغامرات، لم ينس الأستاذ الشنوانى أن يجعل بينهن فنانة شهيرة من فنانات المسرح الفرنسى هى سارة برنار!..

وهؤلاء الشهيرات اللاتى احتواهن الكتاب ـ وعددهن ست عشرة امرأة من قديم التاريخ ووسيطه وحديثه ـ هن المتربعات على صفحات هذا الكتاب، دون سواهن من الشهيرات اللاتى يعرفهن التاريخ قديما وحديثا، وإنما اختارهن الأستاذ الشنوانى لأنه وجد فيهن التاريخ ممثلا بأقوى لمحاته، وأضوأ توهجاته، وأقوى ضرباته وصيحاته!..

ففى حياتهن ملامح التاريخ كلها، بجمالها وقبحها، وبإنسانيتها ووحشيتها، وبأحلامها الجميلة، وفواجعها الرهيبة!

لقد كانت كل منهن امرأة ذات جمال وقوة أسر وسحر، وكانت كل منهن وراء رجل، أو رجال، وقد قيل: وراء كل عظيم امرأة، ولكن قائل هذه الكلمة لم يكن مؤرخا، لأن التاريخ يضع الرجل وراء المرأة العظيمة أحيانا، كما يضع المرأة وراء الرجل العظيم أو الرجال العظماء، على اختلاف الأحوال..

وهذا ما يجعل صور هؤلاء النساء العظيمات باعثة على الخوف فيمن يطالعها، فيراهن أشبه بالأفاعى القاتلة، ولعل ذلك ما دفع الأستاذ الشنوانى إلى تسمية كتابه: «فاتنات الدنيا وأفاعى الزمان».. فقد طالع وجوههن الجميلة فى صفحات التاريخ فإذا هى فتنة الدنيا، ولكن تلك الوجوه الجميلة كانت تخفى سموم الأفاعى!..

هكذا رآهن الأستاذ أحمد الشنوانى، جمالا فتن الدنيا، وسموما تركت آثارها القاتلة فى التاريخ كله!..

ومن هذه الرؤية التاريخية الأدبية الفنية، جاء هذا الكتاب الذى يقدمه إليك ـ يا عزيزى القارىء ـ مؤلفه الكاتب المفضال..

وإن لقاء مع ست عشرة ملكة وامرأة من عظيمات التاريخ، لجدير بأن يحتفى به الكاتب والقارىء، وإن كان لقاء من وراء سجف التاريخ، لا نسمع فيه من الصوت إلا الصدى، ولا نرى من قسمات الوجوه إلا الخيال!..

كمال النجمى

مقدمــة

لقد تطورت مراحل التاريخ صعودا وهبوطا بمكانة المرأة وسيطرتها أو تبعيتها.. ولكنها لم تفقد أبدا إلهاماتها وتأثيرها على الرجل فى يوم من الأيام.

فالمرأة لاتعتز بشىء فى حياتها قدر ما تعتز بأنوثتها وما وهبها الله من جمال وجاذبية.. وتعتبرها أثمن كنوزها على الإطلاق. ولذلك نجد أن هذه الودائع الثمينة هى وسيلتها فى التأثير وجذب الانتباه.. بل وفى التفوق والسيطرة بلا حدود حسب الظروف والأهداف والغايات التى تنشدها فى حياتها.. وعلى قدر مواهبها فى الذكاء والدهاء لاستثمار هذه المقومات الأنثوية.

وفاتنات الدنيا اللاتى سنعيش قصصهن فى هذا الكتاب.. لم يتوسلن فى حياتهن بفتنة الجمال وحدها.. بل بفتنة الذكاء وقوة الشخصية والعبقرية والدهاء والألمعية.. ولذلك سترى - عزيزى القارىء - من قصص هؤلاء الفاتنات من اشتهرت بالجمال الرائع الذى كانت له فتنته فى الممالك والشعوب، وفى السلم والحروب، كهيلين فاتنة طروادة التى قامت من أجلها أول حرب فى التاريخ بين الشرق والغرب.. ومن سحرت بذكائها ودهائها وقوة شخصيتها قلوب القياصرة وعقول الأباطرة كالملكة كليوباترة.. ومن فتنت الأبطال وقادة الرجال وخاضت المعارك وبهرت الملوك كشجرة الدر.. ومن كان لسحرها الذاتى وشخصيتها الخلابة أثرهما فى انقياد الملوك وكبار الرجال لأهوائها وآرائها حتى أضاعت العرش والتاج كالامبراطورة أوچينى.. ومن كان لعبقرية جمالهن تأثيره العميق على الملوك والأمراء والقادة.. فكان التسليم بسلطان الجمال، مما أبرز سطوة الحب وشهوة الحكم عند هؤلاء الفاتنات.. كمدام بومبادور وليدى هاملتون ومدام ريكامييه.. إلى غير هؤلاء ممن كان لفتنتهن الرائعة أثرها فى الأحداث التى ظهرت على مسرح التاريخ.. ذلك لأن تأثيراتها قد تعدت حدود الذات والتجارب الخاصة وتطورت إلى أحداث تقفز فوق العواطف والعلاقات الثنائية، وصولا إلى مصائر الأمم والشعوب.. فقد تبدأ بقصة غرامية كآلاف القصص التى تحدث فى كل حين.. وتنتهى بملاحم وحروب وأهوال تغير وجه العالم والتاريخ..!!

وقد اخترت لهذه القصص اسم «فاتنات الدنيا وأفاعى الزمان» لأننى ضمنتها

أقاصيص غرامية وسياسية واجتماعية وقعت حوادثها فى قصور الملوك والأمراء، فى مختلف عصور التاريخ.

إن كل قصة من أقاصيص «فاتنات الدنيا وأفاعى الزمان» قائمة على حقيقة تاريخية واقعة، ولكن استعنت بالخيال فى وضع التفاصيل بقدر ما يسمح لى الفن القصصى بذلك.

فإن ما أضعه بين يدى القارىء ليس بحثا تاريخيا، وليس قصة خيالية، بل هو مزيج من الاثنين معا.

فالقارىء، يجد فيه فائدة، ويجد فيه تسلية.

وهذا جل ما أرجوه وأرغب فيه.

وأملى أن أكون قد وفقت فى خدمة التاريخ والأدب من هذا السبيل.

أحمد الشنوانى

سميراميس

الملكة الساحرة



«لقد خلعت على الطبيعة صورة امرأة ولكن

أعمالى قد فاقت أعمال أشجع الرجال»

اختلف المؤرخون فى حقيقة سميراميس، فقال بعضهم أن وجودها خرافة، ويؤكد آخرون أن الأعمال التى تنسب إليها متداخلة فى تاريخ الآشوريين والبابليين الذى عاشوا على نهر دجلة والفرات.. أما المنقبون عن الآثار فيرون أن سميراميس آلهة أسطورية شرقية.. هى عندهم كفينوس عند الرومان.. وأن اسمها، ومعناه الحمامة، إنما أطلق عليها لأن الحمائم احتضنتها عند مولدها وغذتها، وهم يرونها رمز الحب والسعادة، وفرح الرجال، والظفر فى الحرب.. كما يعتبرونها وسيطا أسمى بين مبدأى الخير والشر على ظهر الأرض..!

حتى جاء عام ١٩٠١ وكشفت البحوث التى قام بها البروفيسور «لهمان هوت» الألمانى عن حقيقة هذه الأميرة، وأعادها إلى مكانتها الرفيعة فى تاريخ آشور وبابل، ووضع الأمور فى نصابها.

وقد استطاع البروفسير لهمان هوت أن يفند الأساطير التى أتى على ذكرها كل من «ديودوراس سيكلاس» و«جوستن» وغيرهما حول هذه الملكة، ودلل على أنها كانت حقيقة لا مراء فيها.

* * *

ولكن ماذا تقول الأساطير عن سميراميس.. تقول:

إنسابت سيول طاغية ذات يوم على منابع نهر الفرات فى جبال أرمينيا، ففاض النهر، وتدفقت مياهه، وخرجت الأسماك تستلقى وتتمدد على أديم الأرض..

وبين تلك الأسماك، كانت هناك سمكتان كبيرتان شهدتا بيضة كبيرة طافية على وجه الماء، فسبحتا إليها، ودفعتاها أمامهما إلى الضفة.. وإذا حمامة بيضاء تهبط من السماء وتحتضن البيضة، ثم ظلت تحميها حتى تراجع ماء الفيضان عائدا إلى مجرى النهر..

واستمرت الحمامة تحتضن البيضة حتى فقست ومن داخل البيضة خرجت الربة «ديركيتو» بوجه امرأة.. وجسم سمكة...!

وأعجب الآله الأعظم بالربة الصغيرة، بعد أن كبرت وملأت الآفاق بعدلها وفضلها وحكمتها، وتمثل إعجاب الإله فى وعد قدمه إليها بأن تطلب منه أى شىء

ترید.. ولم تدع «دیرکیتو» الفرصة تضیع.. فسألته أن یخلد السمکتین اللتین انقذتاها من الطوفان.. فرفعهما الإله الأکبر إلی السماء.. وجعلهما ألمع نجمتین فی برج الحوت..!

ورغبت الربة «دیرکیتو» فی أن تحمل.. والربات یحملن ویلدن بغیر زواج حسب رغبتهن.. وحملت الربة، ثم وضعت طفلة لها جسد إنسان کامل.. یشع من بدنها النور لروعة ما منحته من ألوان الجمال.

وأطلت الربة «دیرکیتو» إلی ابنتها.. وملأها الذعر.. وقد أثار رعبها ألا تکون طفلتها فی شکلها الإلهی.. مما یجعل الربات الأخریات ینظرن إلیها بعین الریبة والشك، ویعیرونها، ویتهمنها بما هی منه براء.

وحملت الربة مولودتها ذات لیلة مظلمة إلی البادیة.. حیث ترکتها هناك عاریة مهملة.. لیس حولها من شیء علی الإطلاق سوی البرد والریح والزمهریر.. والجوع القاتل..!

وکان بیلوس.. إله نینوی العظیم.. یطل من علیائه، فرأی الطفلة المسکینة تلقی فی العراء بغیر سلاح أو معین.. فأرسل من السماء رسوله «ینبو» یرعاها ویحمیها، ویحمل معه سربا من الحمائم یرف بعضها علیها بأجنحته لترد عنها حر النهار وبرد اللیل، وتنطلق الأخریات إلی حیث ینزل الرعاة فتحمل إلیها بمناقیرها نقطا من الحلیب تقطرها فی فمها لتغذیها وتروی ظمأها....!!

ومع مرور الشهور والسنین، تحولت الحمائم إلی الأمکنة التی یضع فیها الرعاة ما یصنعون من جبن، فتأخذ منه بقدار ما تسع مناقیرها، لتقدمه للطفلة التی عاشت مع حمائمها سعیدة لا تعرف قط طعم الشقاء.

وکان الرعاة إذا عادوا فی المساء یرون جبنهم منقورا فیدهشون، ولما ازداد ذلك الأمر وتتابع، قرروا أن یترکوا واحدا منهم یرقب المکان وهم غائبون..

وشهد الراعی الحمائم وهی تحط حول الجبن وتلتقط قطعة صغیرة فتحملها بمناقیرها إلی مکان تطیر إلیه. وأخبر الرقیب رفاقه فتتبعوا الحمائم حتی وصلوا إلی حیث صبیة ذات جمال رائع لم یخلق لغیر الآلهة.. فأخذوها إلی خیامهم، واتفقوا علی أن یحملوها معهم حیث یبیعونها فی سوق «نینوی» العظیم..

وحمل الرعاة الصبية الحسناء إلى نينوى.. وكانوا قد سموها سميراميس.. وهى تعنى الحمامة البيضاء.

واتفق أن كان يوم وصولهم إلى المدينة يوم موسم الزواج الذى يقام كل عام، حيث تجتمع فى السوق الكبير جموع الشبان والشابات قادمة من كل نواحى المملكة، لينتقى كل شاب عروسا شابة، إو ينتقى صبية يحملها إلى داره فيربيها إلى أن تبلغ سن الزواج.. فيتزوجها.. أو يقدمها عروسا لأحد بنيه..!

وكانت الساحة غاصة بالشيوخ والكهول والشبان، ودخل الرعاة بالصبية الصغيرة الحسناء إلى حيث يعرضونها للبيع.. وبينما هم يضعونها فى أول الصف، إذ شاهدهم «سيما» ناظر مرابط خيول الملك. وكان «سيما» عقيما لا ولد له، فهفا قلبه إلى سميراميس، ورغب فى تبنيها.

ودعا «سيما» الرعاة وساومهم على ثمنها. وعندما تمت الصفقة حملها إلى منزله، فما أن رأت زوجته هذه الصبية ذات الجمال الرائع حتى فرحت بها فرحا غامرا، واعتنت بها المرأة عنايتها بابنتها.. وظلت ترعاها حتى كبرت واستدارت.. وبرزت أنوثتها كأجمل ما تكون النساء..!

* * *

وذات ربيع، جاء مينوتس ـ قائد الملك ووزيره ـ إلى مرابط الخيل يتفقدها. وشهد الوزير «سميراميس» الحسناء فراعه جمالها وبهاؤها وسحرته عيناها اللتان يشع منهما النور.. ورنت إليه «سميرميس» بفتور يحمل الدعوة، فوقف الوزير فى مكانه حائرا مبهورا.. حتى انتبه إلى نفسه آخر الأمر فدعا الفتاة وسار بها إلى حديقة القصر يتحدث إليها وتتحدث إليه.

وانطلقت «سميراميس» على استحياء تتبع الوزير. وعندما وقف فى بستان القصر اقتربت منه وركعت أمامه على ركبتيها تقدم له كل فروض الاحترام. ومد مينوتس يده فرفعها لتقف أمامه. وأخذ يسألها من تكون..

ولم تستطع «سميراميس» أول الأمر أن تجيب.. ثم لم تجد إلا أن تقول له أنها ابنة ناظر المرابط الملكية.

ونادى الوزير على سيما، ولكن ناظر المرابط لم يستطع أن يكذب كما بدا له أن يفعل أول الأمر.. واضطر أن يقص قصتها كاملة على الوزير.. منذ وجدها الرعاة تحت رعاية الحمائم في البيداء.. حتى اتخذها ابنة له، لا يطيق فراقا لها أبدا..!

وأحس الوزير من طريقة الرجل في الحديث، أنه لا يمانع في تركها مقابل مبلغ كبير.. فأخرج «صرة» من المال قذف بها إليه.. ثم انطلق بالفتاة في الطريق إلى العاصمة.

وكان قلب الرجل قد شغف بالفتاة حبا، وعندما بلغ القصر كان أول ما فعله أن سلمها للمزينات والماشطات، وأخرج لها من خزائنه حليا لا يوجد مثلها إلا في كنوز الملك.. وأخذتها نساء القصر إلى الحمام وغسلن بدنها بالماء المعطر، ومشطن شعرها الأسود الطويل، واستدلته على كتفيها خصلا معقودة بالجواهر.. ثم ألبستها الأرجوان الفينيقي الموشى بالذهب وأخرجنها للوزير كأجمل وأروع ما عرفت «نينوى» من عرائس.

واحتفل «مينوتس» بزواجه احتفالا لم يقمه أحد من قبل. وكان لابد أن يصبح لسميراميس المقام الأول بين محظيات الوزير ونسائه.. حتى لقد كان يلازمها ملازمة الظل ولا يطيق عنها فراقا لحظة. وكأي امرأة، استطاعت سميراميس أن تغذى ذلك الشوق والحب وتستغلها لتتحكم في الرجل الذي عبدها، فخضع لرغباتها، واحترم أفكارها، وصار يأخذ بآرائها في كل ما يلم به من أحداث ومهام!!

ومرت الأيام، وسميراميس كل شيء في حياة الوزير.. وكل شيء أيضا في حياة الجماهير. إلا أن شيئا أكثر من جمالها كان سببا في تعلق الشعب والوزير بالعروس الإلهية.. هو ذلك النصر الذي استطاعت أن تقدمه للمملكة كلها.. عندما عرفت كيف تسقط أضخم حصن من حصون الأعداء.

* * *

كان ذلك يوما خالدا في تاريخ البلاد. وكان الملك «نينوس» قد انتهى من تشييد عاصمة مملكته، وراح يبحث عن السبيل إلى أمجاد جديدة يحققها لنفسه ولمملكته الواسعة الأطراف. فما مضت أيام حتى كان قد استقر رأيه مع وزيره وقائد جيشه «مينوتس» على تجنيد جيش كبير ضخم، يقتحم به ممالك أخرى مجاورة، ثم لم تمض أيام أخرى حتى شهدت نينوى خروج جيش عظيم يخترق شوارعها ويبتعد عنها ليجاوز حدود البلاد نحو الشرق.

كان الجيش ضخما بالغ القوة لا قبل لأحد به على الأطلاق. فلم يكن عجيبا إلا تثبت أمامه بلدة أو جيش. إلا أن الذى أثار «نينوى» وأغضب ملكها، هو أن ذلك الجيش الضخم، وعلى رأسه القائد، والملك نفسه، عجز من اقتحام عاصمة الأعداء.. «بكتريا» لأيام طويلة ظلت الهجمات تتكسر خلالها على الأسوار المحيطة بالقلعة الشامخة.

وعجب الملك ووزيره أن يقف الجيش دون العاصمة لا يستطيع لها اقتحاما. ومع ذلك فقد أبى الملك إلا أن يستمر على حصارها ولو أودى ذلك بالجيش كله. ولما طالت غيبة الوزير على زوجته سميراميس، أرسل إليها يستدعيها لتوافيه فى ميدان القتال.

وحضرت سميراميس. ولم يعرفها رجال الجيش إلا بعد أن تأملوها طويلا. وعرفوا جمالها الأخاذ الوضىء.. فقد كانت ترتدى ملابس الرجال على غير ما كانوا يعهدون..!

وطلع صباح.. ووقفت «سميراميس» على باب الخيمة تتأمل العاصمة الرائعة التى انهكت الجيش الذى لم يهزم أبدا. ولاحظت سميراميس أن الهجوم كان موجها إلى قسم المدينة القائم فى السهل، لا ضد قلعتها، مما جعل البكاترة يحرسون حصونها بقليل من اليقظة. وخطرت لها فكرة.. لا يمكن أن تنهار مقاومة الأعداء لو هوجمت تلك القلعة الشامخة مباشرة.. وهل يمكن أن تقوم هى نفسها بهذا الهجوم...!!

وانطلقت «سميراميس» إلى الخيمة فأيقظت زوجها. ولم تمض لحظات حتى عرفت كيف تقنعه بخطتها التى رسمتها من خلال تأملها القصير لجوانب الموقعة..!

وانتفضت القلعة بعد ساعة من بزوغ الشمس على هجوم عارم عنيف، تشنه عليها فرقة قوية من الجنود اختارتهم سميراميس بنفسها وتقدمتهم إلى اقتحام القلعة الشامخة.

وانقضت ساعة وبعض الساعة.. وانتبه الملك، والوزير مينوتس، والجيش جميعا.. فإذا سميراميس واقفة على قمة القلعة تلوح بذراعيها أن تقدموا..!!

وعرف الكل أنه النصر.. وأدركوا أن المرأة التى قادت بضعة رجال قد اقتحمت القلعة التى انهارت.. وإن العاصمة قد باتت بين أيديهم..

والتفت الملك إلى قائده مينوتس يسأله:

ـ من تكون هذه المرأة يا مينوتس..؟!

وشعر مينوتس بدنو الكارثة.. وأدرك أن سميراميس قد راقت فى عينى الملك، فسكت على رعب كأنه لم يسمع. وكرر الملك السؤال، ولم يجد القائد بدا من أن يجيب:

- إنها زوجتى يا مولاى..!

وعاد الملك إلى العاصمة.. ودخل قصره.. وتفرق الجند والناس. وأرسل الملك إلى قائده يأمره بدعوة «سميراميس» إليه. ولم يستطع الوزير إلا أن يحنى هامته.

أما سميراميس.. فقد وجدتها فرصة للوصول إلى المجد الذى طالما حلمت به.. وحملت نفسها على محفة يرفعها أربعة من العبيد السود، وتصاحبها فيها وصيفتان جميلتان.. هذه راكعة وراءها تروح لها، وتلك ساجدة أمامها تلبى الرغبات..

وعندما دخلت على الملك.. ووقعت عليها عيناه فى اتكاءاتها والتفاتها وزينتها وتألق طلعتها.. انهار قلبه فى عوى عربيد.. زادت هى من لهيبه بنظرات كلها دل وفتور.. لم يدع له مجال الاختيار..!

وعندما صارا وحدهما.. اتفق معها الملك على أن تترك زوجها.. لتكون له وحده.

وعادت سميراميس إلى قصر زوجها وفى أثرها رسول الملك يقول لمينوتس:

- إن سميراميس قد راقت فى عينى الملك، فهو يريد أن يراها فى قصره بين محظياته ونسائه. فإذا كنت فى حاجة إلى زوجة تحل مكانها فليس لدى الملك ما يمنعه من أن يسمح لك بالزواج من ابنته بدلا من سميراميس..!

وصعق الوزير لرسالة الملك ورغبته التى لا يمكن أن ترد، ولبث أمدا لا يدرى ما يفعل. واستدعى سميراميس زوجته يسألها كيف يتخلص من رغبة الملك.. فإذا بها تشير عليه بتلبيتها.. على أن تسعى هى خلال إقامتها فى البلاط.. بما أوتيت من فطنة ودهاء.. لعلها تقنع الملك بإعادتها إليه..!!

ونزل القائد عند إشارة سميراميس.. وكله حزن ويأس.. ولكنه ما كاد يبصرها خارجة من القصر فى محفتها.. حتى أسودت الدنيا كلها فى عينيه.. وانطلق إلى شجرة قائمة فى أقصى المدينة..

ومن غصن قوى من أغصان الشجرة العجوز.. تدلت جثة لم تجد من يواريها التراب..

وكانت هى جثة الوزير.. الذى حكم على نفسه بالإعدام..!!

* * *

حب المجد والسلطان؟!

بلغ الخبر «سميراميس» وهى بعد لاتزال فى طريقها إلى قصر الملك.. ولكن ماذا يعنيها من انتحار رجل ما أحست يوما واحدا إنها تحبه.. أبدا ما أحبته قط.. وما كان ليملأ قلبها سوى حب المجد، والسلطان، والسيطرة، وهى تستطيع أن تجدها جميعا فى قصر نينوس..!

وكان القصر ينتظرها كما لم ينتظر ملكة من قبل أبدا.. وعندما دخلته كانت تعلم أنها لن تكون أولى المحظيات فحسب.. بل ستكون هى وحدها الملكة.. ولا محظيات سواها..

وكان هذا هو بالضبط ما حدث..

فقد عرفت «سميراميس» اللعوب كيف تجعل الملك يكتفى بها هى وحدها.. ويطرد محظيات القصر ونساءه كلهن.. كأن الدنيا لم يعد فيها غير سميراميس..

ورفعها الملك من محظية إلى ملكة..

وولدت له الملكة ولد اسماه ميناس.

وظلت الحياة تسير...

عرفت «سميراميس» كيف تجعل من نفسها كل شيء فى قصر الملك.. وعرفت كيف تجعله لا يطيق فراقها لها لحظة.. حتى ولو كان خروجا لحرب.. أو لإخماد ثورة فحسب..

غير أن خروجها معه فى كل غزواته ملأها كراهية له واحتقارا. فقد كان يستعمل فى حروبه أبشع وأقسى أنواع التنكيل والإرهاب تماما ككل من سبقوه من ملوك بابل وآشور.. فكيف تطيق هى التى رعتها حمامات السلام فى البيداء مشاهد الدم المسفوك هنا وهناك.. وفى كل مكان..؟!

وكان آخر ما شهدته من حروب الملك عندما خرج إلى بلاد الطورانيين الثائرين عليه.. فعندما ظفر بأعدائه وفتحت له أبواب مدينتهم. أمر بسلخ جلود كل الشبان وهم أحياء.. وعلق الجلود على جدران بناها أمام أبواب المدينة الثائرة. ولم يكتف الملك

الوحشى بكل ذلك. فقد أمر بقطع رءوس الثوار.. ونظمها فى حبل على شكل عقد، وحكم على من بقى حيا من الرجال بأن يأكلوا لحوم أبنائهم وبناتهم.. أما من أبى فقد قطع أنفه وأذناه وشفتاه.. ثم سيق مع الآخرين إلى العاصمة.. ليدخل بهم دخول الغزاة المنتصرين..!!

ولم تطق «سميراميس» كل تلك الفظائع.. وكرهت الرجل الذى عرفت فيه أقسى من وجد على ظهر الأرض. ودفعتها تلك الكراهية ـ جنبا إلى جنب مع حب الطموح والسيطرة ـ إلى أن تسعى للتخلص من هذا الزوج.. عن أى طريق..!

وكانت سميراميس تعرف الطريق جيدا.. فقد عرفت من قبل كيف تتمنع على الملك لتغريه.. وكيف تقصيه عنها لتشعل فى قلبه نار الشوق.. فإذا ما تضاءل أمامها وتحطمت منه الأعصاب.. كان هذا هو الوقت الذى تطلب فيه ما تريد.. وسرعان ما يلبى ويجيب..!

وكان مساء.. وبينما الملك يجلس فى مقصورتها وكله شوق، أخذ يحدثها بأن الوقت قد حان لتطلب ما تريد.. وكان طلبها هو أن يسلمها سلطته كلها لأيام ثلاثة.. تجلس فيها وحدها على العرش.. ويكون لها أثناءها أن تأمر فتطاع.. ولو كان الأمر صادرا إليه هو نفسه..!

وابتسم الملك.. ثم ضحك.. ثم كاد يستلقى لطول ما ضحك.. ثم قال لها:

لك ما تريدين..!

وجلست «سميراميس» على عرش نينوى.. تأمره وتنهى وتحكم..

وانقضى اليوم الأول بسلام.

وطلع صباح اليوم الثانى من الأيام الثلاثة التى منحها لها الملك.. فكان أول أمر أصدرته سميراميس للجنود أن يقبضوا على الملك..!

وأطاع الجنود.. واقتيد نينوس إلى السجن أمام عينيها.. وعندما راح الملك يستعطفها فى ذلة وخضوع.. ابتسمت له ساخرة.. ثم انطلق من بين شفتيها أمر جديد إلى الجنود.. بأن يذبحوه..!!

وأثبتت «سميراميس» أنها لم تعد بعد ابنة الحمائم.. وأنها قد أصبحت ـ فى بابل وآشور ـ أكثر قسوة من كل طغاة بابل وآشور..!

وعلم الشعب بما صنعته الملكة.. فهاج.. وتألبت الجماهير زاحفة إلى القصر تهتف بالثأر، وتطلب برأس الملكة..

وتلقت سميراميس نبأ الثورة وهى فى الحمام.. فلم تذعر.. ولم تأخذها رعدة.. بل خرجت من الحمام نصف عارية.. فى شعر منفوش.. وغدائر تنسدل على كتفيها كريش الطاووس.. وأطلت من شرفة القصر..!

وتحول الصخب فجأة إلى همس خافت، وصمت الضجيج ثم أخذ يتحول بعد ذلك إلى عبادة وصلاة للملكة القاتلة..!!

وسجد الجميع.. ثم تفرقوا.. وقد أصبحت الملكة فى مقام الآلهة..

ومنذ ذلك اليوم.. جلست سميراميس وحدها على عرش آشور، تحكم دولة مترامية الأطراف.. وتقود الشعب كل يوم إلى مجد جديد.

واستمرت «سميراميس» تحكم وحدها عشرين عاما.

ولم يعد ينقصها بعد كل الأمجاد التى صنعتها للشعب إلا أن تتحول إلى الفتوح، وتحطم كبرياء كل الثوار.

وصنعت سميراميس جيشا لم تر آشور جيشا مثله قط. زحفت به لتخضع آسيا وميديا وفارس وأرمينيا وفينيقيا.. ولم يعد هناك من بلد يقف فى وجهها إلا الهند.. ذلك البلد المسحور الذى تحدثت عنه القرون الأولى.

وأذن فإلى الهند..

وخرجت سميراميس على رأس جيشها الجرار. فما وقف أمامها عدو.. وما صمد دونها بلد.. حتى بلغت أطراف الهند وقد أنهكها طول السفر..

وكانت سميراميس قد استعدت قبل ذلك بسنتين لملاقاة جيش ملك الهند. وكان الهنود مشهورين بقدرة فيلتهم التى تستخدم فى الحرب فلا تقهر. فسعت هى إلى

التغلب على هذه العقبة بحيلة حربية.. وأمرت بتغطية مائة ألف جمل بجلود الثيران السوداء لتقلد بها الفيلة.. وصنعت ألفى مركب لتشق بها نهر السند.. وحملها الجيش على ظهور الجمال.

وبدأت الحرب وجها لوجه.. وكانت سميراميس قد أنزلت فيلتها الزائفة فى المعركة.. فكسبت أولى الجولات.. وأسرت مائة ألف هندى.. وأغرقت ألف مركب من مراكب الأعداء فى نهر السند.

وتظاهر الملك الهندى بالتراجع والهرب.. ومن ورائه انطلق جيش «سميراميس» بغير نظام يبغى الغنيمة. وكانت هناك قنطرة كبيرة على النهر اضطرت سميراميس أن تنزل جيشها على جانبها.. وتوقفت المعركة..

وفى اليوم التالى عاد القتال.. وانطلقت الفيلة الزائفة براكبيها تطارد جيش الهند المتقهقر.. ولكن الهنود الذين اكتشفوا الزيف عندما عثروا على جثث «الفيلة» الميتة.. عادوا يكرون على جيش سميراميس بفيلتهم الحقيقية التى تمرست بالحروب وخبرتها..

وانهار جيش «سميراميس».. وفر الرجال والجمال فى اضطراب لم يكن بعده سوى الهزيمة..

أما هى.. فقد أصابها سهم من يد الملك الهندى، جعلها تسرع مع فلول جيشها المقهور إلى عبور نهر السند مرتدة إلى بلادها.. ولم يتبعها الملك الهندى بجيوشه إذ حذره كهانه من العبور..

وتم الصلح على تبادل الأسرى.. وعندما عادت سميراميس إلى آشور.. لم يكن يحيط بها من الجيش الذى خرجت به من قبل.. سوى الربع أو أقل قليلا..!!

وفى عاصمتها أحست سميراميس خيوط مؤامرة جديدة.. فقد كان ابنها ميناس قد ضاق بخمول ذكره أمام عظمة أمه وسلطانها، فملأته الغيرة.. وطمع فى الحصول على أزمّة الأمور..!

شعرت سميراميس بما يدبره ولدها.. وأرادت أن تجتذبه إليها وتتدارك أمر

نفسها فتزوجته. ولكن هذا الزواج لم يجدها نفعا.. فقد لبث ميناس يحول لها المكائد والدسائس حتى أحست كأنها محصورة فى مصيدة..!

وأتعبها الجهد.. ولم تجد أمامها إلا أن تتنازل عن العرش لولدها ميناس.

وخلعت سميراميس التاج الذى كسبته بالدم.. وخرجت من عاصمتها - بابل - التى شيدتها أيام مجدها.. لتعود إلى البادية التى تلقتها وليدة من قبل.. وهناك عاشت منبوذة وحيدة.. وكأنها لم تكن ذات يوم شيئا مذكورا..!!

ولم تطق «سميراميس» صبرا بعد.. فرفعت يديها إلى السماء تطلب من الإله بيلوس أن يأخذها إليه..

واستجاب لها رب الأرباب..! فحولها إلى حمامة بيضاء، رفرفت لتطير إلى السماء ومن حولها غمامة هائلة من حمائم أخرى بيض، تماما كتلك التى ربتها ورعتها ذات يوم..

وهناك.. عاشت سميراميس.. كواحدة من ربات آشور وبابل.. وعبدها أهل الأرض تماما كما يعبدون أهل السماء..!!!



هيلــــين

فاتنة طروادة
التى لأجلها قامت أول حرب
بين الشرق والغرب!!



قصة هيلين أو إيلينا فاتنة طروادة.. أو حصار طروادة.. أو حصان طروادة.. أو حرب طروادة.. كلها أسماء لحدث واحد، ولكنه حدث ملحمى مثير، خلده «هوميروس» فى «الإلياذة» فصار أنشودة شعر.. وأغنية حب، وصرخة حب.. وآهة غرام واشتياق.. ولمسة فنية ملهمة فى لوحات الفنانين العظام!

ولنبدأ قصة الحسناء الفاتنة التى اقتتل من أجلها الملوك.. واستنفرت فى سبيلها الجيوش لمدة عشر سنوات كاملة!!.

منذ أكثر من ثلاثين قرنا من الزمان، طلع على الدنيا من أرض يونان، المثال الأعلى للجمال فى صورة إنسان، وكان هذا الإنسان: هيلين

إنها «هيلين» ابنة ملك أسبرطة «تينداريوس» من زوجته الحسناء ليدا. وكانت الصبية اليونانية من الجمال بحيث زعم اليونان فى خرافاتهم أن أمها حملت فيها من كبير آلهتهم «زوس» نفسه، حين زارها فى شكل طائر رائع، من جنس البجع الطويل العنق الأبيض الناصع.

ذاعت شهرة جمال هيلين فى أنحاء بلاد الإغريق، فلم يبق أمير من أمرائها إلا وتطلع إلى زواجها، فأخذوا يتوافدون على أبيها، وفيهم من غلب الأبطال ببراعته فى الحرب وشجاعته، ومن فاق الأقران بقوة بأسه ووثاقة بنيته، واشتهر بطائل غناه وثروته، ومن زانه رونق صباه ووسامته، والكل تحدوهم فكرة واحدة، وتستحوذ عليهم رغبة واحدة: الظفر بالملكة ذات الجمال النادر المثال. وكان الشيخ ملك اسبرطة يطاولهم ويماطلهم حتى أخذ يضيق صدرهم وينفذ صبرهم يوما بعد يوم، وسرى التذمر بينهم، وظهر التملل منهم، وأوشك أن يستبد بهم السخط وتنفجر مراحل غضبهم!

وقد تنبه «عوليس» ملك جزيرة أتاكا إلى خطر الموقف، وكان أنفذ أمراء الإغريق فطنة، وأبرعهم رأيا، وأمكرهم تدبيرا، فاشفق على الملك الشيخ، فقصده وأسر إليه:

- يا عاهل أسبرطة العظيم! ستحدث خطوب فى بلاطك الكريم، إذ أنت لم تعجل بإعلان قرارك فى شأن زواج ابنتك هيلين. أن الخاطبين فى قلق يزداد يوما بعد يوم، وأنت أعرف بطباعهم من أن تتوقع صبرهم على هذا الحال.

- أنت على حق يا عوليس الحكيم! ولكن ما الحيلة؟ لو أنهم فى مثل حكمتك ورجاحة عقلك، ما ترددت فى إعلان قرارى. ولكنى مشفق أن أنا أعلنت اختيار أحدهم زوجا لهيلين، أن أثير عليه حسد الآخرين، وينشب النزاع، وتحل بنا كوارثه أجمعين. فهل ترى لى من ذلك مخرجا يا عوليس!

- من أجل هذا توخيت لقاءك. فإن عندى لك المخرج، وهو غاية فى البساطة واليسر.

ـ أحقا تقول؟ هات إذن، يا عوليس الحكيم! وسأكون طوال العمر شاكرا معروفك ذاكرا لك حسن سعيك.

ـ يا ملك اسبرطة! هذه نصيحتى إليك!

واقترب عوليس من الملك الشيخ، وهمس فى أذنه ما ارتآه من الرأى. وأخذت تنبسط من الشيخ المهموم غضون وجهه وتبرق أساريره. ولما انتهى عوليس من همسه حتى كان محيا الملك يطفح بشرا. وكاد على تمسكه ورغم شيخوخته يطير فرحا. واستأذن بعدها عوليس وانصرف، والملك يردد «شكرا يا صديقى، شكرا! أرى اليونايين لم يكونوا مبالغين. حين قالوا أنك خير الناصحين».

ودعا الملك رسله فأنفذهم إلى أمراء يونان يعلمونهم أن الملك قد اتخذ قراره فى شأن زواج ابنته هيلين، ويدعوهم إلى موعد الاجتماع فى قصره لإعلانهم بالقرار.

وفى الموعد المضروب، اجتمع فى قاعة العرش فى القصر الملكى بأسبرطة طالبوا الزواج من هيلين وهم خلق كثير، كلهم من بيت ملك كبير، وكانوا من عظم الرغبة وفرط اللهفة يتساءلون فيما بينهم إذا كان قد نما إلى بعضهم علم ما انتهى إليه قرار الملك تينداريوس. فلم يشف أحد غليلهم، بيد أنه لم يطل انتظارهم، إذ طلع عليهم الملك الشيخ ومعه ابنته هيلين، بيضاء هيفاء، شعرها الذهبى بلون الشمس، وعيناها النجلاوان لهما زرقة البحر، وقد أفرغ قوامها فى قالب من الجمال لا يضارعه بين نساء العالمين جمال. وقد استوى الشيخ على عرشه وهى إلى جانبه، ثم تكلم فحيا الأمراء الوافدين أطيب تحية ورحب بهم، ثم قال:

ـ سأختار اليوم من بينكم، يا أمراء يونان، زوج ابنتى. ولكن أطالبكم قبلها أن تؤدوا اليمين بين يدى.

فتصايحوا:

ـ أية يمين يا ملك أسبرطة؟ ومن منا تريده على آداء هذه اليمين؟

ـ أريدها منكم أجمعين، وأريدكم على القسم بأغلظ الإيمان، أن لا يكون زواج هيلين مثارا بينكم للتحاسد والأضغان، وأن تؤدوا حق الزوج الذى سيختار منكم أيا

كان، وأن ترعوا حرمة هذا القران، وتدفعوا عنه كل عدوان.

ولما لم يكن من الأمراء واحد إلا وهو كبير الأمل في أن يكون ذلك الزوج المحظوظ، فقد هتفوا بصوت واحد: «فلنقسم!».

وهنا أمر الملك الشيخ، فجيء بالجملان والجديان، ثم قدمت أقداح النبيذ للأمراء الشبان، وعندما ارتفع صوت الملك وهو قائم يبتهل:

«نشهدك يارب الأرباب، وأنت أيتها الآلهة المنتقمة من الحانثين نشهدكم أجمعين على هذا القسم العظيم»

وتلا ملك أسبرطة القسم، وردده الأمراء من بعده:

«نقسم بأغلظ الإيمان، أن نؤيد حق الزوج الذى سيختار منا أيا كان. وأن نرعى حرمة هذا القران، وندفع عنه كل عدوان».

وكان لأصواتهم - وهم يرددون القسم في قاعة العرش - دوى عظيم رنان، ترددت أصداؤه وتجاوبت بها الجدران.

وعلى أثر ذلك نحرت الأغنام، وشرب الأمراء الشبان جرعة من أقداحهم، ثم أهرقوا ما بقى على أرض المكان، وهم يرددون فى صوت واحد: «هكذا فليهدر دمه، من حنث بقسمه».

وبعدها، ساد السكون وثقلت وطأته على هذا الجمع من المحبين، وهم سكوت، يتطلعون إلى الملك الشيخ، وقد تعلقت أبصارهم وقلوبهم بشفتيه وأخيرا قال:

أيها الأمراء! إنكم جميعا من شرف القدر، وكرم العنصر، وعلو الهمة والشجاعة، بحيث يشق على المفاضلة بينكم، واختيار واحد منكم أكون به أعجب منى بغيره. فأنا من أجل هذا، أدع الخيار لك يا هيلين! فاختارى زوجا من ترين.

ولما أتم الملك تينداروس مقاله، رفعت «هيلين» الفاتنة هامتها الذهبية، وأجالت عينيها بزرقتهما اللازوردية فى صفوف خطابها الأمراء، وهم قائمون تجاهها، يتابعون لحاظها كمن يتابع من الشمس المتنقلة شعاعها، وكلهم ينتظر ما سوف تنفرج عنه شفاها.

وبدت على هيلين الحيرة، فأعادت الكرة، وردت الطرف ثانية وثالثة فى صفوف الأمراء، فكان فى ذلك التكرار زيادة من حيرتها فى الاختيار وأخيرا وقفت بنظرها الحائر عند أحدهم، والتفتت إلى أبيها تقول فى صوت خافت:

ـ اخترت الأمير منلاوس.

كانت هذه كلمة هيلين. وقد لبث الجميع من دهشة المفاجأة مبهوتين. وكان أشدهم مفاجأة وأعمقهم اندهاشا «منلاوس» نفسه. فهو لم يكن أبرز الحاضرين شخصية، ولا أكثرهم ثراء، ولا أقواهم بأسا، ولا أجملهم رواء. وكان موقفه من هيلين كلما رآها، أقرب إلى العابد منه إلى موقف الخاطب.. ولكن هيلين قالت كلمتها. والمشيئة فى ذلك مشيئتها.

ولقد ظهرت بوادر الاستياء على الأمراء، ولكنهم ذكروا اليمين التى أقسموها، واللعنة التى استنزلوها على الحانثين.

واحتفلت اسبرطة بزواج هيلين، وأقيمت الأعراس بين الأناشيد والرقص وتحايا الأشعار وأكاليل الأزهار. فلما أن أصبح الصباح، أعلن الملك الشيخ أنه نزل من العرش لصهره بمثابة الهدية لعرسه!!

ولم تمض سنوات حتى كان الشيخ قد مات، تاركا على عرش أسبرطة صهره منلاوس، والملكة هيلين، وابنتهما الصغيرة هرميون والجميع فى وئام وسلام.

* * *

الحلم العجيب!!

كان فى تجاه اليونان، فى البلاد الواقعة شرقى بحر إيجة على الشاطىء الأسيوى، مدينة عزيزة الجانب، شديدة المنعة، قوية غنية، هى طروادة. وكانت المدينة واقعة بين جبل «أيدا» الشامخ والبحر، قائمة على رأس ربوة تشرف على الأودية الخصبة الناضرة عند سفحها، وتتحكم كالسيدة الآمرة الناهية فيمن حولها.

وكان الجالس وقتئذ على عرش هذه المدينة العظيمة «بريام» وهو فى قصره الممرد الضخم سعيد باستقرار ملكه الضخم، فخور بأولاده الخمسين، وكان أشجعهم «هكتور» وأجملهم «باريس».

وفى ذات ليلة رأت الملكة «هيكوبا» فى منامها، قبل ولادتها، «باريس» حلما عجيبا: رأت نارا تندلع من بطنها، ثم أخذت هذه النار تعظم ويمتد لهيبها إلى المدينة وتستشرى فيها حتى حرقت طروادة كلها، وهبت الملكة من نومها مذعورة. وقصت على الملك رؤياها. فلما أسفر الصبح، دعا بالكهنة العرافين، فتوافدوا واحدا بعد الآخر، وهم جميعا كهول قد شابت لحاهم الطوال وشعورهم المسترسلة، فلما احتشد جمعهم واكتمل حفلهم، أدخلوا إلى قاعة العرش حيث كان الملك والملكة فى انتظارهم، فسلموا بالتعظيم، ووقفوا فى انتظار الأمر، مطأطئين رؤوسهم، ضاربين بالأذقان صدورهم. وأذن الملك لهم بالجلوس فى حضرته، وأبلغهم السبب الذى استقدمهم من أجله. ثم دعا الملكة أن تقص عليهم رؤياها.

وأصغى الكهنة إلى تفصيل الرؤيا فى صمت مطبق وسكون مطلق، فلما فرغت الملكة هيكوبا من روايتها، قام أكبرهم سنا، وقال بصوته الخافت وهو ينفض رأسه الأشيب أسفا: «رؤياك أيتها الملكة رؤيا محزنة، فالولد الذى سوف تلدين سببا فى حريق عظيم يدمر طروادة. ذلك مبلغ علمى». وقام على الأثر سائر الكهان فرددوا ما قاله كبيرهم، وهم يهزون رؤوسهم المبيضة أسفا. ثم أخذوا ينصرفون.

فلما صار الملك والملكة وحدهما وخلت قاعة العرش إلا منهما، أجهشت الملكة بالبكاء، وكان الملك حزينا مهموما، ولكنه أقبل عليها يحاول التسرية عنها، فلما هدأ روعها قليلا، سألته عما هو فاعل، فقال:

ـ نحن ـ بحمد الآلهة ـ غير محرومين من الولد، وعندنا منهم الكثير. فلا بأس ألا يكون لنا هذا الأخير، فليس من الصواب فى شىء أن نحرص عليه، إذا كان حريق طروادة على يديه.

ـ وإذا كان الكهنة مخطئين؟ وإذا كان الوجه فى تعبير الرؤيا غير ما ذهبوا إليه؟

ـ كلا، الكهنة لا يخطئون. وقد رأيت كيف هم على هذا التأويل مجمعون.. لا، لا، لايمكن أن نحتفظ بالوليد، سيحمل عند مولده إلى الغابة البعيدة ويترك هناك. وبهذا نكون قد كفلنا الخلاص لمدينتنا.

ـ ولكن ماذا يكون أمر الطفل المطروح فى الغابة؟ أنه هالك لا محالة، ونكون نحن سبب هلاكه.

ـ إننى المسئول عن هذا البلد. والواجب يقضى على أن أقدم بلادى على أولادى. إن فجيعتى فى ولدى واقعة على وحدى، أما الوطن فالفجيعة فيه تشمل الأجداد والأبناء والأحفاد والأجيال المقبلة جميعا.

ولم تجد الملكة الحزينة المسكينة غير التسليم. ولما وضعت وليدها لفته فى قماش من الخرز المطرز، ودثرته بدثار من الصوف ذى الوبر، وأودعته سلة لطيفة كانت أوصت بصنعها ثم انحنت عليه وقبلته فى لهفة مرات، ودفعته إلى الملك. وهرولت وقد تبادرت عبراتها وأغلقت عليها باب غرفتها، تبكى وليدها وتفكر فى مصيره.

وحمل الملك الأمير الصغير، وأرسل فى طلب راع من رعاته الأمناء، وناوله الوليد قائلا:

ـ هذا الطفل يجب هلاكه، فأحمله إلى جبل إيدا، بعيدا عن المدينة، وعن العمار، واتركه وحده على القمة ولا تعد إليه. هذه مشيئتى!

وانفذ الراعى مشيئة الملك، وعاد إلى كوخه فى سفح الجبل، ومنذ ذلك اليوم، تكررت على نظر الراعى ظاهرة غريبة، فهو يرى من بعيد دبة من الدببة وهى ترقى الجبل فى صباح كل يوم وتهبط فى المساء. وقد بلغ من الراعى العجب أن دفعه الفضول ذات يوم إلى أن يرقى الجبل خلفها ويقفو أثرها، فإذا الدبة تبلغ القمة وتقترب من السلة المطروحة وتزحم عليها لترضع الطفل، ثم تعود أدراجها، وقد عجب الراعى مما رآه، وكان لا يكاد يصدق عينيه، ولما عاد إلى كوخه قص على امرأته القصة، فقالت وهى لا تتمالك نفسها من العجب: «هذا من خوارق المعجزات. وهو دليل على أن الآلهة تريد خيرا بالأمير الصغير، فينبغى أن لا ندعه يهلك».

وصادف هذ الكلام هوى فى نفس الراعى، فذهب تحت ستار الليل إلى قمة الجبل، وحمل الطفل فى سلته إلى الكوخ. وقام هو وامرأته على العناية بأمره على أنه ولدهما، وقد أفعم بالسرور قلباهما أن يكون لهما ولد بهذا الحسن والرواء.

وشب الغلام على اعتقاد إنه ابن الراعى، وقد أطلق عليه اسم «باريس» وكان حين كبر يتولى عن أبيه رعى الغنم. كما كان يخرج أحيانا للصيد ويعود إلى الكوخ محملا بالصيد. وكان يزيد مع الأيام ريعانا وحسنا ويشتد عنفوانا وبأسا، وكان عليه من نبالة السمت ووجاهة الشارة ما ينم على الأمارة، وكانت تتعرض له الفتيات من

بنات الرعاة وهو معرض عنهن، ولم تقع فى نفسه إلا الصبية «اينون» ذات القلب الحنون التى كانت تسكن على جبل «إيدا» فلقيته فى صباح يوم رائق، رقيق الهواء شفاف النور، وكانت مثل غصن الزنبق فى ثوبها الأبيض، تقطف الزهر البرىء وتجعل منه كل زينتها، فهو الطاقة فى يدها، والتاج لشعرها والحلية لمنطقتها. وكانت وسط هذا الزهر العميم، تطفر وتغنى بصوتها الرخيم. وهكذا لقياه «باريس» أول ما لقيها، فاستمالته وتولع به قلبها.

* * *

فى وليمة الآلهة على جبل الألب

تروى الأساطير أن آلهتهم كانوا فى معظم ولائمهم يغفلون دعوة آلهة الخلف والشقاق «إيريس» حتى لا يعكر وجودها صفو اجتماعهم وكانت «إيريس» تنكر ذلك منهم وتضطغنه عليهم وتأخذها لهم حمية وحزازة. وقد بلغ إلى علمها قيام حفلة شائقة من أبهى حفلات الأعراس دعيت إليها الآلهة جميعا. ولم يستثن من الدعوة سواها. فانتهزت اجتماع الآلهة فى قاعة الاحتفال حول المائدة وألقت عليها تفاحة ذهبية منقوش عليها «إلى أجمل النساء». فكان طبيعيا أن تدعى الحق فيها جميع الحاضرات، ثم انتهى الأمر بأن انحصرت المنافسة بين «افروديت» و «هيرا» و «بالاس أثينا»، وقد طلبن إلى كبير الآلهة «زوس» أن يكون الحكم، ولكنه كان أحكم من ألا يقضى بينهن، لاسيما وفيهن «هيرا» زوجته، وأشار إليهن أن يذهبن إلى جبل «إيدا» بالقرب من طروادة فيحتكمن إلى ابن ملكها الأمير الشاب «باريس» الذى يرعى هناك الأغنام جاهلا شرف محتده.

وما كان أشد تعجب الفتى ودهشته حين مثلت أمامه وتجلت قيد عيانه هذه الصور الرائعة للربات الثلاثة، وعندها أقبل عليه «هرمز» وكأنه يطير من خفة قدميه المجنحتين، وقال له فى لطف وإيناس وكأنه يعرفه منذ سنين طوال:

ـ لا تعجب مما ترى يا «باريس»! إن هؤلاء الربات الحسان إنما هبطن من سماء الألب ليحتكمن إلى البشر أيهن أبرع حسنا. وقد اختارك كبير الآلهة «زوس» لتكون الحكم. فمن وقع عليها اختيارك بعد التأمل والروية، فامنحها هذه التفاحة الذهبية.

فجعل الفتى يتأمل الربات الحسان الثلاث وهو لا يفيق لنفسه حتى يستجمع حسه ويصدر حكمه، فتقدمت إحداهن نحوه، ولما صارت على خطوات منه، أسرت إليه:

ـ تعال، يا ابنى ملك طروادة! فأنا ربة المعرفة والحرب، وسيكون عليك أن تكافح عن بلادك وتدفع العدو عن أسوارها وتحمى ديارها، فإذا أنت منحتنى التفاحة الذهبية جعلتك من أهل التدبير والمعرفة وكنت حامية بلادك ونصيرتك على سائر المحاربين الأبطال.

قالت «بالس أثينا» ذلك، ثم تراجعت إلى مكانها، وتقدمت «هيرا» حتى صارت فى محاذاته وقالت:

ـ أنا زوجة «زوس» أبى الأرباب. وأنت أمير وابن ملك كبير، وفى مستطاعى إذا أنت قضيت لى بالتفاحة أن أجعلك ملكا على آسيا كلها وأضع فى يديك خزائنها واجعل كلمتك فوق ملوك الأرض أجمعين.

وأخيرا أقبلت عليه «أفروديت» واقتربت منه حتى لاصقته، وقالت فى دلال بصوتها الرخيم:

ـ انظر إلى أفروديت «ربة الحب والمتعة، ماذا أنت واجد فى السيادة على الخلق أو احتوائك كنوز الأرض؟ إنك أمير وابن ملك كبير، ولا ينقصك شىء من علو النسب وشرف المحتد. فإذا أنت جعلت من نصيبى التفاحة. جعلت من نصيبك هيلين أجمل نساء الدنيا، فعرفت طعم السعادة التى لاتعد لها سعادة.

وكان فى هذا العرض ما يغرى الفتى «باريس» الذى كان يقضى أيامه فى رعى الغنم، ولياليه مع بنات الغاب مستسلما لحياة الدعة، بعيدا عن مطامع الملك ومنافسات أهله. وزاد فى إغرائه ما تشيعه أفروديت حولها من جو مشبع بالسحر والاشواق والنشوة الحسية الغرامية.

وهكذا لم يسع «باريس» إلا أن يلقى إليها بالتفاحة الذهبية!!

ومنذ ذلك الحين، تغير حال «باريس» مع فتياته، ومنهن «اينون» التى كانت أحظاهن عنده، فكان مع بقاء اتصاله بهن قليل الأقبال عليهن ظاهر الفتور نحوهن. وصار يكثر من العزلة خاليا بنفسه يفكر فى السبيل إلى العودة إلى مكانه بين أهله.

واتفق أن أقيمت فى طروادة وقتئذ مباراة من تلك المباريات الرياضية التى جرت العادة بإقامتها فى كل عام، فاعتزم الفتى أن يشارك فيها، وودع الراعى وزوجته، وكان الوداع شديد الوقع عليهما، كأنما ألقى فى روعهما أن فى الأمر سرا وأنهما هذه المرة يضمانه للمرة الأخيرة إلى صدريهما. وكذلك كان وداعه للصبية «إينون» وداعا أليما فاضت له دموع الفتاة مدرارا وتصعدت زفراتها نارا، وقد وقر فى نفسها أنه فراق الأبد.

وكان قد أعلن فى أنحاء المملكة دعوة الشباب الطروادين إلى المساهمة أجمعين فى المباريات، فجاؤا أفواجا دون تفرقة بين الأغنياء والفقراء ما داموا جميعا أصحاء البنية أقوياء. وكان فيهم من يعرفهم شهود المباريات لسابقة اشتراكهم أكثر من مرة، كما كان فيهم خلق كثير لا يعرفهم الجمهور لدخولهم المباراة للمرة الأولى. ولما بدأت المباراة كان بدأوها سباق العدائين، وكانت جموع الناس تهلل لمن يعرفونهم كلما مروا بهم، هاتفين بأسمائهم، ولم يكن من هؤلاء «باريس» فلم يعره أحد التفاتا، ولكنه لم يمض القليل حتى ظهر تفوقه على المتسابقين، فأخذ المتفرجون يسائل بعضهم بعضا: من يكون؟ فلما انعقد له النصر آخر الأمر، قاده الموكلون بالمباراة إلى المنصة الملكية، فأظهر له الملك رضاه وأثنى عليه، وهشت الملكة فى وجهه وبان سرورها به وانجذابها إليه. ثم سئل عن اسمه، فقال فى غير تردد ولا افتعال:

أنا الأمير «باريس» بن بريام ملك طروادة وابن هيكوبا ملكتها!

فلما بانت عليهما الدهشة، أتاهما فى الحال بالسلة والغطاء ذى الطراز وكان قد احتفظ بهما، فتلقى الملكان ابنهما الذى كان فى عداد الأموات فى أحضانهما، وصاح المنادى على الملأ يعلن اسم الفائز: «باريس» ابن ملك طروادة وابن هيكوبا ملكتها.

وتناسى الوالدان قصة الحلم وتأويله حين أبصرا وليدهما، يرد إليهما فتى بلغ مبالغ الرجال، قوى الأسر وافى النشاط رائع الجمال، قد فاق على أقرانه وأترابه، وهو بعد فى ريعان الشباب.

وهكذا عاش «باريس» فى كنف والديه مع سائر أخوته وأخواته، وأخذ يتأدب عليهم ويتلقى عنهم حتى انسلخ عن عادات الرعاة الفقراء وصار مسلكه فى كل شىء سلوك الأمراء. وعندها فكر والده الملك أن يوفده فى بعض الأسفار ليفيد منها المعرفة والخبرة.

ولما كان الملك منذ مقتل أبيه على يد العملاق هرقل، وسبى أخته الصغيرة وإرغامها على الزواج من ملك جزيرة سلاميس، غير مطمئن البال على فأل أخته بعد أن تواترت الأخبار بما تلقاه على يد زوجها اليونانى من المهانة وسوء المعاملة، فقد فكر الملك أن يكون سفر ولده «باريس» لزيارة عمته من الناحية الأخرى من بحر إيجه. فلم يعتم الفتى أن أبحر على مركب كبير مجهزة ومعه من الهدايا والألطاف كل نفيس. وما برحت المركب تمخر به عباب الأزرق اللجى حتى إذا بلغ مياه سلاميس، قصد من فوره إلى القصر الملكى حيث استقبله الملك على ما جرى به رسم استقبال الأمراء، ولكنه أحس بما وراء ذلك من الجفاء. وعلى الرغم من أنه لم يقضى فى ضيافة عمته إلا يومين، فقد لمس ما تلاقيه الملكة المسكينة من الفظاظة والضيم فلم يطب له أن يطيل المقام عندها. ويضاف إلى ذلك أنه طوال رحلته فى البحر كان يسرح بخاطره مع الأمواج المتدافقة المضطردة إلى أرض هيلين فى جنوب شبه الجزيرة اليونانية. فكيف يطيل مقامه فى سلاميس بعيدا عنها، وليس يفصله عنها إلا مسافة يوم أو بعض يوم.

* * *

غواية الفاتنة «هيلين»!!

رفعت المركب مراسيها من ميناء سلاميس، وانطلقت منشورة الشراع متجهة إلى أسبرطة، وكانت الريح مؤاتية، ولكن «باريس» لم يكفه من المركب انتفاخ شراعها، بل أمر بالمجاديف ليزيد من سرعة تدفاعها، فما وافت الظهيرة حتى كانت رسله قد تقدمته على ظهور الخيل بالهدايا تستأذن له فى مقابلة ملك المدينة.

وبعد لحظة أقبلت عجلة يجرها جوادان من عتاق الخيل، وكانت جوانب العجلة موشاة بالذهب، ومن داخلها بطانة الديباج، ويستقلها فارس جميل الصورة فى حلة فاخرة وزينة باهرة، وكانت نظرة واحدة إلى مظهره تدل على أنه أجنبى قادم من الشرق الغنى.

واستقبل الملك منلاوس فى مظهره الخشوشن البسيط ضيفه الملكى القادم من الشرق الغنى، وبعد أن بادله التحية، وسأله عن موطنه وعن البلاد الآسيوية، دعاه فى غير كلفة إلى مائدته. فقدمت الجوارى أقداح النبيذ والخبز الأبيض وقطع اللحم المشوى ونحو ذلك من المأكل البسيط. فما أن فرغا من الطعام ورفعت آنيته، إذا بامرأة أشبه بحور الجنان تدخل وعليها مسحة من السأم الحزين، وتلقى إلى ملك أسبرطة قولا يبدو

أنها كانت قد كررته منذ هنيهة: «ألاتزال معتزما السفر؟ وهل لاتزال عند رأيك فى السفر وحدك؟».

وينظر منلاوس إلى زوجته كالمنكر لدخولها مع وجود غريب فى حضرته. ولا يسعه إلا أن يبادر بتعريف الاثنين، ثم الاعتذار لها بأن الوحدة تثقل عليها. وهو مضطر للرحيل الليلة، فهى تحاول أن تثنيه عن السفر أو تقنعه بالذهاب معه. ولما كان كلاهما متعذرا، فهى عاتبة غاضبة تكاد من الغضب تنسى نفسها وتخرج عن طورها. وما كاد «باريس» يرفع نظره إليها حتى راعه جمالها واضطرم قلبه هياما بها. وما كان هذا الاضطراب ليخفى على هيلين، ولقد أعجبها ذلك وراقها، وأرضى كبرياءها التى جرحها الزوج برفضه اصطحابها وإظهارها الصبر على بعادها، وقد زاد من ارتياحها فى هذه اللحظة إلى ما أحدثه جمالها فى نفس الغريب من الروعة أنه كان انضر من زوجها شبابا وأغض إهابا وأجمل طلعة وأفخر حلة وأبهى زينة.

ولما كان منلاوس على أهبة السفر بعد قليل، فقد استجمع «باريس» بقية عزمه وتحامل على نفسه واستأذن فى الانصراف، وعلى الأثر خرج ملك أسبرطة فى زمرة من أتباعه بعد أن ودع زوجته وابنته، قاصدا إلى جزيرة كريت فى زيارة لملكها فى شأن من الشئون.

وبقيت هيلين فى الدار وحدها خالية بنفسها تفكر فى حالها مع زوجها وانصرافه إلى شواغله الكثيرة التى لا آخر لها، ثم تذكر موقفها الأخير منه، وإلحاحها عليه فى السفر معه، وتتخيل دخولها عليه وفى حضرته ذلك الغريب، وعندها تتوقف بتفكيرها عند هذا الغريب، فيستحضره خيالها فى عنفوان شبابه وريعان حسنه وجماله وحفل زينته وهندامه. وهى لاتنسى تصرف هذه الصورة عن مخيلتها، ولكن الصورة كانت لاتنسى تعاودها وتتشبث بها.

وكان اليوم عيد «أفروديت». والناس يحتفلون به كافة، وقد ازدحمت بهم الطرقات، وطاقت جموع الفتيان والفتيات ينشدون ويرقصون وتتجه مواكبهم إلى معبد الربة، وقد ازدان تمثالها بقلائد الجوهر وأسماط الدر وأكاليل الزهر.

ولم تلبث «هيلين» حين جن الليل أن أحست فى نفسها حاجة إلى التعبد للربة، فذهبت ومعها بعض جواريها يحملن القرابين، فما كادت تضعها على المذبح، وتستغرق لحظة فى ابتهالها، حتى كان إلى جانبها «باريس» يسأل الربة أن توفى له بوعدها.

وقامت «هيلين» فإذا بها و«باريس» وجها لوجه، وإذا هو يمسك بذراعها فلا ترده، وإذا هو يخرج بها من المعبد فتنقاد له، وإذا هما تنطلق العجلة بهما كالشهاب الهادى إلى الميناء، وسرعان ما ينشر الشراع للهواء وتتحرك المجاديف فى الماء، فإذا السفينة الطروادية تغادر الأرض اليونانية حاملة معها آية الجمال، حتى إذا صارت السفينة فى عرض البحر، تراءى على ظهرها تحت القمر عاشقان متعانقان وكأنهما فى عناقهما الحار شعلة نار!!

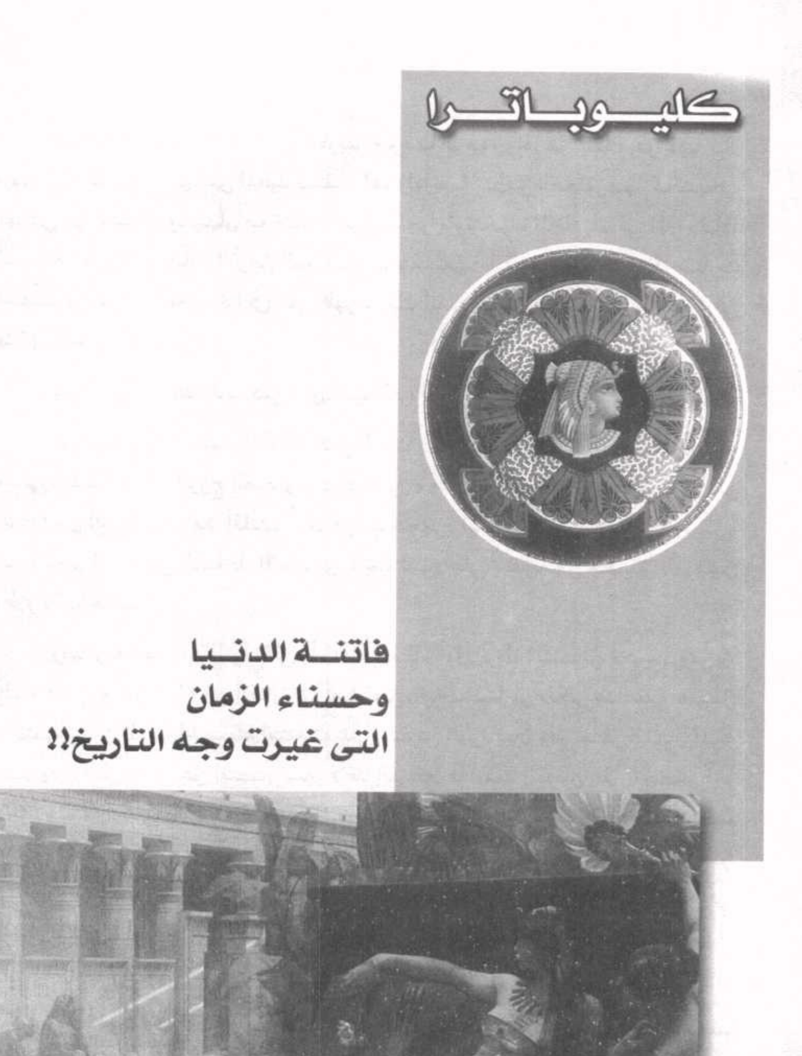
شعلة نار كان ذلك الحب. فهو الذى أضرم للمرة الأولى نار الحرب بين الشرق والغرب.

غضبت يونان كلها للمهانة التى لحقت بها. فحمل السلاح نحو المائة ألف يونانى، بقيادة أخى الزوج المغصوب «أجاممنون» ملك أرجوس، ومشاركة غيره من ملوك المدن اليونانية، وقد أقلتهم ألف مركب مجهزة أبحرت بهم من ميناء «أوليس» عابرة بحر إيجه إلى الساحل الآسيوى حيث تقوم على مقربة من مضيق الدردنيل «طروادة» العظيمة.

وهنا وقع الصدام الذى تغنى بأحداثه العظام أول الرواة المنشدين «هوميروس»، وإليه فليرجع من شاء من القارئين. أما نحن، فحسبنا أن نذكر هنا على سبيل الاختصار، أن المدينة الحصينة امتنعت على جيوش اليونانيين ولم يسفر القتال المرير بينهم وبين الطرواديين عن انتصار مبين لأحد الفريقين فاعتمد اليونان على الحصار آخر الأمر، وأقاموا على ذلك سنوات عشر!!. ولولا ركونهم إلى الخيانة والحيلة، لما كان لهم إلى طروادة من وسيلة، وهؤلاء هم قد دخلوها خلسة، وأخذوا أهلها على غرة، فنهبوا أموالهم وسبوا نساءهم وأمعنوا فى رجالهم وأطفالهم تقتيلا، ثم أضرموا النار أخيرا فى المدينة، فلم تزل نار الحريق ترعى فى نواحيها، وتأتى على أسوارها ودورها ومغانيها، حتى صارت أثرا بعد عين.

ولقد فقد اليونانيون فى هذه الحرب الكثير من رجالهم، وفجعوا فى معظم أبطالهم، ولكنهم عادوا ومعهم «هيلين» آية الجمال العديمة المثال، لتشرق من جديد على أسبرطة، وعلى يونان كلها فى ذلك الحين، ثم من بعده حتى اليوم وإلى أبد الآبدين، فى مخيلة العالمين جيلا بعد جيل!!

كليوباترا



فاتنة الدنيا
وحسناء الزمان
التى غيرت وجه التاريخ!!

كليوباترة اسم ساحر خلع عليه التاريخ وخلعت عليه الأساطير من ألوان الفتنة بهاء باهرا تضاءلت إلى جانبه أسماء الزهرة وأفروديت وسائر آلهة الجمال، وهاتاسو وينفرت وسائر الملكات، بل تضاءلت إلى جانبه أسماء الملوك، والشعراء، والكتاب، فهى ليست جميلة وكفى، وليست ملكية وكفى، وليست ساحرة الحديث وكفى، وليست ذكية وكفى، وليست أديبة وكفى، بل هى ذلك كله وهى أكثر من ذلك كله، هى الفتنة والسحر والذكاء والأدب والنشاط وقوة الإرادة فى أسمى ما تصوره معانى هذه العبارات، وهى مع ذلك آخر البطالسة الذين حكموا مصر عصورا طويلة كانت مصر فيها مهبط وحى الحكمة والشعر والجمال. لذلك لم يفت مؤرخ ولا قصاص ولا شاعر أن يتحدث عن كليوباترة وأن يتغنى بحياتها وأن يصور هذه الحياة على النحو الذى يجب أن تكون. ولذلك كان ما أريق من مداد وما سود من صحف فى الكلام عن هذه الملكة أكثر من مثله مما يمكن لأية آلهة أو ملكة أخرى أن تفخر به!

فتعال معى نقرأ فيما يلى قصة امرأة من أشهر شهيرات النساء فى جميع العصور، قصة «كليوباترة» الخالدة: كليوباترة الملكة.. وكليوباترة العاشقة!.. بل كليوباترة المرأة التى ابتدعت من الأساليب الجريئة فى السياسة، وفى الحب!. ما غير وجه التاريخ، وخلد اسمها على مر الزمان.. وأوحى إلى المؤرخين وأهل الفن بآلاف الكتب والقصائد، واللوحات، والألحان..!

وقصة كليوباترة تبدأ عندما مات أبوها الذى كان أوصى بأن يكون الرومان أولياء على ابنته كليوباترة البالغة من العمر سبعة عشر عاما وأخيها بطليموس البالغ من العمر عشر سنوات وأن يتزوجا الاثنين ويعتليا العرش معا، وقد كان فى هذا الوقت يحل للأخ أن يتزوج من أخته.. وتم الزواج كما أوصى الأب ولكنه كان زواجا اسميا فقط. فقد كان هناك صراع خفى يدور فى نفس كل منهما من أجل العرش فكلاهما يريد أن يستأثر بالحكم بمفرده، كما كان لكل منهما جيشه المستقل فكان طبيعيا أن ينقلب الأخوين أو الزوجين على بعضهما حتى كادت أن تنشب المعارك بين جيشاهما ليظفر أحدهما بالعرش. فقد رابضت كليوباترة بجيشها فى الصحراء تتربص لجيوش أخيها كما أعد هو الآخر عدته ليقضى عليها.

وفى هذا الوقت فى روما كان يدور أيضا صراع آخر بين القائدين «يوليوس قيصر» و«بومبى» من أجل زعامة روما وكانت المعارك ضارية بينهما حتى انتصر أخيرا يوليوس قيصر وتوجه بقواته ظافرا إلى الاسكندرية. وعندما وصلت الأنباء إلى كليوباترة التى ترابض فى الصحراء بانتصار يوليوس قيصر على بومبى ودخوله الاسكندرية بدأت تفكر على الفور بعقل المرأة فقد خطر لها أن تكسب يوليوس قيصر إلى جانبها ليؤازرها ويعاونها فى الإطاحة بأخيها والأنفراد بالعرش. ففكرت فى العودة إلى الاسكندرية لمقابلته ولكن كيف تفعل ذلك وجنود أخيها منتشرون فى كل مكان وكيف تصل إلى داخل القصر الذى ينزل فيه قيصر فى الاسكندرية وكيف تهرب من الجنود المنتشرين حول القصر. فكرت فى كل ذلك وأصرت أن تقابله بأى طريقة أو وسيلة.

وفى مساء أحد الأيام دخل عبد إلى يوليوس قيصر وأخبره أن الملك الصغير «يقصد بطليموس شقيق كليوباترة» قد أرسل له سجادة ثمينة لفرشها فى غرفته فأذن له يوليوس قيصر بأن يأتى بالسجادة، وعندئذ دخل العبد وهو يحمل سجادة فاخرة

ملفوفة حول بعضها ثم وقف أمام يوليوس قيصر ووضعها على الأرض وأخذ فى فتح السجادة ليفرشها بالأرض وعندئذ خرجت كليوباترة من بين طيات السجادة التى كانت تختبىء بداخلها. خرجت فى رونق وبهاء يأخذ بالألباب وكانت حيلتها رائعة وخبيثة فحين رآها قيصر وهى تخرج له من بين طيات البساط أعجب بها أشد الإعجاب وافتتن بها وبادلته كليوباترة الإعجاب نفسه وكانت النتيجة أن قضت هذه الليلة فى مخدعه!!

* * *

كانت كليوباترة تملك موهبة حسن اختيار الوقت المناسب لتنفيذ خططها «شبه المسرحية» فظلت طيلة حياتها تلعب دورها بحنكة الممثلة المحترفة!.. على أن تلك لم تكن موهبتها الوحيدة، فقد كانت متعددة المواهب ـ على صورة تثير الدهشة! ـ تناقش أعلم علماء عصرها فى الفلسفة، والدين، والسياسة، كما تناقشهم فى الرسم، والنحت، والشعر!.. كانت شخصيتها الجبارة نسيجا من خيوط ذات عدة ألوان: كانت ذكية، جذابة، ماكرة، قاسية، حنون، طائشة، لبقة، كريمة.. وفقا للمناسبات!.. لكنها فى كل حين ـ وإلى غير حد ـ كانت ظمأى إلى المجد، مثل ظمئها إلى الرجال!.. حاربت الأقدار بغير سلاح سوى سلاح جمالها ودعابتها، فكادت تنجح ـ كما سنرى ـ فى جعل روما العظيمة مقاطعة من مصر! ولئن انتهت حياتها بمأساة، فما كان يمكن لامرأة مغامرة مثلها أن تتخير لها الأقدار نهاية مغايرة.

لقد أطلق على كليوباترة أنها ملهمة كل شعراء العالم، «خليلة» الماجنين منهم جميعا!.. والواقع أن عصر كليوباترة يقوم من تاريخ العالم مقام ليلة الكرنفال من ليالى العام الطوال..

وقد انحدرت كليوباترة من سلالة «البطالسة»، وهم من إغريق مقدونيا، فهى ليست مصرية لحما ودما وإنما تنتسب إلى قائد مقدونى جاء إلى مصر مع جيش الاسكندرية.. وقد اشتهر البطالسة على وجه العموم بأنهم قساة لا يعرفون الشفقة: فأولهم الأول «بطليموس الثانى» قتل اثنين من اخوته، وعرف بشغفه بالنبيذ الجيد والنساء ذوات السيرة السيئة!.. وبطليموس الرابع قتل أمه وعمه!.. وبطليموس السابع قتل أفرادا من شعبه «بالجملة» كى يعلمهم كيف يحترمون ملكهم!.. وبطليموس الثالث عشر والد كليوباترة ـ وقد عرف بلقب عازف الناى ـ قتل ابنته الثانية «بيرنييس» ثم ألف لحنا حزينا كى يعزفه فى جنازتها!

وبقدر تعطشهم للدماء كان البطالسة ذوى ذكاء لماح، ففى مدة حكمهم صارت الاسكندرية مركز الفنون والعلوم فى العالم القديم. ازدهرت فيها الهندسة والرياضة والفلك والفلسفة والأدب والموسيقى والنحت والرسم، وغيرها من الفنون الجميلة، جنبا إلى جنب مع الفنون «غير الجميلة» مثل فن التسميم، وعلم القتل والغدر والاغتيال!.. وخلال سيطرة القوم على أكبر مدينة أثرية فى ذلك العصر ـ كما أطلق على الاسكندرية ـ اكتسبوا اتقانا هائلا لمختلف اللغات وسهولة فى التكلم بها، فاستطاعوا التعبير عن أفكارهم الشريرة بكل لسان!

تلك كانت السلالة نصف المتمدينة، نصف المتوحشة التى انحدرت منها الأميرة التى مرقت من قلب السجادة المطوية كى تلتمس من قيصر أن يعينها على استرداد عرشها المسلوب!.. وسحرت الماكرة بحركاتها ولفتاتها. وشعرها الأحمر المجعد، وابتسامتها المغرية. وحركتها المرنة التى لا تهدأ، وحديثها الشائق بلغة لاتينية سليمة ولهجة إغريقية جذابة.. فلم يكن فى استطاعته أن يقاوم سحر مغناطيس هذه الحسناء المصرية ابنة العشرين، سيما وهو الرجل الذى عرف فى شبابه بأنه «زوج كل امرأة»، وبأنه قد أفرط فى الانقياد لشهواته إلى أقصى حد..

وهكذا وجد الكهل نفسه ينسى أنه فى الثانية والخمسين، ويعود شابا عاشقا فى عنفوان عاطفته وحرارته، يعيد كليوباترة إلى عرشها ويصبح ـ هو الذى غزا العالم بأسره ـ عبدا لأتفه نزواتها!

وهكذا نجحت خطة كليوباترة التى استغلت فيها أنوثتها وجسدها فكسبت إلى جانبها يوليوس قيصر الذى استدعى على الفور فى الصباح أخيها الملك الذى جاء غاضبا لأنه يعلم تماما ما حدث فى هذه الليلة فأحتد بينهما الحديث وسرعان ما قامت المعارك بين جيوش يوليوس قيصر وجيوش أخيها بطليموس، ومن الشىء الغريب أن كليوباترة كانت طوال هذه المعارك تلازم قيصر فى خيمته ولم تفارقه لحظة حتى انتصر قيصر على أخيها الذى مات غرقا أثناء القتال وعلى الفور وأثر ذلك تم تنصيب كليوباترة ملكة على مصر بمفردها.

وهكذا باعت كليوباترة نفسها من أجل السلطة والجاه، باعت جسدها منذ الوهلة الأولى لقيصر فأصبحت عشيقة له حتى أثمرت هذه العلاقة بينهما عن ابن غير شرعى هو «قيصرون». وحين استتبت الأمور لقيصر وكليوباترة بالاسكندرية. فكر قيصر فى الذهاب إلى روما ليرعى شئونه هناك رغم أنه كان قد ترك «أنطونيو» يرعى مصالح الدولة فى غيابه، ولكن كليوباترة سرعان ما وصلت فى أثره إلى روما ومعها ابنها غير الشرعى ثمرة العلاقة المشينة بينهما، وهناك أقام يوليوس قيصر المهرجانات والاحتفالات بمناسبة انتصاره فى الاسكندرية على بطليموس شقيق كليوباترة، وكانت كليوباترة نفسها تحضر هذه الاحتفالات وتجلس فى المنصة الرئيسية وترى أختها الصغرى «أرسينوى» التى وقعت أسيرة أثناء القتال وهى تجر السلاسل أمام العربة التى يقودها قيصر وكانت تلك هى العادة فى احتفالات النصر أن يقوم القائد المهزوم بجر السلاسل أمام القائد المنتصر.. وقد كان شقيق كليوباترة المهزوم قد غرق أثناء القتال - كما أسلفنا - فلم تبق سوى أخته «أرسينوى» التى جعلوها تقوم بجر السلاسل، كل هذا على مرأى ومشهد من كليوباترة التى كانت تجلس فى المنصة الرئيسية وكلها كبرياء وعظمة وهى تشهد أختها الصغرى وتنظر إليها من أعلى وتتشفى فيها وفى أخيها الذى مات غرقا. فقد كانت كليوباترة تأمل فى التخلص من كل أشقائها حتى تنفرد هى بالسلطة والجاه فقد أمرت كليوباترة بعد ذلك بقتل شقيقتها «أرسينوى» لأنها كانت تخشى منها على العرش وقد كانت هذه الفعلة أحد الأسباب التى سودت صفحات كليوباترة ودنست سيرتها وقد استند المؤرخين إلى هذا الحدث للدلالة على قسوة كليوباترة وعشقها وحبها للسلطة.

* * *

أحلام عريضة!

ثم بدأ يوليوس قيصر يدبر الخطة لقلب نظام الجمهورية الرومانية وتتويج نفسه ملكا على المملكة الجديدة، ثم الزواج من كليوباترة شرعيا وتتويجها ملكة على يمينه.. وعندئذ يتسنى لهما نقل عاصمة الامبراطورية من روما إلى الاسكندرية، ومن ذلك المركز الأوسط للبحر الأبيض يستطيعان أن يحكما العالم!!

ذلك كان حلم يوليوس قيصر - أو بالأحرى حلم كليوباترة منعكسا فى تصرفات قيصر! - فإن داهية روما الخطير قد صار مجرد «أداة» فى يد أذكى امرأة فى العالم.

كان أشبه برجل منوم، يسير، ويتحرك، ويتصرف بتأثير قوة مغناطيسية خارقة!.. وبفعل الحث المتواصل العنيف من جانب كليوباترة، التى استخدمت شبابها وشهوته هو سلاحا تبلغ به أهدافها المنشودة، أخذ قيصر يسعى سعيه الحثيث ويدنو رويدا رويدا من عرش روما!.. فقد بدأ بتنصيب نفسه قنصلا لمدة عشر سنوات.. ثم دكتاتورا مدى الحياة.. وأخيرا أعلن نفسه ابنا للإله «جوبيتر» مدى الدهر!.. وأمر بأن يبنى هيكل له ولكيلوباترة.. ووضع صورته وصورتها فى صدر المذبح، كى تعبدهما الجماهير!.

ولقد نظر أصدقاؤه وأعوانه المخلصون بارتياع إلى انحلال شخصية هذا الرجل العظيم وانهيارها بين ذراعى امرأة «لا خلق لها» ـ كما وصفوا كليوباترة ـ فكتب الخطيب الأكبر «شيشرون» يقول فى هذا الصدد: «إنى أمقت هذه المرأة.. ولدى أسباب قوية تبرر هذا المقت، بل لست أستطيع أن أذكر وقاحتها بغير أن تنتابنى قشعريرة وحشرجة!».

ولقد غدت هذه «الوقاحة» تهدد بقلب نظام الجمهورية الرومانية، فاجتمع شيشرون وسواه من الزعماء وحذروا قيصر من مؤامرة كليوباترة، ومن أطماعه هو أيضا!.. لكنه لم ينتصح بتحذيرهم، بل مضى قدما فى طريق تحقيق الخطة المشتركة التى رسمها مع كليوباترة، والتى تهدف إلى استئثاره بالسلطان المطلق، فأمر بوضع «فراش مقدس» له فى الهيكل، وعرش ذهبى له فى مجلس الشيوخ.. ولم تبق إلا خطوة واحدة وتتم خطة كليوباترة المرسومة وتتحقق أطماعها: أن يتوج قيصر رسميا!

وجاء شهر مارس من عام ٤٤ قبل الميلاد.. وحل اليوم الموعود الذى حدد لتتويج قيصر، وصيرورة كليوباترة سيدة العالم بأسره!.. وبلغ انفعال المرأة المحظوظة أقصاه، فى انتظار إعلان النبأ السعيد.. ولكى تخفف كليوباترة من حدة هذا الانفعال أمرت بتعليق أحد العبيد من رأسه فى سقف المكان حتى يموت شنقا ـ فقد كان ذلك هو العلاج المفضل المألوف لأعصابها حين تتوتر! ـ ثم جلست تنتظر النبأ الخطير من مجلس الشيوخ..

وفى المساء، تلقت النبأ الخطير، الأخطر مما كانت تتوقع: لقد آثر شيوخ روما قيصر، لا بتاج الامبراطورية بل بثلاث وعشرين طعنة خنجر.. خلفته جثة هامدة!

وعادت كليوباترة إلى مصر بقلب يعانى فراغا مروعا..

***

مارك أنطونى.. بعد قيصر

لقد راهنت كليوباترة على الجواد الأول.. وخسرت.. ولكنها قبل مرور زمن طويل عادت تقامر بمصيرها من جديد على جواد ثان! وكان البطل فى هذه المرة قائدا رومانيا آخر يدعى «مارك أنطونى» يفوق قيصر شبابا، وقوة ووسامة وحرارة.. لكنه مثله عبد مستهتر لذلك الإله المتقلب: الطموح!

كان أنطونى محاربا عملاقا له عقل طفل وشهية إله.. رجلا خلق كى يبهر الأنظار برهة، ثم يقتله إفراطه فى حماسته.. وكان وفاضه عامرا على الدوام بوسائل تسلية الناس، وخطط استعبادهم! لكنه كان محروما من الاتزان والتقدير الصائب للأمور ، متهورا فى كرمه وفى قسوته على السواء! رأى فيه جنوده شخصا مثلهم، يرمز للمغالاة الخارقة فى إبراز فضائلهم ونقائصهم البشرية، فعبدوه وألهوه.. وقد حدث مرة ـ كما يروى المؤرخ بلوتارك ـ أنه طرد مع فرقته إلى خارج روما، فكان قدوة هائلة تحتذى من جنوده، فلقد نسى الترف الذى كان يتمرغ فيه ولم يجد غضاضة فى شرب الماء العكر الملوث وأكل الفاكهة والنباتات التى تنبت فى الأحراش!

وكانت الحياة عند أنطونى مرحة لاذعة مشبعة بالتوابل، ينظر إليها ضاحكا ساخرا.. ولم يكن يعبأ بالرأى العام، بل كان لا يفتأ يقول: «إن فلاسفتكم يشرحون لكم كيف ينبغى للرجل أن يعيش، لكننى أريكم كيف ينبغى للرجل أن لا يعيش!».

وطيلة حياته كان مثالا للرجل الذى يتصرف بوحى اللحظة أكثر مما يفعل بوحى التفكير والتدبير.. كان يهدى طاهيه ضيعة شاسعة ـ يكون قد اغتصبها من صاحبها بقوة السلاح ـ مكافأة له على وجبة طعام شهية!.. بنفس الاندفاع والتهور اللذين يأمر تحت تأثيرهما بذبح ألفى رومانى ـ بينهم الخطيب الأعظم شيشرون ـ لأنهم خالفوه آراءه السياسية!

اللقاء الأول بأنطونى.. لؤلؤة وكأس!!

وكان أنطونى حين أقدم على تلك المذبحة ـ عام ٤٣ ق.م ـ يؤلف بالاشتراك مع أوكتافيوس ولبيداس حكومة طغيان مطلق، وكان هؤلاء الثلاثة الامجاد قد عقدوا فيما بينهم ميثاق صداقة دائم، ورغم ذلك فقد كان كل منهم ينزع إلى طعن شريكيه فى ظهريهما عند أول فرصة! وبمقتضى هذا الميثاق قسموا العالم فيما بينهم كما تقسم

البطيخة الناضجة.. ولكى ينفذوا جريمتهم التى أطلقوا عليها «توطيد دعائم سلم رومانى» انتدب أنطونى للسفر إلى بلاد الشرق.. وخلال تلك الرحلة كان لقاءه بكليوباترة وصيرورته عبدها الخاضع - كما خضع لها قيصر قبله! - ذلك أنه لم يكد يهبط مدينة طرسوس حتى أرسل يرجو من كليوباترة الحضور إلى تلك المدينة كى يتحدثا سويا فى «أمور سياسية ومالية تهم الطرفين!».. فأبحرت كليوباترة من الاسكندرية إلى حيث أرست أسطولها عند فم نهر «سيدنس»، واتخذ أنطونى مقعده فوق منصة القضاء القائمة فى ميدان السوق فى انتظار وصول كليوباترة الجميلة، ولكن هذه أرسلت إليه مع رسول رسالة تقول فيها: «إذا أردت أن ترانى فينبغى أن تحضر إلى سفينتى باعتبارك ضيفى!».

فتقبل أنطونى الدعوة.. وسرعان ما وجد نفسه فى «حديقة» غناء عائمة فوق سطح الماء، ترقص فوق ظهرها الحوريات، وتعزف جوقة من عازفات الناى ألحانا ناعمة، بينما تطوف فوق الرؤوس سحابة من البخور المعطر تخدر الحواس وتشيع فيها نوعا من النسيان العذب..!

وقد نسى أنطونى فعلا كل شىء حين رأى كليوباترة فى هذا الإطار السحرى، فى ثوب شبه شفاف يمثل فينوس ربة الجمال، وقد جلست تحت مظلة مزركشة بالذهب.. فحيت أنطونى بابتسامة تواضع ماكرة، وبعد تبادل الرسميات المألوفة قادته إلى صالون السفينة فى الطابق الأسفل، حيث كانت قد أعدت له وليمة مصرية فاخرة.. وأذهل الضيف أن يرى الإسراف البادى فى صحان الطعام الذهبية والفضية، والكؤوس والأقداح المرصعة بالأحجار الكريمة، والمفارش المصنوعة من القطيفة المطرزة.. وحين أبدى عجبه واعجابه بفخامة الوليمة أجابت كليوباترة قائلة أن كل ما رأى لا يعدو أتفه ما عندها.. ثم - كأنما بتأثير نزوة مفاجئة - أهدته كل تلك الأوانى الذهبية التى أعجبته!

وردا لجميلها.. أهداها أنطونى قلبه وآماله وحياته.. لكنه فعل ذلك باستهتاره المعهود، فإن الجندى الخشن كان عاشقا خشنا أيضا، لا عهد له بنعومة ولباقة تقاليد البلاط الملكى.. وقد دهشت كليوباترة فى البداية لمسلكه الأخرق، ثم ما لبثت أن كيفت مسلكها وفقا لطبيعته، بفضل براعتها التمثيلية!

وتلا ذلك سيل من الولائم الملكية، فاقت كل وليمة منها سابقتها فى الرواء والكرم.. وقد حاول أنطونى أن يجارى فاتنته فى مأدبها، لكن مآدبه جاءت ضئيلة الرواء معدومة الذوق بالقياس إلى مآدبها هى!.. وذات ليلة قال لها على سبيل الاعتذار أن مأدبته الأخيرة كلفته ما يوازى بالعملة الحالية خمسة وعشرين ألف جنيه، ثم أضاف: «ولا شك فى أن إنسانا لا يستطيع أن ينفق على مآدبة واحدة أكثر من هذا المبلغ!».. فضحكت كليوباترة وقالت: «أنا أستطيع.. وسترى أن وليمتى القادمة سوف تكلفنى ربع مليون جنيه!».. وحين أظهر أنطونى شكه فى قدرتها على ذلك راهنته على الأمر، وحددت للوليمة اليوم التالى مباشرة!

وفى الساعة المعينة وصل أنطونى إلى يخت الملكة، فسره أن وجد معدات الوليمة الظاهرة دون ما ألف فى الولائم السابقة، ومن ثم هنأ نفسه مقدما: «أعتقد أننى كسبت الرهان»، ثم قال لمضيفته شامتا: «أرى أن وليمتك بصحانها وطعامها وحواشيها لن تكلف عشر المبلغ الذى تراهنا عليه!».

فأجابت كليوباترة مبتسمة: «انتظر.. ليست هذه سوى البداية فقط» ثم صفقت بيديها آمرة عبيدها أن يحضروا لها مائدة عليها كأس صغيرة من الخل!.. فلبث أنطونى ينتظر ما سوف تفعل، نافد الصبر، مدهوشا.. لكن دهشته تضاعفت حين جىء للملكة بالمائدة والكأس، فما كان منها إلا أن نزعت فى هدوء من القرط الذى تضعه فى أذنها حبة لؤلؤ وضعتها فى الخل وهى تقول فى غير مبالاة: «هذه اللؤلؤة وحدها تساوى نصف المبلغ الذى تراهنا عليه!».. وحين ذابت اللؤلؤة فى السائل جرعته الملكة على مهل.. ثم قالت وهى تتأهب لإعادة الكرة: «والآن يجىء دور اللؤلؤة الثانية!»

فأمسك أنطونى يدها صائحا: «كفى.. لقد كسبت الرهان!».

وما كانت كليوباترة بالحمقاء الطائشة.. وإنما كانت ترمى إلى هدف من وراء بذخها وإسرافها الجنونى.. أرادت أن تلقى فى روع أنطونى أن ثروتها الضخمة هى خير عون له فى كفاحه من أجل السيطرة على الحكم فى روما!.. فلئن كان قيصر قد مات، ففى وسعها إثارة النزاع بين أنطونى وأوكتافيوس ـ أما لبيداس ثالثهم فلم يكن بذى خطر ـ وعندئذ تستطيع بفضل موهبة أنطونى العسكرية، وثروتها هى أن تتخلص من

أوكتافيوس وتتولى وحبيبها العرش الرومانى، فتصبح سيدة الدنيا كما حلمت منذ بعيد!.

وإذا انتعشت أحلامها على هذا النحو أقلعت بيختها عائدة إلى الاسكندرية، بعد أن حصلت على وعد من أنطونى بأن يزورها فى وطنها.. وكان أنطونى شوقا إلى أن يرى بعينيه ثروة مصر الخيالية التى يتحدثون عنها، وأن يتذوق من جديد قبلات الساحرة الصغيرة النابتة على ضفاف النيل.. وهكذا لم يضيع وقتا فى الانتظار بل لحق بها فورا فى الاسكندرية، حيث استقبل استقبال الملوك الفاتحين، وانغمس فى سلسلة متصلة الحلقات من الملذات والمباهج والمهرجانات، أو على حد تعبير المؤرخ بلوتارك: «أنها تكون محاولة عقيمة أن يحاول أحد وصف وتعداد حماقات أنطونى وكليوباترة فى الاسكندرية!».

ونسى أنطونى بلاده ومنصبه، وعاش يقتات من زهرة الحب، ويبدد أطماعه وقواه، بل يبدد ما هو أثمن منهما وأغلى: الوقت!.. فبينما هو يتمرغ فى مخدع كليوباترة كان أوكتافيوس يوطد مركزه الخاص فى روما.. ولم يكن أوكتافيوس بالخصم السياسى الذى يستهان به، فبقدر ضعف جسمه، كان عقله قويا صلبا كالفولاذ.. ولم يكن وجهه الشاحب الذى ترك الجدرى آثاره عليه، وأسنانه المتآكلة، توحى البتة بالوحش الكامن فى أعماقه - حتى لقد عرف بلقب «الجلاد» من كثرة الضحايا الذين حكم عليهم بالعذاب والصلب! - فقد كان قاسيا شاذا، يكره ضوء الشمس، ولا يستحم إلا نادرا!.. وبالاختصار، فإنه كان أشبه بمخلوق نحيل يعيش فى حمأة من القذارة الجسمية والعقلية..

ذلك كان الخصم الذى هب لمناهضة أنطونى فى كفاحه من أجل العرش الرومانى.. وشيئا فشيئا أخذ أوكتافيوس يتلمس طريقه إلى القمة، ويتلمس سببا لمبادأة أنطونى بالعدوان!.. وقد يسرت له المصادفة سبيل هذا العدوان، فإن زوجة أنطونى «أوكتافيا» كانت شقيقته هو.. ومن ثم سهل عليه أن يتهم غريمه بإهمال أمر زوجته وخيانتها مع امرأة أجنبية - ولم يكن متجنيا فى هذا الاتهام كما رأينا!.. ثم لم يكتف بذلك حرض أخته على السفر إلى مصر لمحاولة إقناع زوجها بالعودة إلى وطنه وبيته، رغم علمه بعقم هذه المحاولة..

وحين عادت أوكتافيا إلى روما بخفى حنين، اندفع أوكتافيوس إلى مجلس الشيوخ يهاجم من فوق منصته علانية ذلك «الخائن المنحل الخلق، الوحش المخمور الذى وعد العاهرة الأجنبية بأن يهبها الامبراطورية الرومانية ثمنا لحبها!».

ووافقه الشيوخ الرومان على أن ذلك أمر لم يعد يحتمل.. وهكذا أعد على الفور أسطولا خاصاً كى يبحر لمحاربة انطونيوا! وحين بلغ النبأ مسامع انطونيو اعد بدوره اسطولا لمحاربة خصمه.. وأردف ذلك بتطليق زوجته أوكتافيا وتزوج من كليوباترة! ثم نصب نفسه محررا لروما!.

وبلغ من ثقة أنطونى بإنتصاره أنه احتفل بهذا الانتصار قبل أن يبدأ القتال.. فكان إبحار أسطوله أشبه باستعراض فى مهرجان منه بسير إلى معركة!.. وبنفس هذه الروح صحبت كليوباترة زوجها إلى القتال، ترافقها فرقة من جيشها الخاص.. وكانت آمال الاثنين فى النصر تكاد تبلغ عنان السماء.. إن الأمر لن يحوجهما إلى أكثر من مناورة قصيرة مثيرة ظافرة ـ سيما وأن أسطولهما أكبر وأقوى وأصلح عتادة وعدة من أسطول خصمهما! ـ ثم يخرجان من المعركة سادة للعالم!

وتأهب أنطونى للقتال بالأنغماس فى الشراب، ففى صبيحة يوم المعركة كان ثملا من الخمر.. وفى أمسية اليوم نفسه كان ثملا من اليأس!.. فإن أبعد الأمور احتمالا قد وقع.. هزمت سفن انطونى الكبرى واحدة بعد واحدة أمام سفن خصمه الصغيرة! وفى وسط المعركة وجدت كليوباترة الجو «حارا» لا يلائم راحتها فهجرت أنطونى مع فرقتها الكاملة، تاركة إياه يخوض المعركة بمفرده!.. وفى تلك اللحظة فقط زايلت أنطونى شجاعته وانهارت معنوياته. استسلم الجندى فيه للعاشق استسلاما تاما، فلم يكد يرى كليوباترة تبحر عائدة إلى مصر حتى هجر بدوره كل جنوده المحاربين الذين يعرضون حياتهم للخطر من أجله، وتبعها إلى الاسكندرية!

وكانت تلك نهايته السياسية والحربية.. فقد نظر الجميع باحتقار إلى البطل المهزوم الذى تبع راية «قميص امرأة».. بل إن كليوباترة نفسها احتقرته.. فقد كانت تعرف كيف تهلل للمنتصر، لكنها كانت تجهل كيف تواسى المهزوم!.. وقد أفل نجم أنطونى، كما أفل نجم قيصر من قبل، فلم تعد بها حاجة إليه!

لكنها قد تكون فى حاجة إلى غيره، فإن أحلامها بالجلوس على عرش روما لم تتبدد بعد.. ولئن تعذر عليها أن تحققها كزوجة لقيصر، أو أنطونى.. ففى وسعها أن تحققها بصفتها زوجة لـ... أوكتافيوس!...

ولم لا ؟.. أغلب الظن أن أنطونى سوف يقتل نفسه هما وكمداً بعد الهزيمة، وبذا تتخلص منه ومن التزامات الإخلاص له.. وعندئذ يراها أوكتافيوس، فيروق حسنها وشبابها فى عينيه، ويدرك بذكائه أنها على استعداد لتعويضه عما سلف!.. وماذا يهمها من شخصية الجالس بجوارها، ما دامت تستطيع أن تجلس على عرش روما.. عرش الدنيا بأسرها ؟

لكن هناك فى حسبانها ثغرتين قد تعترضان تحقيق أطماعها: ذبول جمالها، وعصيان قلب أوكتافيوس.. فهل ترى يصدق ما فى الحسبان؟ أم تقهر هى ذلك العصيان؟

وانتحر أنطونى، كما توقعت.. وجاء أوكتافيوس، ليراها.. لكنه جاء، ورأى، ولم يقهر!.. وإن كان قد عرض عليها فعلا أن يأخذها معه إلى روما، ولكن لا كزوجة.. بل كواحدة من عبيده!.. إنها بالنسبة إليه لم تكن أكثر من أسيرة حرب، لا أميرة تصلح للجلوس إلى جانبه على العرش..!

وها هى ذى كليوباترة فى قصرها تفكر وترسم، وتراجع وسائلها.. ولعلها أخذت تدبر أمر «إخراج» مشهد مروع جديد..

أيا كان التدبير الذى أخذت به، فإن أوكتافيوس لم يترك لها طويلا ملكة مصر، سليلة الفراعنة، زوجة يوليوس قيصر وأم ولده، ثم زوج أنطونى.. كبرياؤها، كبرياء الأنثى التى عرفت السيطرة على أبطال الرجال، شعورها بإنطفاء الفتنة فيها ـ ويا له من لاعج مرير ـ وإلى جانب هذا، وهو الأهم، يقينها بأنه لم تعد هناك وسيلة تحفظ عليها تاجها، وتصون وطنها.

كل هذه العوامل مجتمعة، أنهت عزمها على شىء..

فوق سرير من ذهب يحوطه جلال الملك وترف الفراعنة، بين أنين الناى وتعانق الدخان الصاعد من المباخر، أسلمت كليوباترة جيدها إلى أفعى سامة، اختارتها من بين أفاعى، يكون الموت من نابها وكأنه نعاس رقيق من رداء الحسن وتوهج الفتنة!

كـان الرومـان، أعـداؤها ، يؤمـنون بأن في الانتـحار بطولة دونـهـا بطولة، إذا جـاء مخلصا من ذل وهوان!

انتحرت كليوباترة، إعلاء لعرش مصر، وبذلت في سبيله عرش جمالها وفتنتها، وبانتحارها غيرت وجه التاريخ فيما قدره لها أعداؤها، فلم تدخل روما في ركاب الأسر والذل، وبقيت بحـيـاتهـا ، ثم بمـاتهـا ، أسطورة ينشدها التـاريخ، عنوانهـا الـفاتنة التي غيرت وجه التاريخ.



تيــــودورا

الممثلة المتوجة
التى حكمت أعظم أمبراطورية
عرفها العالم فى عصـرها !!



« تيودورا » شخصية من أعجب شخصيات التاريخ.. ممثلة خرجت من بيئة وضيعة، ثم ارتفعت إلى أوج المجد، وتربعت على عرش أعظم دولة فى عصرها. فهى جديرة إذن بأن يتناولها محبو الإطلاع بالدرس والتمحيص.

كانت لهذه المرأة العجيبة «تيودورا» قدرات ومواهب فذة أو قل غريبة جدا، فهذه المواهب جعلتها ترتقى من مجرد خادمة فى سيرك إلى راقصة فى نفس السيرك ثم جعلتها فجأة ترتقى إلى امبراطورة قوية تجلس على عرش القسطنطينية!.. فكان لها من النفوذ والجبروت ما جعلها قادرة على فعل ما تشاء فى أى وقت وعلى أن تأمر فتطاع مهما كان الأمر. كما جعلها هذا الجبروت تقوم بقتل ثلاثين ألف رجل من أفراد الشعب بعد أن دبرت لهم مؤامرة حقيرة وخدعة دنيئة حتى أن هذا العمل يعد من أسوأ أعمالها كما يعد من أبشع الجرائم وأفظعها فى تاريخ البشرية.

نشأت هذه المرأة «الرهيبة» نشأة حقيرة، فقد كانت مجرد خادمة فى سيرك تقوم بأعمال النظافة وظلت هكذا حتى بلغت العاشرة من عمرها فكانت ترافق شقيقتها الكبرى إلى بيوت الدعارة، ثم تنتظرها بالخارج دون أن تشاركها الممارسة فأعوامها القليلة كانت لا تسمح لها بذلك كما أن جسدها الصغير الذى لم ينضج بعد لن يروى ظمأ الرجال.. ولكن تيودورا حين بلغت الثانية عشرة اعتبرت نفسها مؤهلة لأداء هذا الدور فلم تتردد فى مشاركة أختها المهنة بل أنها أقبلت إقبالا نهما على الرجال ومواخير الدعارة وكان شغلها الشاغل فى ذلك هو جمع المال فاستغلت أنوثتها المبكرة وفتنتها ودهائها فى الإيقاع بكل من يصادفها من الرجال وقد بلغ حبها للمال أشده إلى درجة أنها كانت تبيع جسدها لكل من يدفع الثمن سواء كان من النبلاء أو عامة الشعب بعد أن كانت تقتصر على النبلاء فقط، ذلك أنه قد أصبح الآن لا يعنيها فى شىء مظهر الرجل أو شكله بقدر ما يعنيها شكل العملة التى سيدفعها.

ولو اعتبرنا الدعارة مهنة كأى مهنة أخرى كما كان ساريا فى الأجيال السابقة والأزمان القديمة حيث كانت لهؤلاء الفتيات رخصة يمارسن بمقتضاها مهنتهن ويخضعن للكشف الطبى الدورى عليهن وكانت لهن بيوت خاصة يعملن من خلالها فلو اعتبرنا هذا فإنه لابد أن يكون لهذه المهنة أصول وتقاليد توضع فى الاعتبار، إلا أن تيودورا لم تراعى أى أصول للمهنة أو تقاليد حيث اتبعت أسلوب حقير ومقزز قد تشمئز منه بعض الساقطات من زميلاتها ولا يقدمن عليه! فالمرأة مهما بلغت من الترخص والفجور فلابد أن تحتفظ لنفسها بشىء من الحياء. فقد كانت تيودورا تقوم ببيع جسدها لمن يدفع أكثر وكأنها تعرض سلعة فى مزاد فإذا كان لديها عميل وجاءها آخر يستطيع أن

يدفع أكثر قامت على الفور بطرد العميل الأول فى قحة وفجور ثم رحبت بالثانى وهى تتلوى له أيضا فى قحة وفجور.

وعن طريق تجوالها هذا بين الرجال تعرفت على بعض المسئولين عن مسارح المدينة فاستطاعت عن طريقهم الصعود إلى خشبة المسرح فنجحت نجاحا كبيرا بفضل قدرتها الكبيرة على إضحاك الرواد، فهى تعبث بملامح وجهها بشكل عجيب وترقص وتتلوى بمهارة فائقة فتجعل الجميع يضجون بالضحك، وقد وجد فيها شباب الطبقة الارستقراطية لونا جميلا شهيا للتفريج عن أنفسهم فكانت لاتخلو حفلة أو مأدبة لهم من تيودورا، ويذكر المؤرخ «بروكوبياس» أنها فى إحدى هذه المآدب سامرت على أنفراد عشرة ضيوف وثلاثين عبدا وحين أوشك الفجر على الشروق كان الجميع مرهقون ومنهكو القوى عدا تيودورا التى كانت بكامل حيويتها ونشاطها.. وقد كان للحظ معها دورا كبيرا فقد لعب معها لعبته الأولى حين تعرفت على أحد النبلاء يدعى «هيكيبولس». وقد كان عين حاكما لإقليم بنى غازى فأقام حفلا كبيرا ابتهاجا بمنصبه الجديد فاستدعى تيودورا كى تكون نجمة هذا الحفل فرقصت تيودورا وأبدعت حتى الصباح وقصدت أن تلفت نظر الحاكم إليها حتى أنه كان فى شدة الغبطة والسرور إلى الحد الذى جعله يطلب منها مصاحبته إلى قصره.. فما كان من تيودورا إلا أن سألته بخبث (بصفة زوجة لك؟).

فأجابها الحاكم قائلا:

إن القانون يمنع زواج النبيل من راقصة كما تعلمين.

فأجابته العاهرة بابتسامة ماكرة وبلهجة استفهامية خبيثة (إذن سأكون خليلة لك؟) ثم قالت وهى تبتسم وتتلوى (حسنا...).

وكانت تلك خطوة عظيمة بالنسبة لراقصة، فقد انتقلت رأسا إلى قصر أحد الحكام.. إلا أن الأمر لم يدم طويلا فقد كانت افريقيا فى هذا العصر قارة مقفرة موحشة فلم تطب لتيودورا فأحست بالملل واشتاقت إلى القسطنطينية حيث حياة الليل والسهر حتى الصباح، وزاد من شعورها هذا أن الحاكم وضعها فى جناح الحريم بالقصر فلم يكن لها من أنيس سوى الجارية التى تعمل على خدمتها، فقد كان «هيكيبولس» فى معظم الأيام مشغولا بتصريف أمور الولاية فلم يكن يتصل بها كثيرا ويبدو أن مثل هذه المرأة

قد تعودت على عدم حرمانها من الرجال أو عدم قناعتها برجل واحد فدفعها ذلك إلى رشوة جاريتها كى تساعدها على إدخال أحد الشبان إلى مخدعها حين يكون الحاكم متغيبا عنها، وحدث ذات ليلة أن توجه «هيليبولس» فجأة إلى مخدعها على غير انتظار ففوجىء بخيانتها له فطردها على الفور شر طردة إلى الصحراء فهامت على وجهها وعانت فى هذه الصحراء القاحلة حتى وصلت بعد طول سير إلى أبواب مدينة الاسكندرية وهناك لم يسمح لها الحارس بالدخول فكان ولابد أن تلقى عليه بابتسامة خبيثة داعرة، ودخلت تيودورا الاسكندرية أو باريس العالم القديم فتسكعت فى الطرقات كبائعة هوى حقيرة حتى قبض عليها ذات يوم فى مشاجرة بالطريق العام فكان عقابها أن وصم ظهرها بقضيب من الحديد الساخن ظل أثره منقوشا على جسدها حتى ماتت.

***

النبوءة الصادقة

وظلت تيودورا تنتقل فى بلدان الشرق مدة من الزمن، وهى فى حالة مرزية.. وقد رئيت فى الاسكندرية وانطاكية وبيروت وحمص وغيرها من المدن المصرية والفينيقية والسورية، تمارس مهنتها وتحترف الرذيلة لتضمن رزقها، ويقول المؤرخ «بروكوبس» الذى كتب تاريخ تيودورا: «إن الشيطان أراد ألا يجهل بلد واحد فى العالم من هى تيودورا الفاسقة!» وكان ذلك فى سنة ٥٢١ م.

ويبدو أن إقامة تيودورا مدة طويلة فى مصر وسوريا وفينيقيا كان لها أثر بعيد فى تكييف حياتها وتوجيهها فى المستقبل، ففى ذلك العهد كانت الاسكندرية مدينة كبيرة ذات تجارة واسعة، يرحل تجارها إلى الصين والهند وسيلان لجلب الحرير والتوابل والأحجار الكريمة وغيرها، كما كانت مستودعا تصدر منه إلى موانىء البحر المتوسط حنطه وادى النيل ومنتجات الشرق الأدنى وعلاوة على ما عرفت به فى ذلك العهد من أنها مركز من أهم مراكز التجارة فى العالم، ومدينة اللهو والبذخ والترف والأناقة، بفضل ما فيها من الثروات الضخمة، والغانيات الجميلات اللواتى حفظ التاريخ أسماءهن مثل تاييس، وكريزيس وغيرهما، كانت إلى جانب ذلك كله قد اشتهرت منذ القرن الرابع للميلاد بأنها إحدى عواصم المسيحية، ومعاقلها الكبرى بجانب كونها عاصمة مصر.

ولم تبلغ المشاحنات المذهبية والخلافات الدينيـة والمجادلات القائمة على التعصب حينا وعلى التراضى حينا آخر، ما بلغته الاسكندرية من شدة وعنف ومبالغة. على أن سكان الاسكندرية كانوا يمجدون ذكرى الأبرار الذين أنشأوا الأديرة فى صحارى مصر وأشاعوا فيها حياة الرهبنة، فقد أحاطت الأديرة وأماكن العبادة مدينة الاسكندرية وملأت ضواحيها، وكان عدد الرهبان والمتعبدين والزهاد الذين هجروا العالم ليعيشوا فى الصحراء الغربية، حيث الأديان وصوامع العبادة التى لا حصر لها، كبيراً إلى حد جعل العالم المسيحى يطلق على تلك الصحراء اسم «صحراء القديسين».

ولما نزلت تيودورا فى مصر، للبقاء فيها مدة من الزمن، كانت البلاد فى حالة قلق واضطراب، من جراء ذلك العراك الدينى الذى اشرنا إليه والذى لم تخفف من غلوائه جهود المتعبدين والنساك الداعين إلى السلام والوئام. بل أن ذلك العراك ما لبث أن امتد إلى الأديرة وأماكن العبادة نفسها.

وذلك لأن الامبراطور «أوجستين» الذى كان فى ذلك الوقت جالسا على عرش بيزنطة ـ ومصر ولاية بيزنطية ـ كان شديد الرغبة فى إزالة الخلاف الذى أدى إلى انفصال الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية أو بعبارة أخرى عن سلطة البابا فى روما، وقد بذل أوجستين جهده فى هذا السبيل، وراح يضغط على رؤساء الكنيسة التابعين له فى أنحاء امبراطوريته الشا عة، لحملهم على مجاراته فى التساهل مع روما والانقياد إلى توجيهها. ولكن رؤساء الكنيسة الشرقية عارضوه وقاوموه، ورفضوا الأذعان لأوامره، فجعل يضطهدهم ويشردهم ويسجن بعضهم، واضطر كثيرون منهم إزاء ذلك إلى الهرب والالتجاء إلى مصر حيث حماهم بطريرك الاسكندرية «تيموثاوس» وأنزلهم بالأديرة المصرية حول الاسكندرية أو فى الصحراء الغربية!

ولم تتناول الاضطهادات رجال الدين وحدهم، بل تعدتهم إلى العلماء والأثرياء ورؤساء العائلات النبيلة، وسيداتها، فكل من عارض الامبراطور أو تمرد على إرادته، كان يناله شىء من نقمته، وهكذا فر أيضا من سوريا إلى مصر عدد كبير من علية القوم، ولجأ هؤلاء جميعا إلى الأديرة حيث ظلوا محتفظين بعقيدتهم رافضين الانقياد لرغبات الامبراطور.

فى ذلك الجو المضطرب وتلك الظروف الحرجة، هبطت تيودورا أرض مصر شريدة طريدة، فلم يكن عجيبا أن تدفعها طبيعتها الجامحة إلى أخذ نصيبها من الجدل الذى شغل الناس كبيرهم وصغيرهم فى مدينة الاسكندرية عاصمة البلاد!

وقد اتصلت تيودورا بالبطريرك تيموثاوس، فرحب بها ولا شك أيضا فى أنه حاول التأثير فى نفسها ليحملها على العدول عن سيرتها وإصلاح سلوكها.. ولا شك أيضا فى أن تيودورا قد تأثرت بوعظ ذلك الشيخ الجليل التقى الورع، وأنها حاولت إصلاح ما فى نفسها من مفاسد، وقد ظلت طول حياتها تقدس اسم ذلك الشيخ الذى كانت تتحدث عنه بإجلال وتقول: «إنه صاحب فضل على لن أنساه». وكانت تلقبه كلما ذكرت اسمه بلقب «أبى الروحى».

ولما شاءت الأقدار، فيما بعد، أن تتولى تيودورا شئون الدولة الرومية وتدير أمورها وتنظيم كنيستها أظهرت فى ذلك براعة ومهارة، ومعرفة تدل على أن الدروس التى تلقنتها عن البطريرك الاسكندرى لم تذهب سدى!

وقد اشترك فى إرشادها، مع البطريرك تيموثاوس، عالم من علماء الكنيسة الشرقية هو «سفيروس» وقد اعترفت فيما بعد بأن هذا الرجل الصالح قد هذب نفسها وأبعدها عن الهاوية وعلمها الكثير مما كانت تجهله، ولما أصبحت فى بيزنطة صاحبة قوة واقتدار، دعت سفيروس وأصحابه إلى الإقامة بالقسطنطينية وفتحت لهم أبواب قصرها وحملت زوجها الامبراطور على تأييدهم وحمايتهم ومساعدتهم بما له من نفوذه وسلطانه. وظلت من ناحية أخرى تعطف على الاسكندرية عطفا خاصا وتقول عنها: «إنها أحب المدن إلى قلبى».

ولكن تيودورا لم تذهب إلى مصر للإقامة بها، ولذلك سرعان ما قررت مغادرتها لتستأنف رحلتها إلى حيث تجد الاستقرار الذى تنشده لنفسها.

رحلت إلى سوريا حيث نزلت بمدينة انطاكية، أكبر المدن السورية فى ذلك العهد، وكانت أنطاكية، مثل الاسكندرية، مسرحا لمشاحنات دينية معقدة، ولكنها أقل عنفا عن مشاحنات العاصمة المصرية. كما أنها كانت أقرب إلى بيزنطة منها إلى الاسكندرية، من حيث الحياة الاجتماعية وميول الشعب وأنواع لهوه وتسليته. ففى

أنطاكية كان هناك ملعب مثل ملعب القسطنطينة، وكانت هناك دور للتمثيل والتهريج، ومواخير للفسق والفجور بجانب أماكن العبادة، كما كان فيها ممثلات وراقصات، ومنجمون ودجالون.

وفى أنطاكية، عادت تيودورا شيئا فشيئا إلى سيرتها الأولى، وجعلت تتردد على قارئات الكف وضاربات الرمل، وابتعدت عن الرهبان والوعاظ والمبشرين!

وهناك توثقت عرى الصداقة بينها وبين «ماسيدونيا» الغانية التى اشتهرت بأنها تجيد استطلاع الغيب بقدر ما تجيد الرقص والغناء! وقد تنبأت ماسيدونيا لصديقتها الجديدة بأن مستقبلا باهرا ينتظرها وبأنها سترتقى مدارج المجد والشهرة، وترتفع إلى أعلى ما يمكن أن ترتفع إليه امرأة!

وصدقت تيودورا نبوءة صديقتها الجديدة، وصارت تأوى كل ليلة إلى فراشها، وتغمض أجفانها وهى تتخيل نفسها زوجة لسيد الأبالسة، الحائز على كنوز الأرض.. الكنوز التى سوف تصبح لها دون سواها من الناس!

كانت الأحلام الحلوة تداعبها فى منامها فتصحو قبل الفجر وتصلى.. ثم تطلب من الله أن يحقق آمالها، واعده بأن تعدل عن حياة اللهو التى تحياها، وتصبح امرأة تقية صالحة!!

وكانت ماسيدونيا تعرف الأمير جستنيان ابن أخى الامبراطور أوجستين وولى عهده. وقد خدمته من قبل فى القسطنطينية فى ظروف عصيبة، فحفظ لها الأمير الشاب جميل صنعها. وأغلب الظن أن ماسيدونيا هى التى مهدت لصديقتها تيودورا سبيل الاتصال بولى العهد، ودخول القصر، وأنها استعانت لذلك ببعض أصدقائها فى حاشية الامبراطور وابن أخيه.

* * *

السعادة الكاملة مجسمة فى تيودورا!!

حينما التقى جستنيان وتيودورا نحو سنة ٥٢٢م، وهو مازال وليا للعهد، كانت سنه تتراوح بين الثامنة والثلاثين والأربعين، وكان جميلا جذابا، ذا بشرة زاهية، وشعر مجعد، ووجه صبوح، وقامة معتدلة، تضمها ثياب فاخرة، تسبغ عليها أناقة تسترعى الانظار.

وكان جستنيان خفيف الروح، حلو الحديث، لطيفا مع الناس على جانب عظيم من الثقافة، فضلا عن الثروة الضخمة التى يملكها، ومنصب الامبراطور الذى ينتظره.

ولما نجحت المؤامرة التى دبرها رجال القصر على الامبراطور انستاسيوس، وجلس عمه أوجستين على العرش، بقى هو وليا للعهد مقدما على جميع رجال الدولة. فقد أغدق عليه عمه الألقاب والنعم. وجعله قائدا لحامية العاصمة. وأخذ يعده ليكون خليفته على العرش، ولم يكن بالعجيب إذن أن تتطلع إليه أنظار تيودورا الحسناء، وأن تعمل جاهدة لاكتساب قلبه!

وكان جستنيان بعيد المطامع وبعيد الأهداف واسع الحيلة حريصا على أن يسير كل يوم خطوة إلى الأمام فى سبيل غرضه الأسمى وهو الجلوس على العرش. وقد حصر جهده، منذ اللحظة الأولى فى إبعاد منافسيه من طريقه، والتخلص شيئا فشيئا من جميع الأشخاص الذين قد يعترضون ارتقاء العرش أو يقيمون فى سبيله العراقيل.. وقد نجح فى هذا نجاحا عظيما، بفضل استمالته جميع الأوساط والبيئات فى المجتمع البيزنطى إلى أبعد حد، ولأن حبه للناس جعلهم بدورهم يحبونه بصدق وإخلاص.

وكان طبيعيا أن يعطف رجال الدين فى العاصمة على جستنيان وأن يحرصوا على تأييده فى جميع خطواته، ذلك لأنه كان متدنيا عن إيمان وعقيدة، متمسكا بمبادىء الكنيسة الشرقية برغم المساعى التى بذلها عمه الامبراطور للتقرب من روما والكنيسة الغربية.

وعشقته الجماهير لأنه كان كثير التجوال فى المدينة، يختلط بالناس ويغدق عليهم العطايا.

وهكذا كان كل شيء يدل على أن جستنيان جدير بثقة الامبراطور وبمحبة الشعب على السواء. كما كان كل شيء يدل على أن هذا الأمير الناضج القوى المحبوب، قد أحب من كل قلبه تيودورا الحسناء، وبات لا يعادل حبها عنده أى شيء فى الوجود!

وقد حار الناس فى تعليل تلك العلاقة الغرامية التى توطدت بين ولى العهد الراجح العقل، ذى الأهداف السامية، وبين تلك الممثلة ولم يستطع كثيرون منهم أن يكتموا دهشتهم من قيام تلك العلاقة الغريبة، وجعلوا يبحثون عن الأسباب والعوامل

التى حملت جستنيان على الارتباط بتيودورا برابطة الحب، فلم يعثروا على ما يشفى غليلهم، ولهذا راحوا يقولون: «إن الغانية الماكرة عمدت إلى السحر والشعوذة للتسلط على قلب عشيقها!»

ولم يكن هناك ما يدعو إلى ذلك، فإن الأمير الشاب كان يحمل بين ضلوعه قلبا سريع التأثر، يلتهب من الشرارة الأولى، وكان يميل إلى مغازلة النساء، ويصغى باهتمام إلى ما يروى حوله من مغامرات غرامية، وكان فضلا عن ذلك كله ضعيف الإرادة أمام المرأة، بل أمام كل شخصية قوية، برغم مظاهر الشدة والعناد التى كانت تبدو عليه.

وفى الوقت نفسه، كانت تيودروا بارعة الجمال، حادة الذكاء، لطيفة المعشر، عذبة الصوت والحديث، تعرف كيف تأسر قلوب الرجال الذين يتقربون إليها وكيف تبقيهم فى أسر جمالها وظرفها، كما أنها تعودت أن تدرس أهدافها بدقة، وترسم الخطة المثلى لبلوغها، ثم تمضى فى سبيل ذلك فى صبر ومثابرة، لا يثنيها عن عزمها أى شىء، وهكذا ما كادت ترى جستنيان للمرة الأولى، وكانت قد علمت عنه كل الصفات التى يتصف بها، حتى قررت اقتناصه، ورسمت لذلك خطة نفذتها بحذافيرها كللت بالنجاح!

أما هو فقد وقع فى حبائلها منذ اللقاء الأول، فأنقض عليه الحب انقضاض الصاعقة، وشعر بأن هناك قوة خفية تدفعه إلى أحضان تلك المرأة التى قال عنها فيما بعد: «إن جميع الصفات التى كنت أرغب فى أن أجدها عند المرأة وجدتها مفرغة فى تيودورا!!».

وظل جستنيان وفيا لتيودورا طول حياتها، وبقى حبه لها قويا عنيفا حتى موتها، كما كان منذ اليوم الأول الذى لقيها فيه!

وقد كتب أحد المؤرخين المعاصرين لهما بأن جستنيان كان يعد تيودورا ألزم له من الهواء، وقال آخر أنها كانت «السعادة الكاملة المجسمة فى امرأة كاملة!». وكثيرا ما وصفها جستنيان نفسه بأنها اسم على مسمى.. وكلمة «تيودورا» معناها: «هدية الله» أو «هبة الله» وطبيعى أنه وقد أحبها كل ذلك الحب العنيف لم يكن يرفض لها طلبا أو يبخل عليها بأى شىء تطلبه منه.

كانت تحب المال فأغدق عليها بلا حساب!

وكانت تهوى المظاهر والألقاب فأقنع عمه الامبراطور بأن يمنحها لقب نبيلة فارتفعت إلى أعلى درجات المجتمع البيزنطى!

وكانت عنيدة فى آرائها متشبثة بها، فعمل جستنيان بجميع تلك «الآراء» بعد أن وافق عليها، وأصبح منفذا لإرادتها مؤيدا لأهوائها، صديقا لأصدقائها، خصما لخصومها!

وحدث فيما بعد ما هو أعجب من ذلك وأبعد أثرا فقد تمكن الحب من قلب جستنيان إلى حد أنه أعلن ذات يوم أنه راغب فى اتخاذ عشيقته زوجة جليلة، ويظهر أن الامبراطور أوجستين الطيب القلب لم يمانع كثيرا فى إقدام ابن أخيه وولى عهده على ذلك الزواج المخالف للعرف والتقاليد والكرامة. كان هذا هو المنتظر لأن الامبراطور نفسه نشأ جنديا ولم يكن ينحدر من سلالة ملوك أو أمراء أو نبلاء، ولذلك لم ير ضرا فى يتزوج ابن أخيه راقصة الملعب التى اتخذها خليلة له. ومما يذكر أن الامبراطور العظيم كان هو أيضا قد تزوج جارية مجهولة الأصل، بعد أن اتخذها عشيقة له فى خلال توليه قيادة الجيش الرومانى وقد رافقته فى غزواته وحروبه، ثم تزوجها وأجلسها على العرش يوم بايعه الروم بالملك على أثر انتصاراته الباهرة!

فلماذا إذن يمانع الامبراطور أوجستين فى زواج جستنيان وتيودورا؟! على أن العراقيل جاءت من حيث لم يكن أحد ينتظر، فقامت المعارضة فى الزواج لا من الامبراطور، ولا من أحد رجال الحكومة أو الجيش أو رجال الدين بل جاءت هذه المعارضة من جانب الامبراطورة «أوفاميا» زوجة الامبراطور الشيخ وعشيقته السابقة المجهولة الأصل!!

غير أن الأقدار حلت المشكلة.. فقد ماتت أوفاميا فى سنة ٥٢٣، وجاء موتها فى الوقت المناسب. وهدأت ثورة جستنيان وعشيقته. ولم يبق عليهما إلا التمهيد القانونى للزواج المنشود.

وقبل أن يتزوج جستنيان عشيقته تيودورا، نفحها بائنة باهظة جعلتها فى مصاف الأغنياء. ولم يقابل البيزنطيون هذا الزواج بشىء من الامتعاض. ولم يتأفف منه غير بعض المحافظين المتمسكين بالتقاليد، ممن رأوا فى هذا الحادث دليلا على أن جستنيان قليل الاهتمام بمكارم الأخلاق، فى حين كان بوسعه أن يختار زوجته من بنات

الأسر النبيلة الغنية أو بنات الملوك فى الشرق أو الغرب!

ولم تصدر كلمة اعتراض واحدة عن مجلس الشيوخ أو الجيش أو رجال الكنيسة. أما الشعب فقد تذكر أنه مادام صفق لتيودورا الممثلة فى ملعب العاصمة، فراح من جديد يصفق لها وهى على مدارج العرش!

وما كادت تعقد زواجها، حتى بدأت تتدخل فى شئون الدولة، بوصفها شريكة ولى العهد فى نشاطه ومسئولياته، وقد رضى هو بذلك كما رضى به الامبراطور الشيخ أوجستين الذى غمرها بعطفه وحنانه، منذ عرفها ووافق على زواجها.

إن تيودورا كانت تتمتع بسلطة لم تكن هى نفسها قد أدركت بعد مداها، وبنفوذ لم تكن بعد قد لمست قوته. فزواجها من جستنيان الأمير المحبوب، ضاعف حب الناس لها، لأنها من بنات الشعب، فصعد نجمها جنبا إلى جنب مع نجم الزوج الذى اختارها شريكة لحياته. وبعد أن كان الامبراطور قد منحها لقبا نبيلا قبل الزواج، عاد فمنحها لقبا أرفع منه بعده. ففى ابريل سنة ٥٢٧، أصدر أوجستين مرسوما امبراطوريا يقضى بأن تكون تيودورا، مثل جستنيان، شريكته فى العرش. وبعد أيام من ذلك الإعلان الرسمى الصريح، عقد أعضاء مجلس الشيوخ جلسة فى بهو القصر الامبراطورى، حضرها مندوبون عن الجيش والحرس، وصعد الامبراطور أوجستين إلى منصة العرش، وأعلن مرة أخرى أن ابن أخيه أصبح امبراطورا، وأن زوجته تيودورا أصبحت امبراطورة تشاركه السلطة والحقوق والواجبات!!.

* * *

حينما تحكم المرأة!

فى بادىء الأمر عرفت تيودورا بعد الزواج من جستنيان باسم «زوجة الامبراطور» إلا أنه لم يمر وقت طويل حتى عرف هو باسم «زوج الامبراطورة»، فقد طغت شخصية تيودورا القوية الخبيثة على شخصية جستنيان، فكانت وكأنها تجلس على العرش بمفردها!، فقد أرادت أن تنسى أيام هوانها واسترخاصها وأن ترضى شيئا ما فى نفسها فأطلقت لغريزة الشر العنان فلم يشهد تاريخ الامبراطورية البيزنطية امرأة ولو حتى من سلالة الملوك أشد غطرسة وكبرياء من تيودورا خادمة السيرك!.

فقد أجمع معاصروا تيودورا على القول بأنها مارست السلطة التى استمدتها من زوجها الامبراطور، بلا قيد ولا شرط، بل إن سلطتها أحيانا كانت تعلو على سلطة جستنيان نفسه، وقد اعترف هو بذلك فى وثيقة رسمية حين أصدر المرسوم التاريخى الذى أعاد بمقتضاه تنظيم الإدارة فى أنحاء المملكة، وعده المؤرخون أعظم الأعمال التى قام بها. ففى مقدمة ذلك المرسوم، صرح الامبراطور بأنه لم يصدره إلا بعد أن استشار الامبراطورة المبجلة والزوجة الوفية التى من بها اللّه عليه، فى كل ما تضمنه المرسوم من قرارات!

كان جستنيان يحب زوجته حبا لا حد له، ظل هذا الحب يضطرم فى قلبه حتى بعد موتها، وحتى ساعته الأخيرة، فإنه لم ينس أبدا تلك الحسناء الساحرة التى عشقها وهى فى أوج جمالها وروعتها، وطغت عليه بذكائها الخارق وفطنتها وبعد نظرها وإرادتها النافذة، لذلك لم يرفض لها طوال حياتها أى طلب. ولم يحدث فى مرة واحدة أن علت كلمته على كلمتها، أو نفذ رأيا لم يكن متفقا مع رأيها، وقد أغدق عليها جميع أنواع المجد والثروة والجاه وشاطرها عرشه وسلطانه فجعلها تحكم معه، بل جعلها تحكم وحدها فى كثير من الأحيان!

وقد ظلت تيودورا على العرش إحدى وعشرين سنة، وضعت يدها خلالها على كل صغيرة وكبيرة من شئون الدولة وفرضت كلمتها فكانت تفعل ما تريد، بصرف النظر عما يريده الامبراطور أو أعوان الامبراطور.

نظمت شئون الإدارة كما تريد، ووضعت أعوانها ومحاسبيها وصنائعها فى الوظائف التى اختارتهم لها أو اختارتها لهم، وتدخلت فى شئون السياسة فنظمت العلاقات بين بيزنطة والدول الأخرى كما أرادت، وفرضت على مندوبى الدول ما رسمته بنفسها من خطط وتدابير، كما تدخلت فى شئون الكنيسة. فكانت وراء كل عمل أقدم عليه الرؤساء الروحيون، وكل قرار أصدرته المجامع الكهنوتية!

ولابد من الاعتراف بأنها عرفت فى أكثر الظروف والأحوال كيف توجه سياسة الدولة طبقا لمقتضيات الصالح العام، ولو أنها عاشت وظلت تمارس السلطة مع زوجها حتى وفاته، لاستطاعت أن تنفذ المشروعات الرائعة التى كانت تفكر فيها، ولأصبحت الدولة البيزنطية أقوى وأصلح مما كانت، ولتغير وجه التاريخ ومجراه!!

ولكن تيودورا ماتت قبل الآوان!

ولاتزال آثار تيودورا باقية حتى الآن، فهناك على جدران الكنائس التى بناها جستنيان، وفوق أبواب المعاقل والحصون والقلاع التى شيدها فى أنحاء المملكة، حفر اسم تيودورا بجانب اسمه!

وفى أماكن كثيرة يرجع عهدها إلى عهد تيودورا، حفرت آيات الشكر والثناء والتقدير، موجهة كلها إلى الامبراطورة التى اشتهرت بتقواها وورعها، بعد أن اشتهرت بفسقها وفجورها!!

ومما لم يحدث مثله أيضا لغير تيودورا، أن موظفى الدولة كانوا يقسمون يمين الولاء لها كما يقسمونه لزوجها الامبراطور. فكانوا يقولون: «نقسم بأن نكون أوفياء صادقين فى خدمة المليكين جستنيان وتيودورا!!».

***

مؤامرات حقيرة.. ومذابح رهيبة!

وذات يوم علمت تيودورا أن حاكم إحدى البلاد المجاورة للإمبراطورية ويدعى «فيناليان» يدبر للإعتداء على امبرطوريتها فأوعزت إلى جستنان أن يوجه له الدعوة لزيارته مع حاشيته فى القسطنطينية بحجة التفاوض بشأن معاهدة تصالح بينهما، فأرسل جستنيان الدعوة، ولم يرتاب الحاكم فى الأمر فقبلها، ووصل على رأس حاشيته إلى القسطنطينية فاستقبلهم تيودورا وجستنيان بأشد ترحاب وبالغا فى إكرام الحاكم وحاشيته فأقاما لهم حفلات الرقص الشرقى وحفلات السباق ومصارعة الوحوش ثم احتفلا تكريما لهم بإلقاء مائة سجين حى فى ساحة الملعب الكبير كطعاما لخمسين أسدا جائعا!

وفى الليلة الأخيرة للزيارة أقاما لهم حفلة وداع ساهرة لم تشهد الامبراطورية مثيلا لها من قبل فقد رصت فيها ثلاثمائة مائدة مرصعة بالعاج والأحجار الكريمة وسط قاعة من أشهر القاعات التى تسمى «قاعة المضاجع التسعة عشر» ذات السقف الذهبى والستائر المزركشة بخيوط الذهب.. وبعد أن تلذذ الضيوف بأشهى ألوان الطعام وأفخر أنواع الشراب وبعد أن استمتعوا بأروع الرقصات لأجمل الفاتنات.. قاما صاحبا الجلالة الامبراطورية واستأذنا من الضيوف فى الانصراف بحجة أن يتركوا لهم الحرية فى المتعة

واللهو حتى الصباح.. ولكن شيئا ما حدث.. فحين تسللت أول خيوط الفجر من النوافذ كان يسود القاعة سكون وصمت رهيبين مع أبشع منظر شهدته هذه القاعة الجميلة.. كان النبيذ والخمر المسكوب يختلط بدماء الضيوف القتلى على الأرض.. فقد أصدرت تيودورا أوامرها لكل راقصة بأن تذبح ضيفها بعد أن تسلبه قواه بالمضاجعة وتفقده وعيه بالخمر!!!

وظلت تيودورا هكذا امرأة قاسية متحجرة القلب يحتقرها الشعب ويمقتها نتيجة تصرفاتها الطائشة وقسوتها ومضاعفتها الضرائب، ففى عهدها انتشرت البطالة وزاد الغلاء وتفشى المرض وزاد الانحلال والفجور، وباتت تيودورا امرأة شرسة شريرة إلى أقصى الحدود حتى أن الشعب بدأ فى التذمر فتجمعت أفواج الجماهير ذات صباح أمام القصر الملكى هاتفة بسقوط الامبراطورة وارتفعت صيحاتهم الغاضبة وهم يقذفون بالوحل تمثالها الرابض فى حديقة القصر مرددين (تسقط العاهرة ـ تسقط السفاحة) فكان غضب الامبراطور جستنيان شديدا لا حدود له فأصدر على الفور أوامره بإعدام سبعة من زعماء هذه المظاهرة لكن الشعب أحس أن تيودورا وراء هذا الأمر فهاج أكثر من ذى قبل وتوجهت الجماهير إلى القصر وهم مسلحين بالفؤوس والحجارة والعصى وهتفوا مرة أخرى (تسقط العاهرة.. تسقط السفاحة) ثم أطاحوا بمخازن القصر وسكبوا براميل النبيذ وهم يصرخون (أين القاتلة)..

كانت تيودورا راقدة فى مخدعها تعانى من مرض السرطان الذى أصابها وكانت فى غيبوبة لم يوقظها منها سوى أصوات الجماهير الغاضبة ودقاتهم على باب الجناح الامبراطورى.. فأحست بأن نهايتها قد اقتربت.. ولكن هل امرأة مثل تيودورا تخضع وتستسلم؟!.. لقد نهضت مستدعية وصيفتها التى ألبستها ثوبها الملكى وأزاحت لها ستار النافذة فاقتربت تيودورا بخطى ثابتة لتواجه الجماهير التى أشعلت النار فى كل مكان فبدت المدينة وكأنها جحيم أحمر.. فما أن ظهرت تيودورا من خلال النافذة حتى أصابت الدهشة أفراد الشعب وزعماء المظاهرة فوقفوا ذاهلين لجرأتها وتماسك أعصابها فانتشر بينهم الهمس فرفعت تيودورا يدها تسكت الجماهير ونظرت لهم بعين رحيمة وسألتهم:

(ما هى مطالبكم؟).

صاحت الجماهير فى صوت واحد:

الخبز.. لا شيء سوى الخبز.

أومأت تيودورا برأسها قائلة (سوف تنالون الخبز... وسوف تقام لكم أيضا حفلة من أروع الحفلات التى شهدتها البلاد).

وانخدع الشعب الطيب الساذج لوعدها الخبيث وتعالت الصيحات (تحيا الامبراطورة).

وفى الموعد الذى حددته تيودورا لتلك الحفلة المجانية تهافتت الجماهير نحو الأستاد الكبير الذى يقام به الحفل حتى بلغ عدد من جاءوا حوالى مائة ألف متفرج ثم وصلت الامبراطورة والامبراطور واعتليا المقصورة الخاصة بهما فهتفت الجماهير (يحيا الامبراطور.. تحيا الامبراطورة).

وبدأت الحفلة فبدأت الاستعراضات ثم المهرجانات والرقص وألعاب السباق وبدا أن الحفل سيطول ويمتد من الصباح حتى ما بعد الظهيرة، فأمرت تيودورا بتوزيع غذاء فاخر على جميع الحاضرين مزود بالخمر والمشهيات على نفقة تيودورا الخاصة.. وقبل أن ينتهى الحفل غادر ثنائى الامبراطورية المكان فهما حريصان دائما على الانصراف فى الوقت المناسب!

وحين انتهى البرنامج الأخير من الحفل ظهر قائد جيوش الامبراطورية فى ساحة الملعب تصحبه فرقة من الجنود والمسلحين فحيتهم الجماهير بالهتافات المدوية ظنا منهم أنها إحدى برامج الاحتفال إلا أنها لم تكن سوى مؤامرة حقيرة دبرتها تيودورا فقد صاح قائد الحرس فى جنوده (استعدوا.. اضربوا).

وتطايرت إلى قلوب الجماهير سيول من السهام القاتلة وتعالت صيحات الفزع والرعب وتدافعت الجماهير نحو الأبواب قاصدين النجاة من هذه المذبحة الرهيبة لكنهم فوجئوا بفرق أخرى من الجنود تنتظرهم على الأبواب فلم يجدوا مخرجا أو منفذا للنجاة، لقد حوصروا حصارا محكما لا مفر منه، واستمرت المجزرة حتى الغروب فامتلأت أرض الملعب الكبير بالعديد من برك الدم الحمراء القانية.. فقد راح ضحية هذه المجزرة الآدمية ثلاثين ألف رجل، وحين أخبر قائد الحرس تيودورا بنجاح المؤامرة ابتسمت ابتسامة خبيثة وهى تهز رأسها!

ولكن لم يمض وقتا طويلا حتى اقتصت السماء من هذه المرأة التى لم يشهد التاريخ مثيلا لها فى قسوتها وجبروتها، فقد ظل المرض ينخر جسدها ويفتت فيه وهى تحاول عبثا بكل وسائل العلاج أن تنجو بلا جدوى.. وتشوه هذا الجسد الجميل الذى كثيرا ما استغلته تيودورا أداة لشرها وآثامها، وظلت هكذا امرأة مريضة مشوهة حتى لفظت أنفاسها الأخيرة سنة ٥٤٨م تاركة وصية ساذجة تقول (اغسلوا جسدى بحمام من زيت الورد وعطروه بأفوح العطور)!!







المرأة التى هزمت الصليبين
وهزمتها امرأة!!



شجرة الدر.. جارية اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيبك فما لبثت أن برزت وغدت ملكة مرهوبة الجانب عظيمة الشأن..!!

كانت مغمورة لم يعرف المؤرخون لها نسبا، بل لم يستطيعوا التأكيد بأنها تركية أو أرمنية أو رومية.. فهى واحدة من ألوف الجوارى اللواتى كن يزين قصور السلاطين والخلفاء، ومنهن الأديبات والمغنيات، والسميرات والمحظيات، كلهن أعجميات يؤتى بهن إلى بلاد العرب أسرا أو شراء، فيكن أشبه بالمتاع يتهاداه الناس، ويعشن فى الظل حتى ينجبن الأمراء، فيظفرن حينئذ بشىء من الاحترام، وتسمى الواحدة منهن «أم الولد»..

ولمع اسم شجرة الدر، ومثلت دورها الخطير، بعد وفاة صلاح الدين الأيوبى، واضطراب ملكه، وتنازع أهله، وظهور الحاجة إلى شخصية قوية تجمع شتات المسلمين..!!

وقد كانت من مآثر صلاح الدين أنه استطاع ضم القسم الأكبر من بلاد العرب إلى ملكه، فانتصر بذلك على الصليبيين، واستعاد بيت المقدس، وانكمش الفرنجة فى رقعة ضيقة من الأرض كان حريا، لو افسح له فى مجال الحياة، أن ينتزعها منهم.

وما كاد الفارس البطل أن يرقد رقاده الأخير، حتى تمزقت مملكته الكبيرة، وتقاسمها أولاده الثلاثة، فاستولى العزيز على مصر، وملك الأفضل بلاد الشام، وتولى المظفر ملك حلب، ونشبت الحروب الأهلية بين هذه الممالك الثلاث.

ثم توفى العزيز فخلفه على عرش مصر ولده المنصور وهو طفل صغير، فطمع الأفضل فى مصر واستولى عليها، ثم اشتعلت الحرب بينه وبين عمه العادل فانتصر هذا واستولى على مصر والشام وحكمهما عشرين سنة، ثم خلفه ابنه الكامل فى حكمهما عشرين سنة أخرى...!

ولما توفى الكامل سنة ٦٣٥ هـ استولى على عرش مصر ولده الأصغر الملك العادل أبو بكر نائبه فيها، وكان ابنه الأكبر الملك الصالح نجم الدين نائبا عنه فى حلب وبلاد المشرق، فأغضب استئثار أخيه ورأى أنه أحق بالملك منه، فسار لمقابلته وأخذ يؤلب الأمراء عليه، فاعترضه صاحب الكرك وأسره وسجنه شهرا فى القلعة مع بعض خدمه وجاريته «شجرة الدر» أم ولده خليل..

ولبث نجم الدين فى أسر صاحب الكرك سبعة أشهر، ثم أطلق سراحه، وتحالف معه أن هو انتصر على أخيه أن يستقل بمصر ويقطعه بلاد الشام.

والحق أن نجم الدين مالبث أن أستولى على مصر بغير قتال، إذ نقم أمراء المملكة على أخيه، ورأوا فيه فتى طائشا لا يصلح لإدارة البلاد، فاعتقلوه وارسلوا إلى أخيه الصالح نجم الدين فأسرع فى العودة إلى مصر، وجلس على العرش، وزج أخاه فى السجن ثم أمر به فقتل فى سجنه.

هكذا يبدأ التاريخ للقصة العجيبة التى تؤلفها سيرة «شجرة ،الدر»..

من هذه الرواية نعلم أنها كانت لاتزال يوم دخلت مصر جارية للملك الصالح نجم الدين برغم أنها ولدت له ابنه خليل..

ويضيف التاريخ أن الملك الصالح لم يكد يتولى العرش حتى تألق نجم جاريته، فتبوأت فى البلاط اسمى مكانة وغدت مصدر النهى والأمر..

ونستطيع أن نتبين من خلال هذه الرواية شيئا من ملامح شجرة الدر، فنرى أنها كانت إلى جانب ما تتمتع به من فتنة وعذوبة وجمال خلاب، ذات شخصية قوية وثقافة واسعة، وذكاء حاد، وقد أثرت شخصيتها فى سيدها فقدر مواهبها وسداد رأيها فأشركها فى أمور دولته منذ حظى بها فى حلب، واتخذها رفيقة له تشاطره نعم الحياة وبؤسها، وتتقاسم معه أعباء الملك..

وقد نشأت شجرة الدر نشأة عربية خالصة، وحرص التاجر الذى سباها أو اشتراها على تخريجها فى الفنون والآداب وتهذيبها بأخلاق البلاط، حتى غدت واحدة من أولئك الجوارى المبرزات اللامعات اللواتى سيطرن على قصور الملوك والأمراء فى أواخر العصر العباسى، وكن وقد اكتملن عقلا وخلقا وجمالا، كتلك التى أقبلت على علىّ بن الجهم فى مجلس أحد أصدقائه فهمس صديقه فى أذنه مداعبا: يا أبا الحسن.. هذه الجنة التى كنتم توعدون..

وكان نجم الدين حين جلس على عرش مصر فى الرابعة والثلاثين، وكانت شجرة الدر على ما توحى سيرتها فى حدود الخامسة والعشرين، وكان يحبها حبا عظيما وقد رأى من سطوع مواهبها وما اشتهرت به من عفة وفضيلة، أنها خليقة بأن تكون زوجة له، فأعتقها وتزوجها، فاكتسبت نفوذها بذلك صفة شرعية، وأنشأت تساهم بنصيب وافر فى شئون الدولة..

وانقضت عشر سنوات من حكم الملك الصالح وهى تنعم معه برخاء عميم وسعادة وارفة الظلال، وتشاطره مجده وقوته ورفعة شأنه، وتوطد معه أركان ملكه الذى امتدت إلى دمشق وعسقلان والكرك..

بيد أن مصر ما لبثت أن تعرضت فى عهده إلى أعظم حملة صليبية وجهت إليها، وهى الحملة التى قادها ملك فرنسا لويس التاسع المعروف بالقديس لويس.

وبلغت هذه الحملة المياه المصرية فى ٢١ صفر سنة ٦٤٧ هـ فى أسطول ضخم رسا تجاه دمياط، وأرسل لويس التاسع إلى نجم الدين كتابا يبلغه فيه أنه جاء بعسكر بعدد الحصى، ويحذره من المقاومة العقيمة، وينصحه بالخضوع والتسليم.

وكان الملك الصالح مريضا فتولته الحيرة والاضطراب، وجعل يقرأ الكتاب وعيناه مغرورقتان بالدمع..

إلا أن شجرة الدر وقفت إلى جانبه تبث فيه روح العزيمة والإباء، وتحضه على المقاومة المستميتة، فتذرع بالشجاعة، وأجاب على كتاب لويس التاسع بكتاب أنشأه كاتبه قاضى القضاة الشاعر بهاء الدين زهير، فرد على التهديد بمثله وحذر ملك الفرنجة من عاقبة البغى والعدوان..

ولكن سرعان ما نزل الغزاة إلى ال   واحتلوا دمياط على أثر الرعب الذى دب فى حاميتها فتخلوا عنها وغادروها مع الأهالى إلى المعسكر السلطانى. واستولى الفرنجة فيها على مقدار وافر من المؤونة والذخيرة!

وقد غضب السلطان وأعدم عددا من مقدمى الجند لجبنهم وتخاذلهم، ثم انكفأ بعسكره إلى المنصورة فنزل فيها، وأمر بتحصينها، وجعل منها قاعدة جديدة احتشدت فيها القوى المصرية وأخذت تنازل طلائع القوى الصليبية التى كانت تستعد للزحف إلى قلب البلاد.

ومرت ستة أشهر والسلطان يعانى المرض فى المنصورة، وهو يشرف على تحصين المدينة وسير القتال مع العدو، ثم اشتدت عليه وطأته فمات فى ١٥ شعبان سنة ٦٤٧ هـ وأوصى بالعرش لولده الملك المعظم توران شاه نائبه فى البلاد الشرقية، وكان يومئذ فى حصن كيفا بديار بكر فدعى للحضور عاجلا إلى مصر.

وكانت وفاة نجم الدين فى وسط تلك المعمة الهائلة، خنجرا ماضيا يسدد إلى قلب مصر.

فقد كان من المألوف فى تلك الأيام أن يثير موت الملك أطماع القادة والأمراء، فيتنافسوا على السلطان، ويقتتلوا فى سبيل الوصول إليه والاستئثار به..

وكان نشوب مثل هذا الخلاف فى ذلك الموقف العصيب خليقا بأن يمزق وحدة الأمة والجيش، ويطوح بالبلاد، ويفتح أبوابها للغزاة المعتدين.

كيف تتصرف شجرة الدر؟!

لقد أدركت حرج المأزق الذى أوقعها فيه القدر، وأيقنت أن مصير الحرب والبلاد أصبح بين يديها، وكان أقل تخاذل فيها يؤدى إلى انتشار الفوضى، وتقهقر الجيوش الإسلامية، ومن ثم انتصار الغزاة الصليبيين.

فهل تسمح بذلك زوجة نجم الدين!! كلا..

لقد حزمت أمرها معتصمة بكل ما فيها من القوة والصبر، وقررت أن تتابع القتال كأن شيئا لم يحدث، أما نبأ وفاة الملك الصالح فكتمته عن الجميع، لئلا يسود الذعر وتخرب الديار.. وبخاصة أن ولى العهد غياث الدين توران شاه بعيد فى حصن كيفا. والطامعون بالعرش كثيرون.

وفى ليلة خطيرة استدعت شجرة الدر فخر الدين الذى كانت تثق به ثقة تامة، وأطلعته على السر الرهيب، ثم قالت له:

ـ لا يجوز أن يعلم أحد بموت الملك قبل أن نسحق القوات الصليبية وننقذ بلادنا وعيالنا من شرها. فإذا علم الغزاة أن العرش قد خلا من صاحبه طمعوا بنا، وضاعفوا حملاتهم علينا. ولا تنسى أن أمراء بنى أيوب طامعون بالملك، وهم ليسوا أهلا له. أما ولى العهد فهو ما يزال فتى عديم الحزم والتدبير لا يستطيع الصمود فى وجه عدونا الزاحف بجيوشه الحاقدة الشريرة.

قال فخر الدين، وقد تهيب الموقف، وعزم على بذل دمه فى حومة الوغى:

ـ دبرى الأمر كما ترين، يا صاحبة العصمة، وأعلمى أنى سيف من سيوفك،

انفذ أمرك حتى لو دفعتنى إلى الموت.

فأجابته شجرة الدر:

ـ بارك الله فيك، أيها الأمير، فما شككت يوما فى إخلاصك. وجل ما أريده منك أن يظل موت الملك مكتوما حتى يزول الخطر، وأن ترسل إلى حصن كيفا من يأتينا بولى العهد على جناح السرعة.

وفى تلك الليلة بالذات استدعت أم خليل طبيب الملك وخادمه الخاص، وأمرتهما بغسل الجثة وتحنيطها بعد أن أخذت منهما الأيمان المغلظة بكتمان السر. ثم جعلتها فى نعش محكم. ونقلتها مع الأمير فخر الدين، عبر النيل، إلى قصر الروضة. واستمرت مراسم القصر الملكى على حالتها الطبيعية كما كانت فى السابق.. ترفع الأحكام إلى الملك ليبدى رأيه فيها، وتعود وعليها توقيعه بالموافقة أو الرفض!!

كذلك ظلت الأوامر تصدر إلى القادة والرؤساء، وأمراء الجند، وعليها خاتم الملك وخطه. أما إذا طلب أحد رجال البلاط مقابلة الملك، فكان يقال له: إن جلالته متعب لا يستطيع مقابلة أحد.

* * *

أسر لويس!

بهذا التدبير الحكيم استطاعت شجرة الدر أن تنفذ خطتها ببراعة تثير الإعجاب، فأنقذت العرش من تهافت الطامعين به، ولكنها أدركت أن الاستمرار فى كتمان وفاة الملك الصالح أمر غير ممكن، وبخاصة أن تردد الأمير فخر الدين، دون سواه على القصر، أثار تساؤل الناس عن الأسباب التى جعلت الملك يخص هذا الأمير وحده بعطفه.

غير أن جهود «أم خليل» لم تذهب سدى، بل أدت إلى النتائج المرجوة، لقد هزم الصليبيون فى معارك حاسمة، وارتفع كابوس الخطر عن وادى النيل، كما وصل ولى العهد من حصن كيفا.

عندئذ تنفست شجرة الدر ملء صدرها، وقد أحست بنجاح مساعيها، وانتهاء قلقها، فأعلنت وفاة الملك الصالح، وأصدرت أوامرها إلى كبار رجال الدولة والجيش أن

يقسموا يمين الولاء للملك الجديد: غياث الدين توران شاه، ثم أمرت أن يدعى له على المنابر فى المساجد، فاستتب له الأمر، وسارت أعمال الدولة فى مجراها الطبيعى.

إلا أن هذه التدابير الحكيمة لم تجعل من الفتى الضعيف الرأى رجلا جديرا بالجلوس على العرش فى مثل ذلك الزمان الحافل بالأحداث المصيرية، لقد كانت كل مؤهلاته أنه ابن ملك، وما أكثر أبناء الملوك المعتوهين!

ولما علم الصليبيون بموت الملك الصالح شددوا هجومهم على مدينة المنصورة فى الدلتا، وكانت شجرة الدر تنتظر هذا الهجوم وقد استعدت له، وبلغت بها الحماسة حدا جعلها تشارك بنفسها الأهالى والجنود فى صد غارات الأعداء، وترسم خطط القتال مع قادة الجيش، كما تشرف شخصيا على تنفيذها!. هاهى تراقب عن كثب سير المعارك، وترسل النجدات إلى المقاتلين بلا توقف. لقد أحبت النيل وأرضه، كما أخلصت لدينها: فهى تصد عنه بكل ما تستطيع.

وفى معركة المنصورة استعمل المسلمون سلاحا جديدا للمرة الأولى هو النار الإغريقية. فأخذت المجانيق تقذف العدو بكرات كبيرة من المواد الملتهبة عوضا عن الحجارة، فانتشر الحريق فى صفوف الصليبيين ومعسكراتهم. وصدف أن هبت عليهم الرياح آنذاك، فكانت ريح الهزيمة المنكرة. فانكفأوا خاسرين قد ملأ الرعب قلوبهم.

وفى هذه الأثناء أبلى الأمير فخر الدين بلاء حسنا وانتقم انتقاما باهرا من الأعداء الذين كانوا قد تغلبوا عليه فى معركة دمياط. وانقض ركن الدين بيبرس البندقدارى برجال الحرس السلطانى على الغزاة فصدهم عن باب القصر فى المنصورة ومزقهم شر ممزق.

ثم إن المصريين احرزوا انتصارهم الحاسم فى اليوم التاسع من فبراير ١٢٥٠م، فأسروا قائد الحملة الصليبية ملك فرنسا لويس التاسع، وأنزلوه فى دار القاضى فخر الدين بن لقمان، وانتدبوا الخادم صبيح المعظمى لحراسته.

أما الملك الجديد توران شاه، فعوضا عن أن يبادر إلى مكافأة أبطال الجيش على ما بذلوه من جهود لإحراز النصر العظيم، نقم عليهم، وأعلن عزمه على قتلهم دون أى سبب إلا أنهم كانوا رجال أبيه..!!

كان يصف الشموع، ويأخذ رؤوسها بالسيف وهو يقول: «هكذا سأفعل بالمماليك البحرية!».

ولم يكتف بهذا القدر، بل تعمد إهانة كبار الأمراء، والحط من قدرهم، فقرروا القضاء عليه.

وذات يوم، جلس الملك بين أصحابه فى موكب فخم، ورجال الحرس أمامه وفى أيديهم عصى كسيت بالذهب. ولما وقع نظره على أمراء الجيش رفع رأسه وضحك كأنه يقول لهم: «إنى سلطانكم رغم أنوفكم!» فاضمروا له الشر.

ولما توقف الموكب، وأحضر الطعام أمام الملك انقض المماليك على توران بالسيوف، وضربه أحدهم فقطع أصابعه..

ولم يكن توران شاه يتوقع هذه المفاجأة، فنهض مذعورا وفر هاربا، ولجأ إلى برج خشبى وأغلق وراءه الباب، وأضرم المماليك النار فى البرج، فألقى الملك بنفسه فى النيل، وراح يسبح والسهام تأخذه من كل ناحية وهو يصيح:

خذوا ملككم، ودعونى أعود إلى حصن كيفا!

وكانت أخرة أمره أن أغرق فى الماء فانتشل جثته الصيادون!

لقد مات توران شاه على هذه الصورة، لأنه لم يحسن سياسته مع الذين كانوا حماة الوطن، وأصحاب القوة الفعالة فى البلاد، فاتجهت الأنظار إلى شجرة الدر. وتذكر المماليك مواقفها البطولية فى محاربة الصليبيين، فقرروا أن يجلسوها على العرش.

وجاء عز الدين أيبك، كبير قادة الجيش يقول لها:

ـ يا صاحبة العصمة، أنت الآن ملكة المسلمين!

وكانت تنتظر هذه النتيجة بعد مقتل توران شاه، إلا أنها تظاهرت بالدهشة والاستغراب وأجابت:

ـ ملكة المسلمين؟ أنا؟ ماذا تقول أيها الأمير؟

فأجاب:

- أجل، أنت ملكة المسلمين، وعصمة الدنيا والدين! هذا ما أجمع عليه أمراء الجيش، لقد رأوا أن حرم مولانا الملك الصالح، رحمه الله، وأم ولده خليل، وأعز الناس عليه، هي السيدة العاقلة، المدبرة، والجديرة بالجلوس على العرش، لأنها تغار على البلاد، وتحسن سياسة الدولة، وتحمى الديار من الأعداء.

- حسنا، لكن أترك هذا الأمر لك، فعليك أن تدبر المملكة، وأن توزع المناصب على الرجال الأكفاء، ولست أطلب إليك إلا أن تخص بعنايتك الأمير ركن الدين بيبرس، فهو من خيرة الأمراء وأشدهم غيرة على ديار المسلمين.

وفى اليوم التالى احتفل المماليك البحرية بجلوس شجرة الدر على عرش مصر، فاستقبلتهم من وراء الستار. وخاطبتهم قائلة:

«إنى شاكرة لكم مروءتكم وحسن ظنكم، ولا يسعنى إلا أن أوافق على ما أجمعتم عليه، ولكنى لم أقبل هذا المنصب إلا لاعتمادى عليكم، وثقتى بكم.. فأنتم سيوف هذه الدولة، ولا أستطيع عملا إلا إذا أخذتم بيدى!!».

فهتفوا باسمها ثم غادروا القصر، فودعهم عز الدين أيبك وشيعهم إلى الباب الخارجى.

* * *

أول ملكة فى الإسلام!!

أطل على القاهرة يوم بهيج، وكان الناس فى هرج ومرج، يستعدون للاحتفال بالحدث العظيم.

ازدحموا فى الشوارع والساحات، بين راكب وراجل، رجالا ونساء، فغصت بهم الساحة الواسعة المنبسطة أمام القلعة.. وكان فيهم الباعة يحملون الكعك، والحلويات، والفواكه منادين على سلعهم، وقد سادت الفوضى، وتدافع المزدحمون بالاكتاف والصدور.

وفى بعض الأماكن المنفردة، فى أطراف الساحة، عقدت حلقات للبحث فى الحدث العجيب والأول من نوعه فى الإسلام، وهو: تنصيب امرأة ملكة على المسلمين.

قال شاب كان يحمل كتابا خرج به من الجامع الأزهر، وهو من مجندى المماليك البحرية:

ـ لم نستغرب جلوس «أم خليل» على العرش؟ ألم تتول السلطة رضية شئون الملك فى دلهى طوال أربع سنوات؟ ألم تحكم تركمان خاتون، والدة السلطان محمد بن تكشى، بلاد خوارزم وخراسان؟ ألم تكن زبيدة سيدة بغداد فى عهد الرشيد؟ وإذا رجعنا قليلا إلى ما قبل الإسلام، أفلا تملأ نفوسنا عظمة بلقيس وكليوباترة، وزونوبيا فى أرض تدمر!

وزايد آخر فقال:

ـ أليست شجرة الدر زوج الملك الصالح، وأم ولده، وقاهرة الصليبيين، وعقل الدولة المدبر الواعى؟! لقد اعترف الأبطال بسداد رأيها، وشجاعتها، وأعربوا عن إعجابهم بمواهبها الفذة.. فلم لا تجلس على عرش مصر؟

فرد ثالث وهو يكاد ينفجر غيظا:

ـ هذه والله بدعة! فهل خلت بلاد مصر من الرجال لتحكمها امرأة؟

وقبل أن يكمل الرجل كلامه سمع صوت الأبواق وقرع الطبول. ثم أطل موكب المماليك البحرية متوجها صوب القلعة، وفى مقدمته كبار الفرسان فى ملابسهم المذهبة، اللامعة تحت الشمس. وكان خلفهم هودج «محفة» شجرة الدر تحمله البغال، وقد ألقيت عليه ستائر الحرير المزركش، ويواكبه فرسان من المماليك فى ثياب زاهية الألوان. وجاء خلفهم حملة الرماح القصيرة فكوكبة من الرماح، فجماهير الشعب المائجة تتصاعد منها الهتافات والزغاريد!!

ووصل الموكب إلى باب القلعة المواجه للقاهرة، فاستقبلته بعض فصائل الجند وجعلت تمنع الناس من الدخول، وقد أغلق باب القلعة الآخر منعا للإزدحام داخلها.

ودخل الموكب.. فظلت جماهير الشعب فى الخارج فيما كانت الطبول تقرع، وأصوات الأبواق تتجاوب بلا انقطاع. وما أنفك الموكب سائرا حتى بلغ الباب الداخلى، ففتح أمامه، ولم يتجاوز عتبته سوى الخاصة من الأمراء وأرباب المناصب الرفيعة..

وفى رواق فسيح تحف به الأبنية المخصصة للسكن ترجل الفرسان، وأنزلت شجرة الدر من محفتها، ومشت على السجاد بين الأعلام والرياحين والأزهار. فسار عز الدين أيبك وكبار الأمراء بين يديها حتى بلغت قبة من الحرير المطرز كان يحملها نفر من كبار القادة، فدخلتها مع وصيفاتها وأرخيت عليهن الستائر.

وتحركت القبة حتى بلغت الإيوان، وفيه سرير السلطنة الذهبى، فجعلت القبة فوقه.. وجلست شجرة الدر عليه من غير أن يراها أحد الحاضرين.

ودخل قاضى القضاة فجلس إلى يمين القبة، وجلس وراءه أمين بيت المال وناظر الحسبة، وإلى يساره أمين السر وبعض أرباب المناصب، والشيوخ والمستشارون.

وأمام القبة فى وسط الإيوان، جلس الأمير عز الدين أيبك، قائد الجند العام، وكبار أمراء المماليك، وكان خلف السرير صفان من رجال الحرس وراءهم الحجاب والخدم.

وجىء بجماعة من الأسرى الصليبيين للتذكير بالانتصارات الحاسمة التى ساهمت فيها الملكة الجديدة مساهمة فعالة لا يجهلها أحد.

ولما استقر الحاضرون فى أماكنهم، نهض الأمير عز الدين أيبك وخاطبهم قائلا:

ـ أيها الأمراء والقادة، لقد علمتم جميعا بمصير الملك توران شاه.. أنه أساء التصرف، وحاول التنكيل بجند هذا البلد، وهم درع الدولة وسيفها. وليس فيكم من لم يشهد بلاءهم فى حرب الافرنج المعتدين زمن الملك الصالح، رحمه الله. ولما خلا سرير الدولة، لم تجد من هو أولى به من مولاتنا صاحبة العصمة شجرة الدر أم خليل وزوج الملك الصالح. وقد أجمع رأى الأمراء والقضاة على اختيارها ملكة، تتولى شئون المملكة بمساعدة المخلصين الأوفياء من أصحاب الكفاءة، أما حملة السيوف فتعهدوا بطاعتها لإحقاق الحق، وحماية الشرائع والدين. ونحن نحتفل الآن بتنصيب مولاتنا صاحبة العصمة أم خليل ملكة، وسندعو لها على المنابر بعد الدعاء لمولانا أمير المؤمنين المستعصم بالله، الخليفة فى بغداد. وسننقش اسمها على الدنانير والدراهم.

فماذا ترون أيها الكرام والأفاضل؟!

وتقدم قاضى القضاة فدعا للملكة قائلا: «واحفظ اللهم الجبهة الصالحة، ملكة

المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل صاحبة السلطان الملك الصالح».

واستطرد عز الدين أيبك قائلا:

ـ لقد عهدت صاحبة العصمة إلى تدبير المملكة باسمها، وولت الأمير ركن الدين بيبرس شئون القصر والقلعة، وأمرتنى أن أثبت أصحاب المناصب الموالين لنا، من أصحاب الأقلام، وأصحاب السيوف.

ثم أشار إلى صاحب الستار فأزاحه، وبدت شجرة الدر على سرير الملك تحت القبة، وقد أرخت النقاب، وعلى رأسها العصائب السلطانية الصفراء تحمل ألقاب الملكة مطرزة بالذهب. فهتف الناس داعين لها ثم أرخى الستار من جديد.

وأكمل عز الدين خطبته قائلا:

«سنحتفل قريبا بقراءة المرسوم الذى يرد علينا من أمير المؤمنين فى بغداد تأييدا لسلطنة مولاتنا حفظها الله».

وقبل أن يتفرق الحاضرون تقدم بعض رجال الحرس يحملون الأطباق، عليها صرر النقود، فوزعت على الجميع، وكانت كل صرة تحمل اسم صاحبها مكتوبا عليها.

وبعد توزيع العطايا أعلن الأمير عز الدين أن الملكة أمرت بنقل دار السلطنة من جزيرة الروضة إلى القلعة التى تمت فيها مراسم التنصيب.

ولما خلت القلعة من المحتفلين انتقلت شجرة الدر إلى قصر السلطنة، وأمرت الخدم بالانصراف، وخلت بنفسها تستعرض ما مر بها فى ذلك اليوم التاريخى.

تذكرت صباها وشبابها، فتراءت لها صور ومشاهد من نضالها الطويل. فزادها ذلك شعورا بمسئوليتها، وتصميما على حماية البلاد، وتعزيز الجيش، ورفع مستوى الشعب.

وألقت نظرة على المستقبل، فرأت أنه لا يخلو من المتاعب، وأن الخطر الصليبى ما يزال يهدد البلاد، ولكنها كانت كبيرة الثقة بجيشها الباسل. فما أن تبادرت هذه الفكرة إلى ذهنها حتى غمرت نفسها موجة من الطمأنينة، فأشرق وجهها وتنفست ملء صدرها.

وتوالت الأيام هادئة رتيبة، فأبدت الملكة من المقدرة والجدارة فى تصريف الدولة ما أطلق الألسنة بالثناء عليها.

ولقد لمس الجميع ما تتحلى به من رحابة الصدر، وحسن التدبير، فأعجب بها رجال البلاط، وأطاعوا راغبين هانئين، لكثرة ما خلعت على الأمراء، وتصدقت على الفقراء، ونشرت راية الأمن والسلام.

ولم يفتها أن كونها امرأة هى الحجة الوحيدة التى يتخذها أعداؤها لينكروا عليها حقها فى الجلوس على العرش. فحرصت على أن تدعى بأعز ألقابها عليها وهو: «أم خليل» ترسيخا لأمومتها فى أذهان الناس.

ولعلها اختارت لقب «المستعصمية» استدراراً لعطف الخليفة «المستعصم» عليها، فقد كانت تشعر فى قرارة نفسها أنه من الصعب أن يوافق على تنصيبها ملكة.

وقد صح ظنها، وتحقق ما كانت تخشاه. فلم يدم ملكها سوى ثمانين يوما، ثم وصل رسول الخليفة، فاستقبله الأمراء فى القلعة، وكان ركن الدين بيبرس غائبا فى دمياط.

كانت شجرة الدر جالسة على سرير الملك، وعليها الزى الذى لبسته يوم التنصيب، ومن حولها وصيفاتها، ووراء الجميع صفان من رجال الحرس. ولم يخف على الذين راقبوا ملامحها وحركاتها أنها كانت مضطربة فى ذلك اليوم، إلا أنها تجلدت، وأظهرت رباطة الجأش.

وفى هدوء مهيب سمع صوت عز الدين أيبك يقول:

ـ أيها الأمراء، هذا رسول مولانا الخليفة، أمير المؤمنين المستعصم بالله، حفظه الله، ومعه كتاب من الخليفة سيتلوه علينا، فاسمعوا له، وأطيعوا ما فيه.

وتقدم الرسول فوقف على منصة منخفضة وفض الكتاب ثم قرأ ما معناه:

«من أبى أحمد عبد الله المستعصم بالله أمير المؤمنين إلى أمراء الجند والوزراء فى مصر، السلام عليكم، وبعد، فقد بلغنا أنكم وليتم أمركم شجرة الدر صاحبة الملك الصالح، رحمه الله، وجعلتموها سلطانة عليكم، فإذا لم يكن عندكم رجال يصلحون للسلطنة فأخبرونا، ونحن نرسل إليكم من يصلح لها. والسلام.»!!

وقوبلت هذه الرسالة بضجيج كأنه هدير البحر..

أما شجرة فأمرت بإزاحة الستار الذى كان يحجبها عن الناس، وقالت بصوت

هادىء موزون، فى نبراته كل معانى العزة والآباء:

«يامعشر الأمراء، سمعتم ما أمر به أمير المؤمنين، وطاعته فرض على كل مسلم. ولقد صدق، حفظه الله، فالنساء لا يصلحن للسلطنة، وأنا لم أقبل الجلوس على العرش إلا عملا برأيكم، ورغبة منى فى استقرار الأحوال بعد اضطرابها، أما الآن، وقد استقرت الأمور، وسمعنا رأى مولانا الخليفة، فأنى أخلع نفسى وأطلب إليكم أن تختاروا من ترونه جديرا بهذا المنصب، وأنا أول الخاضعين له!»

وكان هذا الموقف رائعا، رفع مرتبة شجرة الدر إلى الذروة فى نفوس محبيها والمقدرين لمواهبها.

وما كادت تفرغ من كلامها حتى ارتفع صوت من وراء الحجاب يقول:

لانقبل سلطانا علينا إن لم يكن من آل أيوب.

واتجهت الأنظار إلى كبير القادة عز الدين أيبك، فنهض وقال:

لا أعرف بين الأيوبيين من هو أجدر بالملك من مولانا موسى بن صلاح الدين بن مسعود، ولكنه صغير السن..

فأجابه رسول الخليفة على الفور:

ـ لن يؤثر عليه صغر سنه. فأنت قائد جنده، ومدبر أموره، فما رأيكم أيها الأمراء؟

فصاح الجميع:

ـ هذا هو الصواب.

وجىء بالأمير الأيوبى الصغير، فالبس شارات السلطنة فى نفس ذلك اليوم.

وكانت شجرة الدر على سريرها ترى وتسمع. ولما تمت مراسم تنصيب الملك الجديد أسدل على «أم خليل» الستار، فتنفست ملء صدرها وقالت:

ـ حسبى أنى أول امرأة تولت الملك فى الإسلام..!!

* * *

أيام حافلة بالأحداث!

لم تكن الثمانون يوما التى أمضتها شجرة الدر على عرش مصر أيام طمأنينة وارتياح، بل حافلة بالمتاعب والقلق. ذلك أن توليها شئون الملك لم يصطدم بمعارضة الخليفة العباسى وحده، بل أثار عليها الأمراء فى دمشق وبغداد. لقد اتهمها بعضهم جهارا بالتحريض على اغتيال توران شاه، فوضعت كل اعتمادها على عز الدين أيبك، وجعلته قائدا عاما لجيشها، ثم قررت أن تقترن به، ظنا منها أنها تستطيع أن تظل قابضة على زمام الحكم من ورائه، وبالنظر إلى سيطرتها عليه معنويا، وإلى ضعف شخصيته بالنسبة إلى ما كانت هى عليه من قوة الإرادة والحزم.

ولكنها قبل أن ترتبط به بعقد الزواج استدعته وقالت له:

ـ أنت، يا عز الدين، سيف هذه الدولة، وصاحب الفضل الأول على هذا العرش، فليتنى أستطيع أن أقدم لك مكافأة على مستوى خدماتك.

فأجابها بكل آدب:

ـ تعلمين يا مولاتى أن حياتى مرهونة بإشارة منك، وجل مناى أن أفديك بدمى.

وآنست منه الإخلاص والضعف معا، فقالت:

ـ أنى ملكة المسلمين أيها الأمير، وواجب الحصانة يقضى بأن تكون المرأة فى عصمة رجل، حتى لو كانت ملكة.

وكان عز الدين يتمنى ويحدث نفسه منذ حين بأن يعرض نفسه على شجرة الدر، لكنه كان ينتظر الفرصة لمفاتحتها بهذا الأمر. فما كاد يسمعها تتفوه بتلك الكلمات حتى رقص قلبه سرورا وقال:

ـ لمولاتى الملكة أن تأمر، وعلى أن أطيع.

ـ ولكن حُرمة العرش تفرض عليك بعض التضحية.

وأطرقت مفكرة، فلم يتجرأ على سؤالها عن نوع تلك التضحية. وبعد برهة من الصمت الثقيل سمعها تقول:

ـ إن الملكة لا ترضى بأن تكون لها شريكة فى الزواج!

فنهض وقال بصوت متهدج:

ـ إن زوجتى الأولى طالق!

ـ وابنك المنصور؟ ألا يطمع إلى العرش متى رأى أباه زوجا للملكة؟

ـ أنى أتخلى عنه!

ـ لا تتخل عنه، بل يكفى أن تعلن أن العرش لن ينتقل إليه، فأم خليل عازمة على أن تنجب وليا للعهد.

فأكب على يدها يقبلها ثم قال:

ـ أما قلت لك يا مولاتى، أنى لك أن تأمرى وعلى أن أطيع؟

وما هى إلا أيام حتى عقد قران الملكة على عز الدين أيبك، وانصرفت بكل قواها إلى تصفية الحملة الصليبية السابعة. ففرضت على الغزاة المهزومين شروطا قاسية اضطروا إلى الإذعان لها صاغرين. وطلبت فدية للملك لويس الأسير قدرها أربعمائة ألف دينار، فبادرت زوجته الملكة مرجريت إلى دفعها. فعمرت به خزينة مصر، وفرغت خزينة الصليبيين الذين أيقنوا أنهم فقدوا آخر أمل لهم بالنصر.

وفى شهر ابريل عام ١٢٥٠م أبحر آخر فوج منهم على ما تبقى لهم من السفن، وزال خطرهم كليا عن البلاد. وكان لشجرة الدر اليد الطولى فى إحراز هذا النصر العظيم.

ولما تنازلت، عملا بأمر الخليفة العباسى، أصبح عز الدين أيبك سيد الموقف، لكون الملك الجديد موسى بن صلاح الدين ابن مسعود صبيا غرا منصرفا إلى اللعب لا يدرك من شئون الملك شيئا.

لم تشك شجرة الدر فى ولاء عز الدين، فأولته ثقتها كاملة، مع أنه اتخذ اسم «الملك المعز» وراح يسعى جهارا للاستقلال بالحكم، مما أثار عليه نقمة الأمراء الأيوبيين.

وفى تلك الأثناء استولى الناصر، صلاح الدين أمير حلب، على دمشق، وأخذ يعد العدة للزحف على مصر وإعادة الحكم الأيوبى إليها.

وأحس أيبك بالخطر، فراح يحشد قواته لمواجهة الطوراىء، وقدمت له شجرة الدر مساعدات جليلة، فكتبت إلى المماليك الموالين لها، ووزعت العطايا على الجند، وأبدت من الحماس ماشحذ همم الرجال وجعلهم يستعدون للاستبسال فى الميادين.

ولما وصلت قوات أمير حلب إلى جوار القاهرة تصدى لها أيبك على رأس جيش كبير، فأنزل بها هزيمة نكراء، وطارد فلولها حتى ابتعد آخر رجل منها عن الديار المصرية.

ويبدو أن أيبك سكر بخمرة ذلك النصر، فتناسى خدمات شجرة الدر، وازداد طموحا إلى الاستقلال بالملك، فأخذ يستبد بالمماليك، رفقائه فى السلاح بالأمس، خوفا من أن ينازعوه سيطرته على الملك.

وكان أشدهم خطرا الأمير أقطاى الذى أعلن، فى أكثر من مناسبة، أنه أجدر منه بالعرش، فحقد عليه أيبك، وبات يتحين الفرص للبطش به.

وظلت شجرة الدر أمينة على عهدها لأيبك، تدافع عنه بكل ما أوتيت به من قوة الأقناع. وتتفانى فى نصرته، وتبذل كل جهد لتدفع عنه الأخطار. وجعلت تحث المماليك على الإخلاص له والانضواء تحت لوائه.

وبقى هذا شأنها حتى تبين لها أن أيبك لا يحفظ لها جميلا، ولا يرعى لها شعورا، بل ينوى طعنها فى الصميم، لا بإقصائها عن السلطة فحسب، بل بجلب زوجة له أخرى.

لقد بلغها أنه أرسل إلى بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل يخطب منه ابنته.. وما كادت تفاتحه بهذا الأمر حتى زجرها صائحا:

- الزمى حدك يا امرأة! فأنا الملك، أفعل ما يطيب لى، ولا أقبل اعتراض أحد!!..

وحاولت أن تسترضيه، فذكرته، بماضيهما المشترك، وبما بذلت فى سبيله من جهود، فاستشاط غيظا وصاح:

ـ إن يكن لأحدنا من فضل على الآخر، فإنه لى عليك، فأنا أجلستك على العرش، وأنا صنت دولتك بحد السيف، وما عليك الآن إلا أن تذعنى لمشيئتى، وإلا...

فاتسعت عيناها، واختلجت شفتاها، ثم قالت بصوت مبحوح:

ـ وإلا ماذا؟

ـ لن أتردد فى إزالة كل عقبة تقف عثرة على طريقى.

فأطرقت برهة، ثم أجابت:

ـ أنى بين يديك. فمر بما تشاء!

ـ لا أريد هذه المخاصمات التى تزعجنى وترهق أعصابى، ولا سبيل إلى تلافيها ما دمنا نعيش تحت سقف واحد.

ـ أتريد منى الابتعاد عنك؟ فإلى أين تريدنى أن أذهب؟

ـ انتقلى إلى دار الوزارة فى القاهرة.

ـ أهذا هجر؟

فابتسم متهكما وأجاب:

ـ بل هذا إكرام.. ولا تنسى أنى تجاوزت الستين وأن من حق من يبلغ هذا السن أن يطلب قسطا من الراحة!!

فأدركت أنه ينوى إخلاء قصر القلعة ليستقبل فيه عروسه الجديدة، ولكنها تظاهرت بالتجاهل والموافقة فقالت:

ـ كما تريد، فلن أنسى فضلك. وأمنيتى الكبرى أن أراك هانئا سعيدا.

وكان صوتها عميقا فيه نبرات الصدق والإخلاص، فتأثر أيبك حتى كاد يلتمس منها المعذرة، ثم قال:

ـ إفعلى ما يطيب لك، وأقيمى حيث تشائين، فأنت السيدة الكبيرة، لا تعلو على كلمتك كلمة، مادمت لا تعارضين مشيئتى فى شئونى الخاصة.

- أنى مستعدة لإطاعة أمرك.

ولمعت فى عينيها الدموع، فخفضت رأسها، ومضت إلى جناحها فى القصر بخطى بطيئة متزنة، لا يفوتها شيء من هيبة الملك وجلال السلطان.

وكاد أيبك يندم على ما بدر منه، إلا أنه انصرف إلى التفكير بعروسه الجديدة. فرأى أن صراحته مع شجرة الدر كانت ضرورية لتوضيح موقفه، وللحصول على ما يريده من حرية التصرف لينعم بزواجه الجديد من غير أن يساوره قلق. وراح يتأهب لما ينتظره من أيام مقبلة حافلة بالبهجة والسرور!!

* * *

ناكر الجميل!

لم تظهر شجرة الدر ذلك الخضوع المطلق لأيبك إلا كسبا للوقت. أما فى قرارة نفسها فقد أضمرت له الشر. وصممت على البطش به. لقد غدر بها بعد أن رفعته..

وكانت كبيرة الإعجاب بركن الدين بيبرس، بالنظر إلى بلائه الحسن فى مقاتلة الصليبيين، وإلى ما يتحلى به من روح الفروسية والأقدام. لذلك استدعته فى غياب أيبك لتبوح له بما فى صدرها.

ولما مثل بين يديها فاجأته قائلة:

- لقد طفح الكيل، صحيح أن الأطماع تغير الرجال، ولكن عز الدين بات لا يطاق.

واستولى عليها الغضب الذى حبسته فى صدرها طويلا، وانفجر الآن.. فتهدج صوتها، وارتجفت يداها. ولما رأت بيبرس مطرقا لا يقول كلمة واحدة، استطردت قائلة:

- ما بالك لا تجيب، يا ركن الدين؟ ألا ترى أن أيبك يضحى بأصدقائه دون سبب؟

قال، وقد شاقه أن يستجلى كل ما فى نفسها:

- لا أحسبه طامعا، يا صاحبة العصمة. وبم يطمع وقد جعلته صاحب الأمر حتى لا يرتفع فوق صوته صوت؟

- وهذا ما يؤلمنى، يا ركن الدين، فكلما زدته قوة ونفوذا، زادنى نفورا

وغطرسة.. فنحن نحافظ على وده، وهو يسعى للقضاء علينا.

وتزحزت فى مجلسها كأنها تتحفز للوثوب، فقال:

- يا صاحبة العظمة، لا أظن عز الدين طامعا بشىء، ولكنه يعمل بإرشاد الخليفة فى بغداد..

وكان يراقبها من طرف خفى، فرأى أن ذكر اسم الخليفة العباسى أثار حقدها، وكاد يخرجها عن حدها، إلا أنها تجلدت، ثم قالت متصفة بالهدوء:

- أما علمت بأن أيبك خطب بنت بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل؟

وهنا أدرك بيبرس أن شجرة الدر امرأة أصيبت فى أنوثتها، وزوجة طعنت كرامتها، فقال:

- ليخطب من يشاء، فهذا لن يحط من مقامك، يا صاحبة العصمة.. فأنت ركن هذه الدولة، وعقلها الموجه، وقلبها النابض بالحياة.

قالت، وقد غلبها الهم، واستولت عليها الكآبة:

- خدعنى أيبك، أيها الأمير، وهو يحاول تجريدى من كل شىء، يحاول أن يطرحنى بين الغلمان والخدم، متناسيا فضلى عليه. إنه والله لجاحد ناكر الجميل! ألا تعلم كيف أبعد السلطان الشرعى، الملك الأشرف، عن عيون الناس، ثم ألقاه فى سجن مظلم، وحكم عليه بالموت البطىء؟! أما أخبروك بحملاته المنكرة على الأمير أقطاى وهو رفيقه فى السلاح؟! وهل تضمن أنه لا يدبر مكيدة لك أنت!! إنه رجل لا يتورع عن خيانة أصحابه والغدر بهم.

وأحس بيبرس أنها تحرضه على أيبك فقال:

لم يكن الملك الأشرف سلطانا يوما واحدا فى حياته لا يا صاحبة العصمة، فهو صورة جوفاء لا قيمة لها ولا معنى، ولعل عز الدين حجبه عن الأنظار ليحفظ للعرش كرامته وحرمته.

فتضايقت من هذا التفسير، وأجابت:

- مهما يكن الملك الأشرف تافها فإن علينا أن نحميه ونحترمه ليدوم لنا هذا الملك. وأن لم نفعل تفجرت الأطماع حولنا من كل جانب، وسادت الفوضى، والعياذ بالله! أما قولك بأن أبيك يريد صيانة حرمة العرش فهى طيبة منك أكثر مما ينبغى.. إنه لا يدل على حقيقة أبيك.. فهو طاغية يريد أن يكون سلطانا ويعتقد أن مبايعة الأمراء له واجب مفروض عليهم!

قال: ولكن الناس لا يخضعون إلا لملك من آل أيوب.

فابتسمت هازئة وأجابت:

- إنك شجاع فى القتال أيها الأمير، ولكنك قليل الخبرة فى السياسة ودسائس القصور، أما رأيت أن أبيك اختار اسم «الملك المعز»؟

- وما معنى هذا الاختيار؟

- إنه رمز لتجدد الدولة الفاطمية التى قضى عليها صلاح الدين، جد بنى أيوب.. وقد علمت أن عز الدين قد أغرى عددا من الأمراء، فوافقوا على مبايعته، وهو يغتنم فرصة غيابك فى دمياط لينجز عمله أثناء غيابك ويجعلك أمام الأمر الواقع.

فاستاء ركن الدولة من ذلك وكاد يتميز غيظا، إلا أنه تمالك وقال:

- وما شأنى فى ما يريده عز الدين أو يفعل، يا صاحبة العصمة؟ أنا جندى فى جيش هذه الدولة، أضرب بسيفها، وأزود عن حياضها..

- بل أنت بطلها، وأملها الأخير بالخلاص مما يعده لها عز الدين أبيك؟

فأدرك عندئذ أنها ما استدعته إلا لتحرضه على أبيك، فصمم أن لا يتورط، وقال لها بقوة هادئة لا تترك مجالا للجدل:

- يا صاحبة العصمة، قلت لك أنى جندى. ولن أتخلى عن مهمتى وواجبى. ومهما يكن من الأمر فإنى مسافر إلى بغداد بعد أيام، ولست أدرى متى أعود.

فأطرقت خائبة، وقد استولت عليها الكآبة، ثم رفعت رأسها وقالت:

رافقتك السلامة، يا ركن الدين.. فأذهب إلى بغداد، ولا تنسى أن أبيك خائن،

لا يخدم إلا نفسه.. وكلما تقدم فى السن عاما، ازداد تصلبا واستبدادا. ولا أدرى إلى متى أستطيع تحمل غطرسته وجوره.

ونهضت متباطئة، فوضعت يدها على كتفه ثم استطردت قائلة:

قد تسمع فى بغداد مالا يسرك من أخبار القاهرة.

وبعد سكوت تسوده الرهبة، رفعت رأسها وحدقت فى عينى ركن الدين بقوة وإصرار، ثم قالت:

لن يكون أيبك لبنت لؤلؤ، ولا إلى غيرها، فأنا وحدى أعلم لمن سيكون، وما هو المصير اللائق بطموحه المتمادى.

ومشت إلى جناحها من القصر، فخرج بيبرس مرتبكا، ومضى فى سبيله لا يلوى على شىء.

* * *

النيل يهزأ بأطماع الناس

لم تغمض شجرة الدر فى تلك الليلة عينيها، ولا وجد النعاس إليها سبيلا.

لقد عاودتها الصور.. وانتقلت هى بتفكيرها إلى أيام شبابها فى حصن كيفا، واستعرضت ما مر بها من أحداث حتى توقفت عند أيبك. فخفق قلبها، وامتلأت نفسها مرارة، ثم انقلبت هذه المرارة حقد قد ينفجر عما قريب..

فنهضت من فراشها وخرجت إلى الشرفة كى تنظر إلى ظلام الليل، وترى النيل يجرى بهدوئه الدهرى، كأنه يهزأ بأطماع الناس وتهافتهم على الأمجاد الزائلة.

وأحست بها إحدى وصيفاتها، فهرعت إليها تسألها:

أتريد مولاتى شيئا فآتيها به؟

فربت شجرة الدر كتفها مستأنسة بها، ثم قالت:

بارك الله فيك، يا صفية، فقد جئت فى الوقت المناسب، أيقظى مرجانا، وليأتنى على الفور.

وما هى إلا لحظة حتى مثل مرجان بين يدى مولاته. وهو فتى من أبناء السودان، صلب، ضخم الرأس، مفتول الساعدين، متين البنية، كأنه قد من الصخر. فخاطبته شجرة الدر قائلة:

- أتريد أن تعود إلى بلادك، يا مرجان؟

فارتبك قليلا، ثم أجاب:

- كل بلاد الإسلام بلادى. أما الآن فحسبى أنى خادم أمين لمولاتى.

- هذا جميل! لكن المرء يحن دائما إلى دياره، حتى لو كان تاجرا وطنه حيث يربح. ومن لا يخالجه هذا الشعور لا يكون إنسانا.

ولما لزم الخادم الصمت لا يدرى بما يجيب أعطته حفنة من الدنانير واستطردت قائلة:

- ستعود إلى ديارك، يا مرجان، لكن.. بعد أن تقدم لى خدمة خطيرة.

وبان على مرجان أنه انتعش وأحس بأهمية نفسه:

- روحى فدى مولاتى صاحبة العصمة!

- ومتى أديت المهمة أعطيتك فرسا، وكسوة، وسيفا، وقدر ما تستطيع أن تحمل من الذهب. والآن من عندك من الغلمان الأشداء؟!

- عندى ميمون، ووضاح، وكليب، وعدى، وغيرهم.

- أواثق أنت بأنهم يفعلون ما تأمرهم به؟

- كل الثقة، يا مولاتى.

فاستبشرت شجرة الدر بنباهته وقالت:

- حسنا، عدهم بمثل ما وعدتك به. واستعد للقيام بعمل تهتز له هذه الدولة.

فهب واقفا وقال:

- لتأمر مولاتى بما تريد! أتريدنى أن أموت الساعة؟!

فضحكت متهللة وأجابت:

ـ بل أريدك أن تحيا يا مرجان، وأن يموت سواك.. أن يموت من كفر بالنعمة، واستخف بحرمة العرش، وتطاول على الكرامات!

ـ ومن هو يا مولاتى؟! مرينى أفعل ما تشائين.

ـ هو عز الدين أيبك، قائد الجيش.. الطاغية الذى أبطر فضلنا عليه، ونسى ما أسبغنا عليه من خيرات.

ـ أين هو يا مولاتى، فأذهب إليه، وأضع خنجرى فى قلبه؟

فابتهج قلبها بذلك وقالت:

ـ رويدك يا مرجان! لا أريدك أن تغامر وحدك. فقد يتغلب عليك. لكن استعد للعمل غدا، مع خمسة من رفقائك الذين تثق بهم. وانتظر إشارتى، واعمل ما أوعز به إليك لا أكثر.

ـ سترى مولاتى أن مرجانا جدير بثقتها، وما عليها إلا أن تأمره.

فصرفته قائلة: أذهب الآن، وكن على استعداد.

ولما توارى مرجان فى الظلام، خلت شجرة الدر بنفسها، وهى مرتاحة إلى العمل الخطير الذى قررت تنفيذه. لقد غدر بها أيبك.. فعليه أن يدفع الثمن..

ولم لا تنتقم ممن جرح شعورها، ونال من كرامتها!!

لقد كانت زوجة مخلصة أمينة، وملكة حازمة صانت البلاد من شر الغزاة الصليبيين، وهى مستعدة لبذل حياتها فى سبيل العرش والدولة. أما أن يستخف بها أيبك، ويحاول تحقيرها، فهذا ما لا ترضاه أبدا.

وما انفكت فى تفكيرها وهى تقلب أمرها على جميع الوجوه، حتى طلع الفجر، وبدت تباشيره فى المشرق. وهبت نسماته عليلة تحمل أنفاس الرياحين فعبت شجرة الدر منها ملء صدرها، ثم استلقت على فراشها، وأغمضت عينيها تستعرض فى خيالها ما ينتظرها فى يومها الجديد من الأحداث الجسام.

وطاب لها نسيم الصباح فأغفت، وما استيقظت إلا على صهيل الخيول فى الخارج، وحركة الخدم فى داخل القصر.

وجاءت إحدى الوصيفات تقول لها:

- وصل مولاى الملك المعز.

فنهضت، ومشت إلى الملك تستقبله مرحبة به. فلما رآها باسمة الثغر، تبادر إلى ذهنه أنها خضعت لمشيئته، وأذعنت للأمر الواقع. فتفاءل خيرا، وقال لها:

جئناك مبكرين، يا أم خليل، لنسأل متى تريدين الانتقال إلى دار الوزارة.

فأجابت من غير أن يختلج فى وجهها عصب:

ساعة يأمر الملك.. غدا أو بعد غد، فنحن فى ظله كيفما توجهنا.

فاطمأن إلى أن قصر القلعة سيخلو له وحده. فصرف حاشيته وجلس قائلا:

- هذا يوم من أيام الراحة، يا أم خليل، حقا أن الملك حمل يرهق الرجال ويهد الجبال فدنت منه مستأنسة، وراحت تلاطفه قائلة:

- من كان مثلك لا يخشى التعب، أيها الملك، فالبلاد أمانة فى عنقك. وأمانها مرهون بهمتك. فأعمل بما يوحيه وجدانك، ولا تخشى فى الحق لومة لائم.

وسره تشجيعها بعد تلك المشادة العنيفة التى حدثت بينه وبينها، فأجابها قائلا:

إننا نلجأ دائما إلى مشورتك، يا أم خليل، ونسترشد بأصالة رأيك، فأنت السيدة الأولى فى هذه الدولة، مهما تختلف الأمور وتتبدل الأحوال.

فأدركت أنه يحاول أن يفهمها الحدود التى يجب أن تعمل فيها. فهى السيدة العجوز المحاطة بنطاق من الاحترام.. تبدى رأيها إذا استشيرت، وليس لها أن تتدخل فى شئون الدولة، فقالت:

- حسبى أن أقدم للملك ما وهبنى الله من الخبرة فى معالجة شئون الحياة.

فنزع سيفه، وخلع عمامته، وهو يقول:

ـ والله إنى لا أجد الراحة والطمأنينة إلا فى جوارك، يا أم خليل، فهل تأمرين بإعداد الحمام؟ لقد وعدت نفسى بالراحة التامة طوال هذا النهار.

فأجابت على الفور:

ـ حبا وكرامة!

وصاحت بإحدى وصيفاتها:

ـ أعدوا الحمام للملك. وتأكدوا من أن الماء ساخن والمناشف جاهزة. وتظاهرت بالاهتمام الكبير، فيما كان أيبك يدخل حجرته ليخلع ثيابه.

وما كاد المعز «أيبك» يدخل الحمام، حتى استدعت شجرة الدر مرجانا وقالت له:

ـ أين أعوانك يا مرجان؟

ـ هنا فى الرواق، ينتظرون إشارتك.

ـ هذه ساعتك.. فأيبك فى الحمام. ادخلوا عليه، واضربوه حتى يموت.

فغاب مرجان لحظة، ثم عاد مع رفقائه وكل منهم يحمل هراوة من الحديد. فأشارت شجرة الدر إلى الحمام قائلة:

ـ بادروا إلى العمل، وإياكم أن تتركوه قبل أن يلفظ أنفاسه!

وفوجىء أيبك بالغلمان ينهالون عليه ضربا، فأرسل صيحتين، ثم سقط غائبا عن الصواب.. وما أنفك مرجان ورفقاؤه يضربونه حتى حطموا رأسه وقضوا عليه!!

* * *

بين اليأس والأمل!

استطاعت شجرة الدر أن تحيط ما فعلته بالكتمان طوال ذلك النهار.. وفى صباح اليوم التالى تسرب الخبر إلى خارج القصر، فكان دويه مجلجلا بعيد الأصداء.

نادى المنادى:

مات الملك المعز!

فوقف الناس واجمين، بين متسائل وحائر. وكثر اللغط، وتضاربت الآراء، وكثرت الظنون..

ولم تفقد شجرة الدر رباطة جأشها، فاستدعت بيبرس لتجلسه على العرش وتحتمى به، فقيل لها أنه سافر إلى بغداد. ولجأت إلى سواه من المماليك، وعهدها بهم لا يرفضون لها أمرا، فأعرضوا عنها تحت وطأة الذهول الذى أصابهم.

وفى هذه الغمرة من القلق والاضطراب انقسم المماليك قسمين: أحدهما اتهم شجرة الدر باغتيال عز الدين، وحاول الآخر الدفاع عنها لاعتقاده أنها بريئة.

قال الناطق بلسان الفريق الأول:

«لا ضمان لاستقرارنا إلا بالقضاء على هذه المرأة، فهى مجرمة حقود، تسفك الدماء لتظل قابضة على زمام الحكم، فلابد من معاقبتها للتحرر من أحقادها، وإنقاذ البلاد من مؤامرتها».

وقال الفريق الآخر:

«أنسيتم أنها قهرت الصليبيين، وملأت خزينة الدولة ذهبا، وكافأت المجاهدين الأبطال، وتصدقت على الفقراء؟! ألا تذكرون أنها صاحبة الملك الصالح الأمينة، وأم ولده خليل، والملكة التى عززت الجيش، ورفعت شأن الأمراء، وأشاعت الأمن والطمأنينة فى الرعية؟!».

واحتدمت المناقشة بين الجانبين وقتا غير يسير، فكانت الغلبة لمناصرى الملك القتيل أيبك. وفيما كانت شجرة الدر تتسقط الأخبار وقد استولى عليها الرعب للمرة الأولى فى حياتها، جاء أحد غلمانها يقول لها باكيا من شدة الخوف:

- مولاتى! المماليك ناقمون علينا.. رأيتهم يرفعون قبضاتهم صوب القصر متوعدين. وسمعت أحدهم يزمجر: «الويل لشجرة الدر! الويل للقاتلة!».

فوجمت برهة، ثم ارتعدت وكادت تعجز عن النهوض. إلا أنها استجمعت قواها على الرغم من يقينها أنها هالكة لا محالة، وصممت على الدفاع عن نفسها حتى الرمق الأخير.

وانتشر الخبر فى القاهرة بسرعة البرق: «شجرة الدر قتلت الملك المعز غدرا!» فانتقلت نقمة المماليك إلى عامة الشعب، وارتفعت الأصوات فى الشوارع والساحات تصيح:

الموت للقاتلة!

وبلغت هذه الصيحات أسماع سكان القصر، فهرعت شجرة الدر إلى جمع ما استطاعت من الذهب والجواهر، ثم تسللت من القصر إلى القلعة، واعتصمت بالبرج الأحمر، وكان ذلك فى العام ١٢٥٧م.

وما هى إلا ساعة، حتى ركب المماليك وجاءوا يحاصرون القاتلة فى معقلها الأخير. غير أنهم ظلوا فى حملتهم تلك منقسمين: منهم من يريد البطش بشجرة الدر بلا هوادة، ومنهم من يطالب بإقصائها عن الحكم والمحافظة على كرامتها، بالنظر إلى خدماتها السابقة، وما أسدت إلى البلاد من معروف لا ينكره أحد.

ولم يكن خلاف المماليك سرا فتناقل الناس أخباره، وانقسموا بدورهم حزبين: أحدهما يناصر القاتلة، والآخر يطالب بالاقتصاص منها. ولما علمت شجرة الدر بما يحدث حولها تشجعت. وتجدد الأمل فى نفسها، فأرسلت أحد رجال الحرس يقول للمماليك:

ـ أم خليل تذكركم بأنها ما جلست على العرش إلا بإرادتكم، وتلبية لرغبتكم، ولما صدر أمر الخليفة بتولية ملك عوضا عنها خلعت نفسها مختارة غير مجبرة لتجنبكم التفرقة والاقتتال، وها هى مستعدة الآن أن تذعن لمشيئتكم إذا حقنتم دمها، وصنتم حرمتها من الامتهان.

فأجاب أحدهم:

ـ لتخرج حالا من البرج الأحمر، ولتخاطبنا وجها لوجه من وراء النقاب، لنعرف كيف مات الملك المعز، ومن قتله، وما هى أسباب اغتياله.

وخشى أحد خصوم الملكة الألداء أن تؤثر فى قلوب المماليك وعقولهم، أن هى ظهرت عليهم ـ شأنها فى مختلف الأزمات والمواقف العصيبة ـ فاعترض صائحا:

ـ لا نريد أن نرى للقاتلة وجها، ولا نسمع لها صوتا، فهى عدوة الدين والوطن.. وما عقاب القاتل إلا الموت!

وامتشق سيفه محاولا الهجوم.

واقتدى به بعض رفقائه المتحمسين، فإذا بعشرات من رجال الحرس يتأهبون للقتال، وكان خلفهم الخدم والغلمان يحملون الرماح، والعصى، والهروات، فقال قائل:

- علام الاقتتال، أيها القوم؟ أما أرسلت هذه المرأة تقول لكم أإنها مستعدة أن تنزل عند رغبتكم؟ امنحونا متسعا من الوقت لنتدبر هذا الأمر بالتى هى أحسن، فلا فائدة من تناحر الاخوان!

واقتنع المتحمسون بوجاهة هذا الرأى، فانكفأوا مشترطين أن يعاقب القتلة إذا كانت هناك جريمة قتل. وساد نوع من الهدوء، وكل من الجانبين فى موقف الترقب والاستعداد.

وأحست شجرة الدر أن الكابوس الرهيب بدأ يرتفع عن رأسها، فتنفست الصعداء. خيل إليها أنها قد نجت من الموت. وهذا أقصى ما كانت تصبو إليه. وهى الداهية المحنكة فى معالجة الرجال، وتكييف آرائهم واكتساب مودتهم وولائهم.

* * *

إنتقام أم على..!!

يوم اشترطت شجرة الدر على عز الدين أيبك أن يطلق زوجته الأولى لتعقد عليه، لم يخطر فى بالها إنها أقدمت على عمل من شأنه أن يوردها مورد الهلاك. فقد جلبت على نفسها عداوة امرأة لا تقل عنها حزما وصلابة وقوة إرادة!

ولو اقتصر الأمر على الطلاق، لكان من المحتمل أن تواجه الزوجة الطالق نصيبها بشىء من التساهل والاذعان لمشيئة القدر.. ولكنها اصيبت فى اعمق عواطفها وارهفها شعوراً. ألا وهى عاطفة الأمومة: إذا اضطر أيبك إلى اقصاء ولدها القاصر، علىّ، عن العرش ليرضى شجرة الدر التى كانت صاحبة السلطان.

وأقامت أم على زمناً طويلا تخفى غيظها وتغذى حقدها فى العزلة والظلام، ولا يدرى بها أحد، حتى إذا اغتيل الملك المعز، أدركت أن ساعتها قد أزفت، وبرزت تطالب بالانتقام للدم المهدور غدرا وعدوانا.

يومذاك وقفت تخاطب المماليك سافرة الوجه، لامعة العينين، متوترة الأعصاب. وانطلقت الكلمات من بين شفتيها كالنار المحرقة. فأثارت الخواطر، وألهبت النفوس.

وفى ساحة القلعة، حيث كانت شجرة الدر تستطيع أن تسمعها لو أنصتت إليها بانتباه، خاطبت أم على المماليك قائلة:

ـ ويحكم، ماذا تنتظرون؟ أترجون رحمة لأبنائكم من تلك التى لم ترحم ولدى عليا، وهو صبى طاهر القلب، لم يسىء إليها بشىء؟ أتتوقعون رأفة بعيالكم من تلك التى سلخت زوجى عنى لتستأثر به خادما لأغراضها، وأداة لطموحها.. ولما حاول التحرر من قيود الذل التى كبلته بها، استباحت دمه، وقتلته غدرا فى الحمام؟! أين أنتم، يا أبطال البلاد، ويا حماة الديار! أتخدعكم مجرمة دامية اليدين، وأنتم فى تخاذلكم سادرون؟ أتستبد بكم امرأة فاسدة الخلال، وأنتم لطغيانها خاضعون؟ أين إباء الرجولة فيكم، أين العزة، أين الكرامة، أين الشرف؟

وكان المماليك يسمعون وقد استولت عليهم الدهشة، واستيقظت فى نفوسهم النقمة الراقدة، ثم ارتفع منهم صوت يقول:

ـ لبيك يا أم على!، فوالله لن تعود السيوف إلى إغمادها إلا بعد أن تدفع شجرة الدر من دمها ثمن الدم المسفوح غدرا.

وماج الرجال كأن موجة عارمة من الغيظ قد عصفت بهم فامتشقوا السيوف، ورفعوا الرماح، وانطلق صوت أم على مزغردا:

يالثارات الملك المعز!

وارتعدت شجرة الدر رعبا من تبدل الأحوال بمثل تلك السرعة المذهلة، وحل اليأس فى نفسها محل الأمل، وبخاصة حين رأت حرسها وخدمها يتفرقون تفاديا للإصطدام بالمماليك، وسمعت أحد الهاجمين يصيح:

ـ اضرموا النار فى البرج الأحمر! دونكم المشاعل، أيها الرجال!

انقض مرجان على المماليك مستبسلا، فتلقفته السيوف، وأخذته الرماح...

ورأته شجرة الدر يسقط صريعا، فغمرها الأسى، وكادت تخنقها الدموع، فأطلت

من ثغرة عالية فى البرج وصاحت:

- أغمدوا السيوف، أيها الرجال، فأنى مستسلمة.. احقنوا الدماء، وأنا بين أيديكم، فأفعلوا بى ما تشاؤن.

وخرجت إليهم رافعة الرأس تحت حجابها الكثيف، فأحاطوا بها، واقتادوها إلى السجن. ولم يلقوا السلاح إلا بعد أن أوصدوا دونها أبواب الحديد!!

قبعت سلطانة الأمس فى ظلمة الانفراد تستعرض ماضيها، وتحاول معرفة ما يخبئه لها الغد، وتتلقى من تقلبات القدر أمثلة وعبرة، وكانت تسمع صوتا يهمس فى أذنها، وكأنه خارج من أعماق الأرض، أو هابط من أعالى السماء: «الدم يستسقى الدم!» فارتعدت مفاصلها، وبكت.

انحدرت الدموع على خديها هادئة، بطيئة فى صمت مهيب فما كفكفتها، بل طاب لها أن تتألم وهالها أن تفقد قواها أمام الموت، فاستجمعت رباطة جأشها مصممة على أن تكون مثال الشجاعة والصمود فى اليوم العصيب.

أما أم على، فما اكتفت بما حل بعدوتها من الهوان، بل عملت على تعذيبها والتنكيل بها.

وكانت الأنظار قد اتجهت إلى الناصر على بن عز الدين أيبك، فتفاوض المماليك بشأنه أياما، ثم أجمعوا على تنصيبه ملكا على عرش أبيه، فأشدت شوكة أم على، واتسع نفوذها، وأصبحت صاحبة الرأى السائد والكلمة المسموعة. وتسنى لها أن تصب غضبها ونقمتها على شجرة الدر.

لقد أرسلت إليها الغلمان يجلدونها بالسياط صباح مساء. ويكيلون لها الشتائم والإهانات، والصفع واللكم بلا حساب، فما شكت هذه ولا استغاثت.. ولم تستطع أم على أن تروى غليلها بسماع نحيبها، أو صيحة واحدة من صيحات الآلم ينتزعها منها التعذيب.

وكانت الجماهير قد بدأت تهتف للناصر على، وتتوسم فيه ملكا عادلا يخرج بالبلاد من الأزمة التى تتخبط فيها، إلا أن أمه أبت إلا أن يبدأ عهده بسفك الدم

انتقاما لأبيه، فخلت به وقالت له:

ـ أتدرى، يا ولدى، كيف مات أبوك؟

ـ أما اغتالته شجرة الدر؟

ـ بلى! ولكن كيف؟! أرسلت إليه الغلمان يضربونه بالهراوات فى الحمام حتى لفظ أنفاسه، وهو البطل المغوار الذى دوخ الجيوش فى الميادين.. والله يا بنى، لو هلك أبوك فى المعركة تحت سنابل الخيل، لما آلمنى موته، أما أن يفتك به الغلمان غدرا، بأمر هذه المجرمة فهذا مالا يطاق أبدا..

وكان الناصر على هادى الطبع، ميالا إلى المسالمة والتسامح، على الرغم من حداثة سنه. ولكنه تأثر بكلام أمه، وأثارت غضبه الطريقة التى اغتيل بها أبوه فقال:

ـ لقد نالت الغادرة جزاء غدرها.. ها هى فى السجن تنتظر مواجهة ربها. والويل لها من يوم الدين.

فصفقت أم على كفا بكف وقالت متباكية:

ـ أتترك دم أبيك للقدر، يا ولدى، وأنت تتأهب للجلوس على العرش؟ وماذا يقول الناس فيك حين تصبح ملكا وشجرة الدر حية ترزق؟ ألا يقولون: هذا الذى قتل أباه نفر من الغلمان، تنفيذا لأمر مجرمة حاقدة؟ أما إذا قتلتها فإنك تغسل بدمها عارك، وعارنا جميعا، وعار البلاد! رحم الله أباك!

ـ إنه ما أغمض يوما على قذى، ولا نام على ضيم، أنت أبنه ووريثه، ودمه أمانة فى عنقك، لهفى عليك، ولدى، كيف يطيب لك النوم، وقاتلة أبيك تنعم بالحياة، بل كيف تستطيع أن تنظر إلى وجوه الناس قبل أن تسحق هذه الغادرة سحقا. أذهب إلى السجن فورا وأخمد أنفاسها وإلا سبقتك أنا إلى القيام بهذا الواجب، وتركتك تعيش نادما، تنهش قلبك الحسرة إلى ما شاء الله!

فنهض على متثاقلا، وأطرق مفكرا، ثم قال:

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا قوة إلا بالله العلى العظيم!

ومضى إلى السجن وهو غير واثق بأن أمه على صواب. لما وقع نظره على شجرة الدر، وهى فى إسمالها البالية صفراء الوجه، دامعة العينين، مقرحة الجفون، استل سيفه ودنا منها على مهل، فراحت تحدق إليه بلا وجل..

كانت محتبية على حضيض الزنزانة الرطب، المكسو بالأوساخ، فما تحركت، ولا طرف لها جفن.

وتردد على مرتبكا لا يدرى ما يفعل.. فخاطبته شجرة الدر برفق قائلة:

ـ أضرب، يا على! اضرب ولا تخف. فأنا قاتلة أبيك.

ـ أتفاخرين بالإجرام، يا أم خليل؟

فانتفضت لسماعها الاسم الذى يذكرها بقدسية الأمومة، ثم قالت:

ـ لا أفاخر يا على، بل أنا نادمة، ومن واجبك أن تضربنى بهذا السيف الذى فى يدك، وإلا فما أنت برجل!!

ـ أتقتلين وتحرضين على القتل؟!

فأجابت بصوت ينم عن التوسل:

ـ لا أحرضك على القتل، يا على، بل أشجعك على معاقبة قاتلة لم ترع لأبيك حرمة.

فخرج من الزنزانة وصاح بأحد رجال الحرس:

ـ اكفنى شر هذه المرأة! فوالله إن لم تقتلها فى هذه الساعة ضربت عنقك.

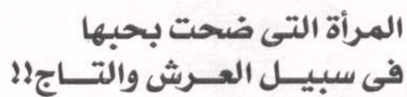
ومشى على فى ساحة السجن الداخلية بخطى بطيئة، فما كاد يبلغ الباب حتى هرول الحارس يقول له:

ـ ماتت شجرة الدر. يا مولاى، قتلها.........

فقاطعه على مزمجرا:

كفى! لا أريد أن أعلم كيف ماتت، ولا من قتلها..


كاترين هوارد


المرأة التى ضحت بحبها
فى سبيل العرش والتاج!!



لو لم يعشق الملك هنرى الثامن كاترين هوارد ويتزوجها وتصبح ملكة انجلترا، فهل كانت تختتم حياتها بالذهاب إلى المقصلة؟!

لقد ضحت بحبها وحبيبها الأول فى سبيل العرش والتاج، ولكنها فى النهاية صارت ضحية العرش والتاج وساقها حب المجد ودسائس البلاط إلى الإعدام..

تلك مأساة مؤثرة من مآسى الحب والمجد تتضمنها قصة كاترين هوارد زوجة هنرى الثامن ملك انجلترا..!!

كاترين الصغيرة!

أقبل الليل، وأضاء قصر نور فولك القديم. وزاط بالذين فيه من ضيوف، ثم أخذت الأنوار تنطفىء شيئا فشيئا حتى عم القصر الظلام. ذلك لأن ربة القصر العجوز أوت إلى فراشها، ولم تكن ترى أنه يجوز لضيوفها أن يجتمعوا فى غير حضرتها. أو وهى نائمة. كانت تحرص عليهم وهم سلالة الأسر الكبيرة، من الأقرباء والأصدقاء من فتيان وفتيات، أن يجرى بينهم مالا يتفق وآداب السلوك. ولكن كان للفتيان والفتيات رأى آخر. فلم تكد تنام ربة الدار حتى عادت الأضواء إلى ما كانت عليه من سطوع، وانتظم عقد الاجتماع الذى كان قد انفرط، وعاد السمر والضحك إلى ساعات متأخرة من الليل.

كانت لصاحبة القصر ميول وأراء غريبة، فهى عجوز لا تقوى على الخروج، ومن أجل ذلك أحاطت نفسها بطائفة من الطير تغرد فى أقفاصها، وفتحت أبواب قصرها للأحداث، لكى يخيل إليها أنها فى حديقة بين أشجار تزقزق على أغصانها العصافير، ولكى تسمع أصوات الأحداث ترتفع فى قاعات القصر فيذكرها ذلك بأيام الشباب!!

وهى تلح أحيانا على بعض أولئك الفتيان والفتيات بالبقاء فى ضيافتها طيلة أيام السنة، كيلا تحرم من مظاهر المرح والابتهاج، حتى بدا القصر القديم وكأنه مدرسة من مدارس الأحداث، فقدت فيه المديرة كل سلطة، وراح التلاميذ والتلميذات يطلقون لطباعهم العنان..!

وخصصت إحدى القاعات للأطفال الصغار، والقاعات الأخرى لبقية الضيوف حسب الأعمار.

وفى هذا القصر كانت تقيم كاترين ابنة سير أدموند هوارد.. وسير «أدموند» هو أخو لورد نورفولك لوالدته، وهو صاحب ذلك القصر الذى يستضيف الفتيان والفتيات.

كانت كاترين فقيرة ولم تكن لأسرتها ثروة تذكر على الرغم من اسمها العريض، وليس أمامها ما يبشر بمستقبل باهر، بين تلك الشبيبة المرحة، تعد من ألطف الفتيات، وأكثرهن تفننا فى ابتكار أساليب اللعب والتسلية.

إنها مرهفة الإحساس، سريعة الخاطر، جميلة الطلعة، براقة العينين، حريرية الشعر، تنبعث منها جاذبية تأسر القلوب والأنظار إنها فى الخامسة عشرة، لا تزين عنقها بعقود ولا أصابعها بخواتم، وقد أغناها عن ذلك شبابها وجمالها، كانت كاترين الصغيرة، زينة قصر نورفولك.

ووجدت كاترين هوارد فى تلك الزمرة المختلطة من يميل إليها خاصا. كان شابا يدعى فرانسوا ديرهام، من أقارب أسرة نورفولك. وهو فقير مثلها لا ثروة عنده، ولا يهتم بالبحث عن الثروة، وكانا يأخذان نصيبهما كاملا من ضيافة الدوقة صاحبة القصر، التى كانت تظهر عطفا خاصا على فرانسوا، لأنه خفيف الروح حلو الحديث..

ويقص فرانسوا ديرهام، فى أثناء الولائم الليلية، على رفاقه ورفيقاته طائفة من النوادر التى تثير الضحك. وهو يشرف على إدارة الألعاب. وابتكار وسائل التسلية، بكثير من المهارة. ويضع برامج الرحلات فى ضواحى القصر، وينظم الحفلات والأعياد، ويلقى على الفتيان والفتيات دروسا فى الحب بحضور الدوقة نفسها، إذ كان سمعها ضعيفا، فلم تكن تفهم تماما ما يقوله ذلك الفتى المهذار لرفاقه ورفيقاته، وإنما تضحك لأنها تراهم يضحكون!!

وكانت كاترين تفخر بأن فرانسوا ديرهام يفضلها على سواها من الفتيات. فهى دائما تجلس إلى جانبه. وهو دائما يعنى بالسهر على راحتها، ويقدم إليها قبل غيرها، أطيب ما تصل إليه يده من طعام وشراب وحلوى.

أثارت مكانة ديرهام الممتازة لدى رفاقه ورفيقاته كوامن الحسد فى نفس خصمه وغريمه «مانوكس» الذى كان على خلاف مع كاترين قبل ذلك الوقت بسنتين، بسبب عمل غير لائق أقدم عليه، فقد كلف مانوكس هذا بالتدريس للفتاة وهى فى الثالثة عشرة من العمر. وبدأ القيام بمهمته فى قصر نورفولك، فجعل يأتى بحركات منافية لأدب السلوك، فيلصق وجهه بوجه تلميذته وهو يقرأ لها دروسها، وحدث يوما أن هم بتقبيلها، فصاحت مذعورة. وأقبلت الدوقة فشاهدت ما حدث، ورأت المعلم يواصل محاولاته لتقبيل الفتاة، فاعتقدت أن الاثنين مذنبان، وصفعت الفتاة على وجهها وطردت المعلم.

غير أن مانوكس تمكن، فيما بعد، من العودة إلى القصر والحصول ثانية على رضا الدوقة، ورأى ديرهام ينال الحظوة، لدى كاترين الجميلة، ويصادف نجاحا حيث فشل هو، فحنق عليه.

وزاد حقده على الأيام، وبلغ به الحسد أن وضع ذات يوم ورقة على مكتب الدوقة، ينبئها فيها بأن فرانسوا ديرهام، وكاترين هوارد يتجاوزان فى علاقتهما حدود الصداقة واللياقة.

وفى اليوم التالى، تسللت الدوقة إلى حجرة كانا بها ففاجأت الشاب والفتاة وهما على شك قبلة، فانهالت عليهما بعصاها وضربتهما ضربا مؤلما.

صاحت كاترين: «إننا عازمان على الزواج!»

وصاح ديرهام: «لقد تعاهدنا على ذلك!»

وكان ذلك صحيحا.. ولكن الدوقة لم تفهم هذه اللغة، ولم تقتنع بصيحات الشابين، فظلت تنهال عليهما ضربا... وفر الشاب من القصر!

تشاور الدوق والدوقة فى الأمر، ورأيا أن طرد الفتاة «كاترين» من القصر أصبح أمرا لا مفر منه، ولكن يجب ألا يشاع خبر ما حدث، ولا الأسباب التى أدت إلى الطرد.

وأرسلت الفتاة إلى «لامبت» لكى تتدرب هناك على يد إخصائيين، توطئة لتقديمها إلى القصر الملكى وصيفة أو فتاة من فتيات التشريفات.

وفى لامبت، التقت كاترين بشاب من أقاربها، هو ابن خالها توماس كولبيبر، وكان جميلا، أنيقا، من ذلك الفريق من الشبان الذين يأسرون قلوب الفتيات.

وقد أعجبها ابن خالها هذا. فما مضت أيام حتى كانت العلاقات بين الشابين قد توثقت، وصار الشاب يكثر من التحبب إلى ابنة عمته، ويبعث إليها بباقات الأزهار، ويخرج معها للتنزه فى الغابات، وتبين لكل منهما أن أذواقهما وميولهما متفقة، وظنا أن رأيهما فى الحياة واحد. ذلك لأنهما كانا يفكران بإحساسهما لا بعقلهما!

أصبح توماس كولبيبر مغرما بابنة عمته كاترين هوارد، ونسيت الفتاة حبيبها

الأول ديرهام. وأصبحت لا تعيش إلا من أجل الشاب الذى تناديه «يا حبيبى توم» وتخيل العاشقان نفسيهما مرتبطين برابطة لا تنفصم، وراحا يتذوقان سعادة الحب البرىء، وظلت كاترين متيقظة، كيلا يحدث لها ما حدث مع ديرهام فى قصر نورفولك بسبب ضعفها!

* * *

ورد بلا أشواك!

لكن الأقدار قضت بتفريق الحبيبين، فقد دعى توم إلى لندن، ليلتحق بالقصر مع الشبان الملحقين بخدمة الملك هنرى الثامن، وكان مقدرا لكاترين أن تصبح إحدى الفتيات الملحقات بخدمة الملكة.

سألت كاترين صديقها مرة:

ـ أصحيح أن الملك هنرى الثامن لا يؤمن جانبه؟

ـ كلا إنه غريب الأطوار، ومن الصعب إدراك ما يريد. غير أنه فى معظم الأحيان لطيف العشرة، رقيق الشعور، وهو واسع الإطلاع، يحب الفنون الجميلة، والطعام اللذيذ، والفلسفة، وعلم اللاهوت، إنه من أكثر الناس إطلاعا فى مملكته.

ـ وكيف يكون؟

ـ هو مارد جبار، هو جبل من اللحم، له بطن بارز، ومعدة ضخمة، وكتفان عريضتان، ووجه ينبت فيه شعر أحمر، وشاربان كثيفان، ولحية غزيرة، وعينان صغيرتان، إحداهما مفتوحة دائما، والأخرى نصف مغمضة، أما الآن، وهو فى الخمسين، فليس له ما كان من قوة فى شبابه!

ـ وطباعه؟

ـ إنه هوائى متقلب يا حبيبتى، طيب وشرس، فى آن واحد.. لا يطيق معارضة لحكمه، ويبعث بمعارضيه إلى برج لندن كلما أفضوا برأى لا يتفق مع آرائه. لكنه وديع عندما يريد أن يكون وديعا، وهو يتظاهر بتلك الوداعة سترا لطبعه أحيانا.

ـ أهو رجل سوء؟

ـ لا يمكن الجزم بذلك، فهو يستطيع أن يقدم على عمل صالح، وأن يكون طيب القلب. إنه قادر على كل شيء.. إنه لا يخاف القانون أبدا.. ولكنه يقضى على وزرائه بالإعدام. إذا رفضوا أن يسنوا له قانونا خاصا، يكون فى حاجة إليه لتبرير عمل من الأعمال التى ينتويها.

ـ والملكة يا توم، كيف تكون؟ تلك الملكة التى سأدخل فى خدمتها؟

ـ هل رأيت فرسا عجوزا هزيلة؟ هذه صورتها!.. إنها قبيحة المنظر، هذه الزوجة التى جاءت من شواطىء نهر الراين، وهى فى الرابعة والثلاثين من العمر.. أقرب إلى الرجل منها إلى المرأة.. وعندما وقع نظر الملك عليها للمرة الأولى، اتضح له أنها قبيحة- إلى درجة جعلته يعدل عن النظر إليها، وينصرف حاملا معه رداء الفراء الذى كان عازما على تقديمه لها هدية منه. غير أن السياسة كانت تقضى عليه بمسايرتها.. ولكنه ـ مع هذا ـ يجتهد دائما فى أن يظل بعيدا عنها بقدر ما يستطيع.. ووزيره كرومويل، الذى مهد السبيل لهذا الزواج، ضائق منزعج، لأن الملك لا يعدل عن كرهه للملكة، ولا عن حنقه على وزيره.

ـ يا ألهى!.. إننا ذاهبان يا عزيزى توم إلى ذلك القصر، أنت لكى تخدم رجلا ضخما مخيفا، وأنا لكى أخدم امرأة هزيلة متوجة!

فقال لها الشاب بصوت عذب متهدج:

ـ ألا تظنين يا حبيبتى أن ذلك يدعونا إلى توثيق علاقاتنا.

* * *

أقام رئيس أساقفة ونشستر وليمة للملك هنرى الثامن، فتكدست على الموائد أكوام الطعام أشكالا وألوانا، وراح المدعوون يلتهمون الطيور والأسماك واللحوم والخراف المشوية وعشرات الأصناف فى شراهة ظاهرة، مستعينين بأظافرهم حتى إذا ما احتاجوا إلى تنظيفها، مسحوها بأطراف أغطية المائدة أو بروؤس الكلاب الجائمة حولهم تنتظر نصيبها من المأدبة!!

وتخللت الوليمة ألعاب منوعة، قام بها المهرجون والمغنون والراقصون والعازفون على مختلف الآلات الموسيقية.

وفى صدر القاعة. جلس الملك هنرى الثامن، بجثته الضخمة الهائلة يعبث بلحيته الحمراء، وجلست إلى جانبه الملكة «آنا» وقد أثارت الضحك بين فتيات الحاشية بمظاهر البلاهة البادية عليها.

وفجأة انحنى الملك على توم الواقف بالقرب منه، وسأله مشيرا إلى فتاة من أولئك الفتيات:

ـ من هذه الحسناء؟

وشعر توم بشيء من الفخر، لأن الملك تنازل والتفت إلى حبيبته كاترين، وأجاب:

ـ هى كاترين هوارد يا صاحب الجلالة، ابنة عمتى.. ولم تدخل فى خدمة الملكة إلا منذ أيام معدودة... ولهذا السبب فقط ترونها جلالتكم الليلة للمرة الأولى.

حدق الملك فى الفتاة، ثم أخذ رأسه بين يديه، وأسند مرفقيه إلى المائدة وراح ينعم النظر إلى كاترين الحسناء، فنسى الوليمة، ورئيس الأساقفة، والملكة، ولم يعد يرى حوله غير تلك الفتاة التى أسرت لبه للنظرة الأولى.. وأخيرا تمتم قائلا: «إنها تعجبنى!!».

* * *

جعل الملك هنرى الثامن يهتم بأمر كاترين هوارد ويسميها: «وردة بلا أشواك!».

كان قد تزوج كاترين داراجون، المرأة ذات العينين الغليظتين، ثم آنابولين النحيفة الدساسة، ثم جان سيمور الفاترة، وأخيرا آنا دى كليف القبيحة ـ بعد ذلك كله ـ كان الملك هنرى فى حاجة إلى التمتع بنضارة الشباب!

وما أدرك المحيطون به فى القصر أن الملك يميل إلى كاترين هوارد حتى انقسموا حزبين: حزبا يؤيدها ويتحبب إليها، وحزبا يحسدها ويحاربها فى الخفاء!

أما كاترين فإنها قلقت من تودد الملك إليها، ومن كثرة الهدايا التى كانت تتلقاها منه، وخشيت مغبة ذلك، وبالرغم مما شعرت به من سرور داخلى، لاهتمام الملك بها إلى هذا الحد!

إن المرأة إذا استرعت أنظار الملك، كان من الغباوة أن تقاوم، وأن ترفض أسرتها ذلك الشرف العظيم، الذى يقدمه عليها الجالس على العرش. ولو فعلت ذلك، لانقلب عليها الأهل والأصدقاء.

وما أسهل أن نتصور الحالة النفسية التى كانت عليها كاترين هوارد، فهى إذا حاولت التهرب بسبب وفائها لحبيبها توم، نقم عليها جميع أفراد اسرة هوارد وأنكروها.

ومنذ أدرك الناس ميل الملك إليها، جعل اللوردات والأشراف يحنون رؤوسهم أمامها، وسيدات المملكة الكبيرات يقابلنها بابتسامة وترحاب، ويسعين إليها ويتوددون ويتزلفن! وخيل إليها أنها أصبحت بين عشية وضحاها شخصية عظيمة فى الدولة!

وشعر توم، ثم رأى، أن الفتاة تبتعد عنه، شيئا فشيئا، لكى تصعد عاليا، ورضى بالأمر الواقع، لأنه أدرك أن مخاصمة الملك ومزاحمته فوق طاقته! فكيف السبيل إلى مقاومة من بيده المال، ومن يتحكم فى رقاب العباد!!

كان الملك هنرى الثامن قد تزوج «آنا كليف» فى السادس من يناير ١٥٤٠، وكرهها منذ اليوم الأول، فهى لا تحسن اللغة، وقد أخطأ الملك فى عقد زواجه قبل أن يرى التى اختارها ملكة جديدة، إنها لا تفقه شيئا، لا تغنى، ولا تعزف الموسيقى، ولا ترقص، ولا تلعب، ولا تتحدث.. إنها غبية بلهاء!

نقم الملك على وزيره كرومويل، وجعل يتحين الفرص لإرساله إلى برج لندن، توطئة لإعدامه، لأنه خدعه، وبعد مرور بضعة أشهر على ذلك الزواج قرر الملك أن يفسخ العقد. وسوف يكون هذا سهلا على رئيس الأساقفة الانجليكان، فهو بارع فى هذا النوع من القرارات.

ولكن. على من يقع الاختيار، بعد إلغاء الزواج؟

على كاترين هوارد! ولم لا؟

فبعد ذلك الرهط من النساء اللواتى تزوجهن الملك لأسباب سياسية، لماذا لا يتخذ زوجة أخرى تكون الغادة الهيفاء؟

إن الملك هنرى يحترم القانون! فهو لا يريد أن يتمتع بجمال امرأة، إلا إذا كانت زوجته الشرعية. ولهذا السبب، أراد الملك أن يتخلص من الملكة آنا دى كليف. ولكن كيف يكون ذلك؟

إن إرسال الملكة إلى الجلاد لكى يقطع رأسها، كما فعل الملك بزوجاته السابقات، أمر فى نظره لا يخالف القانون، مادام الحكم قد صدر على أولئك البائسات حسب الأصول المرعية! ولكن اتخاذ خليلة تحل مكان المرأة الخليلة، أمر يتنافى مع العرف ويخالف القانون، والملك لا يقدم عليه!

ولكن كيف يصبح زوجا لتلك الفتاة الصغيرة، وهو الرجل الضخم المشوه، الذى يضطر إلى السير متكئا على عصاه، والذى يزيد سنه عن سنها ثلاثين عاما، والذى يشكو أكثر من عاهة فى جسمه. ولكن لا. ليس فى الأمر مشقة، أليس هو الملك، الذى يحل له كل شىء؟!

ولكن، هل كاترين هوارد جديرة بأن يوضع التاج على رأسها؟

وسأل أهلها من أسرتى نورفولك وهوارد، فأجابوا بأنها مثل الطهر، والعفاف والرقة وطيبة القلب، وأن للملك أن يثق بها ثقة عمياء.

فقال هنرى الثامن:

ـ إذن سأتزوجها!

* * *

فى النعيم!

وفى اليوم الذى فصل فيه رأس الوزير كروميل عن جسده، أصبحت كاترين هوارد ملكة على انجلترا.

وبدأت سلسلة حفلات ورحلات لم يذكر تاريخ بريطانيا مثيلا لها!

الملكة الصغيرة فى نعيم! ويخيل إليها أنها تحلم، وأن الذى حدث لها ليس حقيقة ملموسة، فقد كانت بالأمس فتاة مجهولة، وهاهى ذى اليوم ملكة متوجة. وكانت تخدم آنا دى كليف، ولكنها اليوم تحتل مكانها على العرش!

أما آنا دى كليف، فقد رضيت أن تبتعد عن العرش وأن يفسخ زواجها، وكانت سعيدة بأن ينتهى أمرها بالإبعاد، بدل أن ينتهى مثل سابقاتها، بالذهاب إلى مقصلة الإعدام! فغادرت انجلترا وعادت إلى أسرتها فى ألمانيا.

وشعر الملك بأنه يستعيد شيئا من شبابه، منذ اتخاذه كاترين زوجة له، فهو يذهب إلى الصيد معها، ويركب الخيل، ويقطف الأزهار بيده، ويفعل كل ما يفعله العاشقون من الفتيان!

وعادت إلى الملكة الصغيرة ثقتها بنفسها، فجعلت تبسط سلطانها شيئا فشيئا على زوجها الملك، وفكرت فى أهلها وأقاربها، فجاءت بهم الواحد بعد الآخر إلى القصر، وبدأت باثنين من أشقائها، واثنتين من شقيقاتها، وساعدت توم كولبيبر الذى أصبح صاحب نفوذ وجاه فى حاشية الملك، ثم جاءت بجميع أخواتها وبأبناء عمومتها و........ فملأ أفراد أسرة هوارد القصر الملكى!!

* * *

كاترين «قائد الجيش!!»

كان الأشراف فى مقاطعات الشمال ثائرين على العرش، فزحف الملك بنفسه عليهم لإخضاعهم، وطلبت الملكة أن تصحبه فى تلك الحملة فأجابها إلى رغبتها لأنه لا يرفض لها طلبا.

وبلغ هوس الملك بزوجته الجميلة، أن كان يقول لقواد جيشه: «اصغوا إلى الملكة فهى بعيدة النظر، تدرك ما لا ندركه نحن، فإذا رأت أن خوض المعركة أمر ضرورى، فاخضعوا لرأيها وأصدروا أوامركم إلى الجنود بالهجوم، وإذا رأت أن تمتنعوا عن القتال فامتنعوا عنه!» وهكذا أصبحت الملكة كاترين هوارد «قائد الجيش الأعلى!»

كانت تتجاهل وجود ابن خالها توم مع الجيش، وهو يسير إلى جوار الملك. ولكنها كانت تتبادل معه الرسائل بلا انقطاع، بواسطة الليدى روشفورد، إحدى الوصيفات التى رأت أن مصلحتها تقضى بأداء هذا النوع من الخدمات للملكة.

كانت الملكة ترغب فى إقناع حبيبها توم بأنها لا تنساه، وكانت تود أن تلتقى به على خلوة، ولكنها خشيت العواقب، وجعلت تكتب سرا. غير أن الظروف شاءت، فيما بعد، أن يلتقى الحبيبان القديمان، فضغطت كاترين على يد توم، وأكدت له أنها باقية على حبها، ولكن الأقدار التى رفعتها إلى العرش، تأبى إلا أن يدوم الفراق بين الحبيبين.

بكى توم، وبكت كاترين!

أخذت رأسه بين يديها وقالت:

ـ يجب ألا تحقد على بسبب ما حدث يا توم العزيز.. إنك تمزق قلبى.. إن الملك ليس خالدا.. وقد يجيىء يوم أستطيع فيه أبثك حبى بلا قيد ولا خوف!.. لكننى الآن أطلب من الله أن يطيل عمر الملك!

فأخذ توم يدها وقبلها بحرارة قائلا:

ـ سأنتظر ذلك اليوم متذرعا بالصبر أيتها الحبيبة! سأنتظر مهما يطيل الانتظار.. ولكننى، أنا أيضا، أطلب من الله أن يطيل عمر الملك!

والملك لا يخامره شك فى سلوك الشاب. فهو يدعوه إلى الاشتراك معه ومع الملكة فى ألعابهما وفى الصيد والقنص.. ويشعر كل يوم بأن قواه تشتد وشبابه يزداد نضارة، إنه سعيد! سعيد إلى حد ينسى معه أن يرسل إلى الجلاد الأشخاص الذين استحقوا غضبه من رجال الدولة..

إن هنرى الثامن سعيد حقا!

* * *

كان للملكة كاترين خصوم: إولئك الأشخاص الذين أزعجهم وبدد أحلامهم صعود الفتاة المجهولة على العرش.. أقارب الملكات السابقات.. أصدقاء الوزير كروميل.. رئيس الأساقفة كرانمر، الذى كان يعطف على الملكة السابقة جان سيمور.

وجاء رجل ـ كان من قبل خادما فى قصر نورفولك ـ إلى ذلك الأسقف، وأنبأه بأن سلوك كاترين هوارد، أثناء إقامتها فى ذلك القصر، لم يكن خاليا من الشوائب.

وطرده الأسقف، ولكنه أخذ يفكر فى كيفية استغلال هذا النبأ.

إنه يسهل عليه جدا أن يجعل الملكة تخضع له وتخشى جانبه، إذا ما أدركت أنه مطلع على خفايا ماضيها، وإذا ما أفهمها من ناحيته أن كتمان السر له ثمن!

هل يطلع الملك على ما بلغه بلسان ذلك الخادم؟

كلا؛ أن الملك يحب الملكة، والرجل العاشق لا ينقاد إلى صوت العقل، وفى وسع الملك أن يأمر بالقبض عليه وزجه فى أعماق السجون!

استشار المقربين إليه من أقارب الملكة السابقة، وأصدقاء كرومويل، فنصحوه بأن يطلع الملك على كل شيء. إنهم لا يخشون شرا!.. ولكن الذى يتعرض للخطر هو الذى يتولى إطلاع الملك على السر!

قرر رئيس الأساقفة أن يخاطر ويخبر الملك بما يعلم، وذات يوم، كان هنرى الثامن عائدا من الصيد، اقترب من الدساس ورفع إليه ورقة مطوية، ووضع أصبعيه على شفتيه إشارة إلى أن فى الورقة سرا.. فقد خشى أن يتكلم، وفضل الكتابة إلى الملك.

قرأ هنرى الثامن الرسالة، وهى مليئة بالإشارات الغاضبة وبالتهم الملتوية، فكان أول ما فعله أن ألقى القبض على الأسقف كرانمر وأرسله إلى برج لندن! لكن النميمة كانت قد أثمرت. فإن الملك فقد الراحة منذ ذلك اليوم، وجعل يفكر فى أمره: أتكون الملكة خائنة؟ أيكون العرش هزأة بين الناس، بسبب تلك المرأة الخبيثة؟

أرسل فى طلب كرانمر، فقال الرجل إنه علم بالنبأ الخاص بسلوك الملكة فى قصر نورفولك، فأصغى إلى صوت الواجب واطلع مليكه عليه.

بقى الملك ثلاثة أيام معتكفا فى قصره. ثم بعث من جاء إليه بمانوكس، وديرهام، ودوق نورفولك، وجميع من فى استطاعتهم أن يلقوا نورا على ماض الملكة.

سألهم ليعرف الحقيقة، أصحيح أن الملكة كانت من قبل تعيش عيشة فاسدة؟ أصحيح أنها خدعته؟ أصحيح كل ما يقال له عنها؟

وبدأ التحقيق مع الملكة الصغيرة!

ذهب إليها كرانمر فى العزلة التى فرضها الملك عليها دون أن تدرك لذلك سببا، فاستقبلته مرتاحة مسرورة، على اعتقاد أن ذلك الأسقف ما جاء إليها إلا ليساعدها على ما فيه خيرها.

ولكن، عندما أبلغها الأسقف إنها متهمة بخداع الملك، وبأنها عندما تزوجته لم تكن فى حالة من الطهارة الكاملة، وأنها ارتكبت نحو العرش جرما شنيعا ـ حينذاك

سقطت كاترين هوارد على الأرض خائرة القوى!

وجعل الأسقف يخاتل ويخادع، قائلا لها أنه ما جاء إليها إلا لكى يتولى الدفاع عنها، فعليها إذن أن تقص عليه حياتها، وأن تطلعه على حقيقة ماحدث لها فى الماضى، بلا مواربة ولا كذب، وجعلت المرأة الضعيفة تبكى وتنتحب، مكررة أنها لم ترتكب ذنبا ولا جرما.

ـ منذ أن وقع اختيار الملك على، لم أفعل شيئا أؤاخذ عليه، أقسم لك!

ـ ليس هذا هو السؤال يا ابنتى!.. إن الذى يهمنا هو ما حدث لك فى قصر نورفولك.. لقد دونت أجوبتك على جميع الأسئلة التى وجهتها إليك.. دونتها فى هذه الورقة.. وقعى عليها.. هنا.. وهنا أيضا.. والآن، اضرعى إلى الله لكى يشملك برحمته!

وترك الأسقف الملكة وحدها، منطرحة على الأرض، وقد غطت وجهها بيديها، وتساقطت الدموع من عينيها!

* * *

تربع الملك على عرشه فى قاعة المجلس، وراح يفكر فى الصفح عن «وردته» العزيزة.. ولكنه ملك!..

تداول الملك مع وزرائه. ودخل الأسقف كرانمر وبسط للمجلس المهمة التى قام بها، ثم وضع بين يدى الملك الورقة التى دون فيها الأسئلة والأجوبة.. لقد وقعت الملكة عليها بيدها.. وهى تثبت أن الجريمة وقعت!

حينئذ استولت رعشة على هنرى الثامن، وانهمرت الدموع من عينيه!

وتركه وزرائه وحده فى القاعة.

وانطلقت الألسنة فى التعليق على الحادث:

ـ كيف تمكنوا من تمزيق الحجاب عن الحقيقة؟

ـ إنهم يعرفون بعض ماحدث قبل الزواج، ولكن، من يدرى ماذا حدث بعد الزواج؟

ـ كانت تبدو لنا كالحمل الوديع! من كان يظن إنها مجرمة أثيمة؟

ـ إذا ثبت أنها لم تخدع الملك منذ أصبحت ملكة، فإنها سترسل إلى الدير وتنتهى المسألة عند هذا الحد.

ـ مسكينة.

ـ إنها امرأة فاسدة، يتقمصها شيطان!

أحاط الناس بالدوق، ولكنه امتنع عن الدفاع عن الملكة، وراح يصيح مع الصائحين:

ـ يا لها من خبيثة!.. لقد عشقت سبعة أو ثمانية أشخاص فى قصرى!.. يا للفضيحة.. إن هذه المرأة عار على أسرتنا!.. سمعت الناس يقولون إنها ترمق ابن خالها توم كولبيبر بنظرات لها مغزاها ومعناها.. أراهن أنه، هو أيضا، أحد العاشقين!

وهكذا انصرف عنها الأهل والأصدقاء على السواء:

ـ لا يدافع عنها أحد! إنها لشريرة!

ـ لقد حاولت أن تنتحر فمنعوها من ذلك.

ـ هذا الحادث شديد الوقع على الملك.

ـ أين هى الآن؟

ـ مسجونة فى دير بالقرب من ريشموند، يقوم على حراسها بعض الجنود والنساء.

ـ يقال أن دوقة نورفولك قد اعتقلت مع ابنها وابنتها وتسعة من خدمها. ولكنها أحرقت جميع الأوراق التى عثرت عليها فى حقائق ديرهام، فلم يبق شىء من أدلة الإثبات.

ـ وآخر الأخبار ـ أن توم كولبيبر قد اعتقل أيضا بأمر الملك وزرسل إلى برج لندن.

ـ إذن، رحمة الله عليه!

* * *

فى ديسمبر ١٥٤١م، حوكم ديرهام وكولبيبر أمام محكمة كان دوق نورفولك أحد أعضائها.. وقد أراد أن يثبت أن لا علاقة له بتلك الحوادث.

وحكمت المحكمة على الشابين بالإعدام شنقا. وانزالهما عن المشنقة قبل أن يفقدا الحياة، وتقطع أوصالهما وبقر بطنيهما، وحرق أمعائهما، ثم قطع رأسيهما!!

وعندما أطلع الملك على صورة الحكم. أخذته ثورة من الغضب، فهب واقفا، واستل سيفه، وجعل يصيح:

ـ الكلبة!.. الكلبة!.. سأذبحها بيدى!.. لتعذب!.. لتذق من ألوان العذاب بقدر ما ذاقت من لذة مع عشاقها!..

ثم سقط السيف من يده، وألقى بنفسه على المنضدة وانتحب! ثم استطرد قائلا:

ـ كانت زوجتي.. وردتي.. شريكة حياتي.. لماذا تحط على الأقدار بأثقالها كلما وضعت ثقتي في أحد؟..

أيجب على أن اعمد مرة أخرى إلى القسوة؟.. إنها شابة ضعيفة.. أه.. أنتم المجرمون.. لماذا حركتم هذه الأوحال أمامي؟ لماذ أخذتم مني حبيبتي الصغيرة كاترين؟

ثم هب واقفا من جديد وصاح:

ـ الخيل.. حالا.. الخيل!.. إنني ذاهب!

وخرج من القاعة تاركا وزرائه مذهولين.. وذهب إلى الاسطبل حيث ركب جواده وانطلق يعدو، ووراءه حرسه..

إلى أين؟..

* * *

الساعات الأخيرة!

أقام الملك في عزلة، على مسافة بعيدة من لندن، كيلا يقع نظره على وجوه الأشخاص الذين تولوا كشف الستار عن خيانة زوجته المزعومة.

وواصل القضاة التحقيق مع الملكة، وضيقوا عليها الخناق، فدافعت عن نفسها متوخية قول الحقيقة:

لم تضعف في دفاعها، وكان القضاة يطلعون الملك على مجرى المحاكمة

وتطوراتها.

وفى أواسط يناير ١٥٤٢م، عقد مجلس اللوردات والنواب جلسة واحدة، بعد أن قرر كل من المجلسين على حدة توجيه الاتهام إلى الملكة.

ورفضت كاترين أن تقف أمام تلك الهيئة المؤلفة من اللوردات والنواب، لاستئناف الدفاع عن نفسها، قائلة أنها تترك أمرها تحت رحمة الملك.

لم تفقد الأمل والرجاء، إنها بريئة، إنها لم تكذب، ولم تخدع الملك، ولم ترتكب نحوه آية خيانة، لقد تركت توم منذ أن وقع عليها اختيار الملك، وظلت وفية له.

كان المجلسان ينويان إصدار الحكم بإعدامها. لأن الملك كان يريد ذلك، وقد صدر الحكم بالإعدام. ولم يكن الملك ليستطيع شيئا أمام ذلك الحكم، بموجب نص الدستور.

غير أنه أصدر أمره بالانتظار. وأبدى رغبته فى تأجيل التنفيذ.

كان الملك فريسة عواطف متباينة متلاطمة. أيعدمها؟ أو لا يعدمها؟

قالوا له إنها تنتظر منه العفو. ولكن، هل فى مقدوره أن يعفو؟ كلا! فالقانون لا يخوله هذا الحق. ولو فعل ذلك لجعل العرش هزأة بين الناس، ولكان عمله تشجيعا للكذب والنفاق والتطاول على الملكية!

فقد الملك راحته. وهجر النوم عينيه!

دخل الرسول على الملكة، وقال إنه يحمل أمرا بأخذها إلى لندن.

أدركت كاترين أنها ميتة لا محالة، فثار ثائرها، وجعلت تبكى وتصيح: «لا.... لا....» وقاومت عندما أرادوا أخذها بالقوة.

وفى ٦ فبراير، وصلت إلى برج لندن فانتابتها نوبة من اليأس: لقد جاؤا بحبيبها توم إلى هنا.. لقد قتلوه هنا...!

بالرغم من ذلك كله، لم تيأس كاترين.

فهل يعفو هنرى الثامن عن زوجته البريئة؟!

وفى اليوم التاسع من فبراير، دخل عليها السير جون جاج،الرسول، وقال:

«غدا!......».

حينذاك، طلبت الملكة أن يحملوا إليها النطع لكى تعرف كيف يجب أن تضع عليه رأسها. فجاؤا به، وركعت كاترين على ركبتيها، ووضعت رأسها فى المكان المعين له، وسألت:

ـ أحسن هكذا؟

ـ نعم يا صاحبة الجلالة.. وعلى جلالتك أن تلصقى جبينك بالخشب!

ـ أشكركم.. سأذكر هذه النصيحة!

وفى يوم الاثنين، العاشر من فبراير كانت منصة الإعدام قد نصبت فى حوش القلعة، وحللت بالسواد، سمعت كاترين طول الليل أصوات المطارق، بينما كان النجارون ينصبون معدات الإعدام..

احتشد أعضاء المجلس حول المنصة، وجاء غيرهم أيضا..

من هؤلاء؟.. إن كاترين لا تراهم، ولا يهمها أن تعرف من هم.. إنها تخرج من سجنها فى ثوبها الأسود، هيفاء، تلبس الحداد على نفسها، شاحبة اللون، كأنها لم تعد من سكان هذا العالم، بل من سكان الآخرة..

إنها لا تحقد على أحد، ولا تحمل موجدة على أحد.. لقد نزعت كل أمل ورجاء من نفسها..

ألقت نظرة على المحتشدين حولها، وقالت بصوت خافت:

ـ أقسم مرة أخرى أننى لم أرتكب خيانة تجاه الملك، ولكننى، قبل أن يتخذنى الملك زوجة له بزمن بعيد، كنت أحب توم كولبيبر.. وياليتنى فعلت ما نصحنى ثوم بأن أفعله فى ذلك الوقت، وأن أقول للملك إننى مرتبطة بسواه. فلو فعلت هذا، لما لقيت هذه المنية، ولما مات توم كولبيبر أيضا.. كنت أفضل أن أكون زوجة لتوم، على أن أكون ملكة.. لكن الجميع دفعونى إلى الزواج بالملك، وبهرتنى العظمة.. لقد أخطأت.. وعلى الآن أن أتحمل عواقب خطئى.. وأشد الآلام فى نفسى هو أن توم قد مات بسببى.. ليست خطيئتى أننى خنت هنرى، كلا.. فإننى لم أخنه.. ولكن خطيئتى إننى

!افترقت عن توم.. وأنا مسرعة الآن للقائه.. أيها الإله، ارحمنى!

وصعدت الملكة درجات المقصلة ببطء، فقال لها الجلاد، وهو يركع أمامها عملا بالعادات المألوفة:

ـ أرجو أن تصفحى عنى يا صاحبة الجلالة، على ما أنا قادم عليه!

فأجابت كاترين:

ـ قم بمهمتك، واذكرنى فى صلاتك!

وانحنت على النطع، ووضعت عليه رأسها كما نصحوها بالأمس، فارتفعت الفأس وهبطت، فقطع عنق الملكة بضربة واحدة.

وكانت كاترين هوارد فى العشرين من عمرها!!



كاتريـن الأولـى

عيـن الحـب العميـاء!!



قلما تجد فى تواريخ أصحاب العروش سيرة أدعى إلى الدهشة والاستغراب من سيرة هذه الأمبراطورة الوضيعة الأصل. ويؤخذ من أقوال معاصريها من رجال البلاط الروسى وغيرهم إنها لم تكن على شىء من الجمال، ولكنها تمكنت بدهائها من استخدام ملامحها فاصطادت بشراك غرامها حاكم أكبر امبراطورية فى ذلك الزمان!

ويؤخذ من المصادر التاريخية أن أصل كاترين ليس معروفا بالدقة حتى ولا يعلم لقبها أو تاريخ ميلادها أو مسقط رأسها. وغاية ما وصل إليه الباحثون أنها ولدت على الأرجح فى قرية من قرى أسوج أو بولندا حوالى ١٦٨٥ للميلاد من أبوين فقيرين وكان لها أخوة وأخوات عدة غلب عليهم لقب سكوفرونسكى. أما اسمها الذى عرفت به فيما بعد فقد منحها إياه بطرس الأكبر.

ولما بلغت السابعة عشرة من عمرها دخلت فى خدمة القس كلوك راعى كنيسة مارنبرج. فكانت تقوم بخدمته وتعتنى بأولاده وتنظف بيته وتغسل الثياب وتؤدى جميع الواجبات المطلوبة من خادمة مثلها. واتفق أن الجيوش الروسية كانت تحاصر يومئذ مدينة مارنبرج ولم يعد فى استطاعة قائد الحامية أن يدافع عنها. فعزم أن ينسف حصونها قبل أن يسلمها إلى الأعداء. وخير الأهالى بين الموت داخل المدينة أو الموت بين الأعداء. فاختار القس كلوك الخروج من المدينة وانطلق هو وأهل بيته وخادمته مارتا (كاترين) إلى معسكر الروس وطلبوا الرحمة من قائد الجيش المعاصر. فلما رأى القائد نضارة «مارتا» وملامحها الفاتنة وقعت فى نفسه موقعا حسنا، فأرسل القس وأهل بيته أسرى إلى موسكو واستبقى «مارتا» عنده.

ولم تمر بضعة أيام حتى كسبت مارتا مودة جميع الضباط ورجال الجيش الذين كانت بينهم. فكانوا يأنسون إلى حديثها ويسرون بمسامرتها ويتسابقون إلى اكتساب مرضاتها لدماثة أخلاقها وشدة دهائها.

ومن ذلك الحين بدأ نجم سعدها بالصعود، فلم يمر زمن طويل حتى كثر الحائمون حولها ومعظمهم من ضباط الجيش. فكانت تراضى جميعهم وتستميل قلوبهم ولا تدع لهم مجالا للغيرة أو التحاسد. ويظهر أنها أحبت واحدا منهم حبا مبرحا وولعت به ولعا شديدا. وكان هو أيضا كلفا بها فى أول الأمر ولكنه لم يلبث أن ضجر منها فهجرها ولم يعد يعبأ بها. أما هى فكظمت لوعتها وكتمت ما كان يختلج بفؤادها وقالت فى نفسها إن الزمان هو الطبيب الشافى لى من هذا الحب فلعله لا تمر بضعة أيام حتى اتغلب على عواطفى.

وبعد زمن قصير دخلت فى خدمة منشيكوف صديق الامبراطور الحميم بصفة وصيفة له. ولكن وظيفتها لم تحل دون وقوع مولاها فى شرك غرامها!.. فصار ملازما لها من جميع حركاتها وسكناتها. واضطر مرة أن يسافر إلى مدينة «ويتسبك» بمهمة

سياسية فلم يكد يبتعد عن «مارتا» قليلا حتى شعر بشوق إليها فكتب يستقدمها إليه. فذهبت وأقامت معه إلى حين انقضاء مهمته!!

واتفق بعد عودته إلى موسكو أن زاره الامبراطور بطرس الأكبر فى منزله ودهش لما رآه من دلائل التنظيم والنظافة فى بيته. ويسأله عن سر ذلك. فلم يجبه الوزير بشىء بل أزاح ستارا ظهرت من ورائه «مارتا» لابسة «مريلة» وهى تمسح الغرفة الملاصقة وتنظف زجاج النوافذ، فأثر المشهد فى نفس الامبراطور وطلب من صديقه أن يعرفه بوصيفته!!

إن القلم ليعجز عن وصف المقابلة التى جرت بين الوصيفة والامبراطور فى تلك الساعة، وقد حار بعض المؤرخين فى تعليل ذلك التأثير لأنهم انكروا أن «مارتا» كانت على شىء من الجمال المفرط. على أن عين الحب عمياء ومهما تكن ملامح «مارتا» بسيطة فإنها أثرت فى نفس بطرس الأكبر تأثيرا لم يمحه مرور الزمان بل لزمه حتى آخر دقيقة من حياته.

ولا حاجة إلى القول بأن الامبراطور تمكن من أخذ مارتا التى دعيت كاترين فيما بعد ـ من صديقه الوزير ـ وجعلها فى البلاط. وكان يتفانى فى إظهار حبه لها اكتسابا لمرضاتها ويفعل كل ما يسرها ويغدق عليها المنح والهدايا!! وقد قيل أنه دخل ذات يوم إلى غرفتها فوجدها نائمة، وكان قد جاءها بشىء كثير من الحلى والجواهر هدية لها. فلما استيقظت ورأت ما حولها من تلك المصنوعات تظاهرت بقليل من الإباء وخاطبت الامبراطور بلهجة عتاب لطيفة قائلة: «وهل تحتاج أن ترشونى لتنال حبى يا مولاى؟» فسر الامبراطور من كلامها وزاد قدرها فى عينيه!!

ومما ساعدها على نيل المكانة الرفيعة التى بلغتها فى بلاط الامبراطور أنها كانت دمثة الخلق مع الجميع صبوحة الوجه لا تتصنع فى أعمالها وأقوالها، وقد كانت هى وحدها القادرة على أن تخفف حدة الامبراطور إذا انتابته ثورة الغضب، فكانت تقترب منه وتلقى ذراعيها حول عنقه وتقبله فيهدأ تأثره وتنقلب عبوسته إلى ابتسامة تدل على الرضى والسرور. ويظهر أن رنة صوتها كانت تؤثر فى نفسه فكان يطرب لكل كلمة تقولها!!

هكذا كانت هذه المرأة تزداد رفعة ومقاما فى نظر الامبراطور وفى البلاط كله. فلم تعقد حفلة بدونها ولا كان الامبراطور يسر باجتماع لا تحضر فيه. والحق أن التاريخ يشهد لحكمتها ودهائها فإنها كثيرا ماأبدت النصائح الثمينة لبطرس الأكبر مما كان له أحسن تأثير فى إدارة شئون المملكة.

ويؤخذ من أقوال بعض المؤرخين أن الامبراطور تزوجها سرا وكان يهتم بها كل الاهتمام. فلما خرج سنة ١٧٠٨ من موسكو لينضم إلى جيشه ترك وراءه وصية بخط يده جاء فيها: «إذا شاء الله أن أموت قبل أن أعود إلى عاصمة مملكتى فإننى أوصى لكاترين وابنتها بثلاثة آلاف روبل». وهذه الوصية تدل على أن كاترين كانت قد ولدت للامبراطور أولادا وهو الواقع مع أن زواجهما، لم يكن علنا.. ومهما يكن فإن الامبراطور عزم بعد رجوعه إلى موسكو أن يتزوجها رسميا ففعل ذلك فى سنة ١٧١٢؛

ومنذ ذلك اليوم بدأت سلسلة حفلات وولائم قلما شهد البلاط الروسى أفخم منها وأبهى. ولم يكن لكاترين أعداء فى البلاط ولا خارج البلاط لأن أخلاقها الرضية وحسن معشرها وشدة دهائها كسبت لها مودة الجميع.

* * *

وهكذا بلغت تلك الوصيفة مكانة من الشهرة والعظمة تحسدها عليها الملكات والأميرات، مع أنها كما ذكرنا لم تكن على شىء مفرط من الجمال. وفى قصور ملوك الروس صور عديدة تمثلها بهيئات مختلفة وهى فى جميعها بسيطة الملامح لولا ذبول عينيها يكسبها مسحة من الجمال.

على أنها وإن لم تكن فائقة الجمال فى عيون الناس فقد كانت كذلك فى نظر زوجها الامبراطور. وقد كان شديد التعلق بها يقرب حبه لها من العبادة!!. وسرى ذلك الحب إلى الجيش كله فكان القواد الكبار والصغار يظهرون لها ودا واحتراما عظيمين، فقد كانت تستعرضهم بصحبة زوجها الامبراطور وتحضر فى جميع ولائمهم وحفلاتهم وتصحبهم فى خيامهم وتشاطرهم أفراحهم وشقائهم. وكانت فى جميع أحوال حياتها لا يخلو ثغرها من ابتسامة ترفع مكانتها لدى الناظر إليها. ومما زادهم إعجابا بها أنها كانت تمتطى صهوة جوادها وتقف مع الجيش المحارب وقنابل الأعداء تتساقط حولها

والقتلى من حولها وهى ثابتة على صهوة جوادها تبتسم ابتسامة الظافر المنتصر.

وقد شهد جميع الذين رأوها وعرفوها أنها لم يكن قط يبدو عليها شيء من دلائل الغرور فلم تكن تخجل من الإشارة إلى ضعة أصلها ونسبها بل بالعكس تباهى بهما ولا تجد موضوعا ألذ من الحديث عن أهلها وما كانوا عليه من ضعة النسب. وكثيرا ما كانت تذكر زوجها الامبراطور بإنها كانت وصيفة عند وزيره تغسل له ثيابه وتقوم بتنظيم بيته فيضحك الامبراطور لكلامها ويطرب لرخامة صوتها!

ولو شئنا أن نورد الرسائل الغرامية التى كان يتبادلها بطرس وكاترين لملأنا المجلدات الضخمة. ولم تنقطع تلك الرسائل بعد زواجهما بل ظلا يتراسلان كلما ابتعد أحدهما عن الآخر يوما أو يومين!. وكان بطرس يخاطبها بقوله «حبيبتى» و«معبودتى» و«ملاكى» و«حبة فؤادى» إلى غير ذلك من الألقاب الدالة على تمكن حبها من قلبه. وقد قيل إنه فارقها مرة مدة أسبوع واحد كان يراسلها فى خلاله كل يوم. ولما لم يعد فى وسعه الصبر على فراقها أرسل سفينته الخاصة ليقلها إليه وكتب يقول لها: «كيفما التفت حولى أرى العالم أشبه بفراغ عظيم لأنك لست بقربى. وقد تملك منى الملل فكلما دخلت غرفة أجدها فارغة مقفرة فأشعر إذ ذاك بدافع يدفعنى إلى اللحاق بك أينما كنت وحيثما تقيمين. فلماذا أنت بعيدة عنى يا كاترين وأنت تعلمين شدة ما أعانيه من لوعة الفراق؟ وهاهى ذى الحياة كلها ملل وسآمة بدونك أيتها الحبيبة»!!

وكان الامبراطور يبعث إليها مع كل رسالة بهدية فاخرة فمرة يرسل إليها ساعة وأخرى حلية ثمينة، ولم يكن يبخل بشىء فى سبيل مسرتها. وكانت هى أيضا تهدى إليه هدايا متنوعة أثمنها فى نظره خصل من شعرها، وازهار يابسة وكانت ترسل مع الهدايا رسائل تشف عن دهاء وإخلاص. وأرسل إليها على أثر معاهدة نيشتاد ويقول: «إننى مضطر بحسب شروط هذه المعاهدة أن أعيد جميع الأسرى الليفونيين إلى ملك أسوج، ولما كنت أنت واحدة منهم فلا أعلم ماذا أصنع». فكتبت إليه تقول: «ألست خادمتك الأمينة؟ أصنع بى ما يحسن فى عينيك. إنما أمل أن لا تطردنى من بيتك».

وظلت الأمور تجرى على هذا المنوال وروابط الحب تقوى بين بطرس وكاترين التى لم تكن تدع فرصة تمر دون أن تظهر لزوجها دلائل الود والاخلاص.

ومع أن كاترين بلغت هذه الرفعة من المنزلة لدى الامبراطور لم تنس قط أهلها فى ليفونيا. وكان أحد أخوتها سائقا والآخر اسكافيا والثالث فلاحا والرابع خادما فاستقدمتهم جميعا وقدمتهم إلى زوجها الامبراطور فأغدق عليهم العطايا وفرض لهم مرتبا سنويا يتقاضونه وأولادهم من بعدهم.

* * *

كاترين.. الامبراطورة

واتفق فى ذلك الزمن أن الامبراطور بطرس كان قد حكم على ولى عهده «الكسيس» بالموت لأسباب سياسية، ثم عفا عنه ولكن الكسيس مات مذبوحا فى سجنه على ما هو معروف فى التاريخ، فخلا الجو إذا ذاك لابن كاترين فعينه بطرس الأكبر وارثا للعرش. وهكذا تمت الحلقة الأخيرة من السلسلة التى كانت تربط بطرس بكاترين ولم يبق إلا أن يوضع التاج على رأسها لتصبح امبراطورة بالاسم وبالفعل معا. وقد تم لها ذلك فى شهر مايو ١٧٢٩. فأقيمت الاحتفالات الشائقة فى موسكو ولم يدخر بطرس الأكبر وسعا فى سبيل جعل الحفلات فريدة فى نوعها. فأمر بصنع تاج جديد لكاترين من أفخم ما رأته عين. وقيل إنه انفق على صنعه مليونا ونصفا من الروبلات وعلى ثوب التتويج الذى صنع فى باريس أربعة آلاف روبل. وكان الامبراطور قد أمر أيضا بصنع مركبة خاصة فى باريس لهذه الحفلة، قيل أنه عندما وضع بطرس التاج على رأس كاترين وقعت على قدميه تبكى من شدة الفرح!!

ولم يكد يمر ردح من الزمن على تتويج كاترين حتى حدث ما كاد يسقطها من شاهق مجدها ويذهب بمكانتها. ذلك أنها كانت محاطة بكثيرين من رجال البلاط الذين كانوا يتوددون إليها. ومنهم وليم مونس أخ الآنسة مونس التى كانت سابقا محظية الامبراطور. وقيل أنه نشأت بين مونس وكاترين علاقات غرامية انتشر خبرها فى البلاط ولم يكن أحد يجسر أن يطلع الامبراطور عليها خوفا من غضبه. ولكن الامبراطور علم بها فيما بعد فباغت العشيقين ذات ليلة يسيران فى الحديقة على نور القمر وقد احتضن أحدهما الآخر! وفى الليلة نفسها أمر الامبراطور بإلقاء القبض على مونس والإتيان به إليه. فلما مثل بين يديه اعترف بذنبه، وللحال أمر الامبراطور بقتله،

وقيل إنه قتل بينما كانت كاترين ترقص على وقع الآلات الموسيقية فى إحدى حفلات البلاط وعلى ثغرها ابتسامة على رغم ما فى قلبها من الحزن. وفى الصباح التالى اركبها الامبراطور إلى جانبه ومر معها بجثة عشيقها معلقة فى أحد الميادين. فلم تنبس كاترين بكلمة بل حولت نظرها عن ذلك المشهد إلى وجه زوجها الامبراطور وهى تتكلف التبسم متجاهلة غرض الامبراطور من اختيار تلك النزهة الفظيعة. ولم يكتف الامبراطور بهذا الانتقام بل وضع رأس القتيل فى زجاجة مملوءة بالكحول وجعل الزجاجة فى غرفة كاترين. ولما رأى أن كاترين تتجاهل أسباب ذلك كله اشتد غضبه ذات يوم فأمسك بوعاء ثمين وقذف به على الأرض فحطمه تحطيما وقال لكاترين: «هكذا سأحطم أعدائى!» فأجابته بكل هدوء: «لقد حطمت وعاء ثمينا كان يزين هذا القصر فهل تظن أنك زدت بلاطك جمالا؟».

وظل الامبراطور غضوبا على كاترين مدة من الزمن. ولكنها لم يصعب عليها أن تستعيد مقامها لديه. فغفر لها ما مضى وعاد إلى إغداق نعمه عليها إلى أن أدركته الوفاة ففارقها وهو لا يزال أمينا على حبها!! إلا أنها لم ترع عهود وداده، فإنها لم تكد تواريه فى لحده حتى أخذت تتمتع بحريتها وتحيى الحفلات الراقصة. واندفعت فى اللهو تاركة شئون المملكة بين منشيكوف إلى أن أدركتها الوفاة بعد أن أصبحت امبراطورة بسنة وأربعة أشهر!!



مـــارى أنطـــونيـــت
وجـــان دى فـــالـــوا

أروع حـــوادث الاحتيـــال
فى التـــاريخ!!



كان حادث عقد الملكة ماري أنطوانيت والقضية التي ثارت بسببه، من العوامل التي أدت إلى تعجيل الثورة الفرنسية الكبرى، وانهيار عرش لويس السادس عشر!!

في ١٩ أبريل ١٧٧٠، عقد زواج الأرشقيدوقة ماري انطوايت، ابنة الامبراطورة ماري تريز النمساوية، على الأمير لويس، حفيد ملك فرنسا لويس الخامس عشر، والذى أصبح بعد وفاة أبيه وارثا للعرش، ووليا للعهد، وكانت الأرشقيدوقة فى الخامسة عشر، وقد عقد الزواج فى فيينا عاصمة النمسا، وكان العريس فى باريس، فتم عقد الزواج «بالتوكيل»!

وغادرت العروس فيينا فى ٢١ ابريل قاصدة باريس، فوصلت إلى مدينة ستراسبورج فى الثامن من مايو، حيث استقبلها رجال الدين فى الكاتدرائية التاريخية. يتقدمهم الكاردينال الشاب دى دوهان، وهو من أعرق الأسر الفرنسية شرفا ونبلا، وأعظمها جاها، وأوسعها ثروة، وقد ارتدى فى ذلك اليوم التاريخى أبهى حلله، وخاطب الأميرة النمساوية قائلا: «ستكونين أيتها الأميرة بيننا صورة حية لأمك الامبراطورة المحبوبة، التى تثير إعجاب أوربا، وستثيرى إعجاب الأحقاب المقبلة، فروح الامبراطورة مارى تريز ستعانق روح أسرة بوربون المالكة فى فرنسا!».

بكت الأميرة من الفرح، وتذكرت أمها التى فارقتها فى فيينا، ثم دخلت الكنيسة حيث باركها الكاردينال، وأقام من أجلها صلاة حضرها الأساقفة والعظماء وأبناء الشعب.

واستأنفت العروس سفرها، فاستقبلت فى القصور الملكية بفرساي استقبالا منقطع النظير، وظلت طول الطريق تسأل عن ذلك الكاردينال الشاب، فعلمت أن لويس دى روهان يعيش فى قصره، ببلدة سافرن، بالقرب من ستراسبورج، عيشة بذخ وترف، مثل غيره من أشراف ذلك العهد، وأنه ينفق أموالا كثيرة بلا حساب، من ثروته الطائلة التى لاتقدر بالأرقام، فهو يقيم المآدب، ويحيى الحفلات التى يؤمها الأشراف رجالا ونساء، ويخرج إلى الصيد والقنص، ولا يحرم نفسه شيئا من ملذات الحياة.

وكان كبير وزراء لويس الخامس عشر، رجلا رفعته إلى منصبه صداقته لخليله الملك «الكونتس دى بارى» واسمه «دوق ديجيليون» وهو أيضا من المقربين لأسرة روهان. فقرر إرسال الكاردينال إلى فيينا سفيرا لفرنسا فى بلاط الامبراطورة مارى تريز، التى عينت من ناحيتها، الكونت «دى مرسى أرجانتو»، سفيرا لها فى بلاط ملك فرنسا، وهو الذى اتخذته مارى انطوانيت فيما بعد مرشدا لها. ومؤتمنا على أسرارها.

وكتبت الأميرة إلى أمها، وكتب السفير إلى مليكته، بأن الكاردينال دى روهان قد عين سفيرا فى فيينا، ووصفاه بأنه أقرب إلى الجندى منه إلى الكاهن. وأعرب سفير الامبراطورة عن خوفه من أن يكون ملك فرنسا قد أحسن الاختيار!

ولد لويس دى روهان فى عـام ١٧٣٤. فكان إذن فى سنة ١٧٧٠، قد بلغ السادسة والثلاثين، وقد يسرت له سبل التقدم، وارتقاء أرفع المناصب، فعين مساعدا لرئيس أساقفة ستراسبورج، وأنعم عليه من البابا برتبة الكاردينالية وانتخب عضوا فى الأكاديمية الفرنسية، وأحاطه الناس بمظاهر التكريم والتبجيل، وراح الرجل ينعم بملذات الحياة بلا قيد!

وكان حلو الحديث. واسع الأطلاع، جميل الطلعة، طيب القلب، سهل الانقياد، سريع التأثر، يندفع إلى غاياته وأهدافه دون أن يبالى العوائق أو العواقب، وكان هذا سببا فى شقائه من بعد!!

أنفق الكاردينال لويس دى روهان مبلغا طائلا من المال لأعداد دار السفارة فى فيينا، وسافر فى موكب يشبه مواكب الملوك، ودخل العاصمة النمساوية فى مركبات تجرها خيول مطهمة، ويحيط بها ويتبعها جيش من الموظفين والخدم. فبهر أنظار النمساويين بمظاهر العظمة والفخفخة، وترك لأول وهلة فى نفس الامبراطورة أثرا طيبا.

ولكن مارى تريز عدلت عن رأيها فيه، بعد أن شاهدت أعماله فى سفارته، فإن الكاردينال دى روهان، عاد فى فيينا إلى ما كان عليه فى سافرون. من أقامة المآدب وإحياء الحفلات، وراع الامبراطورة ما رأته من خفة فى سلوك السفير الغريب الأطوار. وكان ممثلها فى بلاط فرنسا، الكونت دى مرسى أرجانتو يواصل حملاته على الكاردينال من بعيد، ويوغر صدر الامبراطورة عليه.

وعلم الكاردينال بما يحدث فى الخفاء، فجعل يدس لغريمه السفير النمساوى فى بلاط الملك لويس الخامس عشر، وتوترت العلاقات بين الرجلين، وبين الكاردينال ومارى تريز، فدعا هذا الأمبراطورة إلى الكتابة سرا لابنتها مارى انطوانيت بأن تسعى فى نقل السفير الفرنسى من فيينا.

وكانت الأميرة الشابة سريعة الانقياد لأرادة أمها. فإن حياتها فى البلاط

الفرنسى كانت محوطة بجو من الدسائس والمكائد، ولم يكن لها من مرشد غير أمها البعيدة، بواسطة صديقها الكونت دى مرسى، الذى كان همه الوحيد فى باريس أن يقرب بين سياسة فرنسا وسياسة النمسا، ولم يكن هذا سهلا عليه مع بقاء الكاردينال سفيرا فى فيينا.

حاول دى مرسى، وحاولت مارى انطوانيت حمل الوزير الأول على استدعاء الكاردينال السفير، لكنهما فشلا. ولم يوفقا إلى إجابة الامبراطورة إلى رغبتها. إلا بعد وفاة الملك لويس الخامس عشر. وارتقاء حفيده، وزوج مارى انطوانيت العرش باسم لويس السادس عشر.

عندما تركت مارى انطوانيت اسرتها وبلادها إلى فرنسا، كانت مفعمة أملا فى المستقبل، ورغبة فى اكتساب حب الشعب الفرنسى. وكانت تستسلم لمرح شبابها، ولا تقيد نفسها بالتقاليد والعادات المرعية فى البلاط، فجعلت أمها تؤنبها على ذلك، وظنت تلك الأميرة التى أصبحت ملكة، أن فى وسعها أن تفعل ما تفعله كل فتاة فى سنها، وتجاهلت تلك المقتضيات التى يقتضيها المنصب الذى وصلت إليه.

أما زوجها الملك فإنه كان يحبها حبا لم يبذله ملوك فرنسا من قبل إلا لخليلاتهم. وهذا ما أثار ضدها أحقاد الوصيفات، ونساء الأشراف المتزلفات، اللواتى كن يطمعن فى السيطرة على قلب الملك.

ولم تكن مارى انطوانيت تفكر كثيرا قبل الإقدام على إنفاق المال، فعد الناس هذا التبذير عيبا لا يغتفر، وبلغت أنباء تبذيرها مسامع الشعب الذى كان يدفع الضرائب فحنق عليها.

* * *

جان دى فالوا!!

البرد شديد، والمطر غزير، والرياح عاصفة، ولكن فتاة صغيرة ممزقة الثياب كانت تسير فى الطريق فى هذا الوقت مرتعدة الأطراف، شاحبة اللون. تمد يدها للمارة، مرددة بلا انقطاع: «ارحموا فتاة من سلالة أسرة فالوا المالكة»!

والناس لا يصغون إليها. بل إن بعضهم ليدفعها بقسوة صائحا فى وجهها: «يا للفتاة الكاذبة» فيلمع فى عينى المتسولة الصغيرة بريق الغيظ والحسد والحقد.

فإذا ما عادت الفتاة إلى بيتها فى المساء، إنهال عليها صديق أمها ضربا على مشهد من أمها، بأنها لم تجمع من التسول المبلغ الذى حدده لها!

كانت فى الثامنة من عمرها، وهى تخرج أحيانا للتسول حاملة اختها الصغيرة على كتفها، حتى تسقط على الأرض إعياء.

وفى ذات يوم، بينما هى واقفة على حافة الطريق تردد نداءها: «ارحموا فتاة من سلالة أسرة فالوا!....» إذ بمركبة تقف أمامها، وسيدة من الأشراف تسألها من هى؟ وأية علاقة لها بأسرة فالوا؟

وكانت السيدة هى «المركيزة دى بولانفيليه» فما سمعت قصة الفتاة حتى تحركت فى نفسها عاطفة الشفقة، ووعدت بأن تساعدها إذا كانت ما تقصه صحيحا.

وتقصت المركيزة الأمر، فعرفت أن المتسولة هى ـ فى الواقع ـ من أسرة فالوا، التى جلس ملوكها على عرش فرنسا، قبل أن يتولاه ملوك بوربون، فهى من سلالة الملك هنرى الثامن، وقد قلب لها الدهر ظهر المجن، فأصبحت فقيرة معدمة. كان أبوها «جاك دى سان ريمى» يعيش فى دار حقيرة، بإحدى القرى. وقد تزوج خادمته فرزق منها بأربعة أولاد: جاك، الصبى الكبير، وجان الثانية واختيها مرجريت ومارى.

عجز الرجل عن كسب رزقه فى قريته فرحل عنها مع زوجته وأولاده، ماعدا البنت الثالثة التى علقها فى شجرة وتركها وانصرف، فالتقطها أحد الفلاحين وعنى بتربيتها!

وأصيب الرجل بمرض فهجرته زوجته، وعاشت مع أحد الجنود. ثم مات الزوج، فأصبحت حياة جان جحيما لا يطاق، وكانت أمها وذلك الجندى يضربانها ويرغمانها على التسول.

تلك كانت حالة «جان دى فالوا» عندما وجدتها المركيزة دى بولا نفيليه فى الطريق مع أختها.

انقذتها المركيزة وأرسلتهما إلى أحد المدارس حيث ماتت البنت الصغيرة وبقيت

جان وحدها فى المدرسة. وكان ذلك فى سنة ١٧٦٣.

ومرت أعوام، وإذا بجان فالوا تقيم فى قصر المركيزة ضيفة عليها، مع أختها الصغرى التى جاءت بها من القرية حيث كان أبوها قد علقها فى أغصان الشجرة!!

* * *

المغامرة الفاتنة:

الكونت دى لاموت!!

أصبحت جان فتاة ناضجة جميلة، ونبتت فى صدرها المطامع، وأصبحت تتطلع إلى مستقبل يتفق مع الدم الذى يجرى فى عروقها، دم ملوك فرنسا السابقين!!

وبلغت الحادية والعشرين، فقررت أن تشق طريقها فى الحياة، وراحت تنتقل مع اختها، من دار إلى دار، ومن قصر إلى قصر، حيث تدعو نفسها «الأميرة جان دى فالوا» وتعمل على التقرب من الأسرة الكبيرة، وأخيرا، وفى سنة ١٧٨٠م، تزوجت ضابطا شابا يدعى «مارك انطوان لاموت» بعد أن أوقعته فى حبائلها، ولم يمض على هذا الزواج أكثر من شهر واحد، حتى وضعت جان طفلين توأمين، ماتا بعد بضعة أيام، وكان الزوج فى السادسة والعشرين، والزوجة فى الرابعة والعشرين.

وقد انتحلت جان دى فالوا لنفسها ولزوجها لقب الكونتيسة فسمت نفسها «الكونتيسة دى لاموت» وسمت زوجها «الكونت دى لاموت» وبقى اللقب مرتبطا بالأسمين!!

كان دى لاموت فقيرا، ولم تكن جان تملك شيئا غير المعاش الذى حصلت عليه من القصر الملكى بواسطة المركيزة دى بولا نفيليه الطيبة القلب، فذهب الزوجان إلى مدام دى لاتور. اخت دى لاموت، وأقاما عندها مدة من الزمن، ثم رهنت جان معاشها بمبلغ ألف فرنك، واشترى زوجها مركبة من تاجر لم يدفع له ثمنها ثم باعها وقبض الثمن، وهكذا تمكن الزوج والزوجة من إعداد منزل للإقامة فيه.

وجعلت «الكونتيسة دى لاموت» تثير فى نفس زوجها تلك المطامع التى كانت تختلج بها نفسها، فوقع الرجل تحت سلطانها، لأنه كان ضعيف الإرادة، ضيق التفكير.

* * *

علمت مدام دى لاموت أن المركيزة التى أحسنت إليها ذاهبة إلى ستراسبورج، حيث تحل ضيفة على الكاردينال دى روهان فى قصره بسافرون، فعولت على الذهاب أيضا مع زوجها إلى تلك المدينة، على أمل أن تتصل بالكاردينال لاستغلال نفوذه فى المستقبل. ونفذت عزمها فى الحال.

وكان الكاردينال قد عاد من فيينا، واستقر من جديد فى أملاكه الشاسعة، حيث واصل تبذيره، وأحاط نفسه بجيش من المعجبين المتزلفين. وكانت مدام دى لاموت من أولئك الأشخاص الذين فى مقدورهم أن يؤثروا على الكاردينال بالحديث العذب، أو الكذب والنفاق، وهذا ما حدث للكونتيسة، المغامرة، الجميلة، الفاتنة.

قدمتها المركيزة دى بولا نفيليه إلى لويس دى روهان، فاهتم الكاردينال اهتماما واضحا بما قصته عليه من مغامراتها، والظروف التى أحاطتها بنشأتها، ووعدها ذلك الرجل الطيب الكريم بأن يساعدها كلما وجدت نفسها فى حاجة إلى مساعدة، لكى تحيا حياة لائقة بشرف محتدها، وكان أول ما صنعه لها الحصول لزوجها الكونت دى لاموت على وظيفة ضابط فى حرس شقيق الملك.

ومنذ ذلك الحين، بدأت الكونتيسة دى لاموت تنصب شباكها حول الكاردينال. لم تكن الكونتيسة دى لاموت لتقنع بما بلغته من نجاح بواسطة معارفها الكثيرين، وفى مقدمتهم الكاردينال دى روهان، ومن اجل ذلك، بدأت تقترض المال من هنا وهناك، وانتقلت إلى فرسايل حيث استأجرت منزلا ملأته بالرياش الفاخرة، والتحف الثمينة، واستأجرت منزلا آخر فى باريس، فعلت فيه ما فعلته بالمنزل الأول. وقامت مشاحنات بينها وبين دائنيها، وكانت كلما أرادت التخلص من ورطة وقعت فى ورطة أخرى. فاختلط فى حياتها الحابل بالنابل، ولكنها ظلت تظهر أمام الناس فى مظهر المرأة الغنية الشريفة، وتبهر الألباب ببذخها وتأنقها، وتدعى أن علاقتها بالأسرة المالكة وثيقة العرى وأن الملك لويس السادس عشر والملكة مارى انطوانيت يحبانها ويستقبلانها ويتخذانها موضع اسرارهما!!

وجعلت تسعى لحمل الملك على إصدار قرار بإعادة الأملاك التى كانت لأسرة فالوا إليها هى، سليلة هذه الأسرة، ولو أنه تم لها ذلك، لأصبحت فى الواقع على جانب

عظيم من الغنى والجاه.

ونجحت فى حمل الملك على مضاعفة المعاش الذى كان مقررا لها، ولكن ذلك لم يكن كافيا لسداد النفقات الباهظة التى تتطلبها حياة كالتى انغمست فيها الكونتيسة دى لاموت.

المال! المال! لابد لها من المال!

فكرت فى استغلال علاقتها الوثيقة المزعومة بالملك والملكة، وجعلت تتحدث عنها فى كل مناسبة، على أمل أن يقصدها طلاب الحاجات لقضاء حاجاتهم مقابل أتعاب يدفعونها إليها، ولكنها فى الواقع لم تكن تعرف الملك ولا الملكة، وكل ما فى الأمر أنها عرفت بعض رجال الحاشية ووصيفات الملكة. غير أنها لم تكن من التعقل بحيث تدرك مبلغ الخطر الذى ينطوى عليه ادعاؤها صداقة الملك والملكة. وعبثا حاول أحد المقربين إليها أن يردها عن الاسترسال فى التحدث عن تلك العلاقة الكاذبة، فالكونتيسة ذات المطامع الواسعة والجشع الذى لا حد له، لم تصغ للنصيحة ولم تعدل عن الخطة التى رسمتها لنفسها.

وجمعت جان دى لاموت حولها شركاء عهدت إلى كل منهم بمهمة أو وظيفة خاصة، لتنفيذ تلك الخطة التى كانت تعتقد أنها مضمونة النجاح، وأنها ستصل بها إلى ذروة المجد والثروة، وبين أولئك الأشخاص شاب يدعى «رينو دى لافيليت» لعب فيما بعد دورا خطيرا فى حياتها، وكان هذا الشاب ماهرا فى تقليد الخط، وقد اتخذته جان «سكرتيرا» لها.

* * *

حزن الكاردينال دى روهان حزنا شديدا لعلمه بأن الملكة غاضبة عليه تضامنا مع أمها الامبراطورة، بسبب سلوكه وسياسته فى فيينا، فجعل يبذل المساعى لإصلاح علاقته بالبلاط، والحصول على رضى مارى انطوانيت. لكن نفوذ الأم عند ابنتها كان عظيما. فظلت الملكة معرضة عن الكاردينال، وظل الطريق مسدودا أمامه لبلوغ ما كان يتوق إليه من مناصب وسلطان، وبسبب ذلك الاعراض الملكى.

كان الكاردينال يطمع فى أن يصبح يوما حاكم فرنسا، كما كان من قبل الكاردينال ريشليو، والكاردينال مازاران، والكاردينال فلورى، فكيف العمل للتغلب على عداوة الملكة؟

وهنا برزت الكونتيسة جان دى لاموت إلى الميدان، وبدأت بتنفيذ خطتها الجهنمية مع الكاردينال الطيب القلب السهل القياد.

صدقها عندما قالت له أن علاقتها بمارى انطوانيت تزداد توثقا يوما بعد يوم، وأنها مستعدة بحكم هذه العلاقة لإصلاح ذات البين، وهى على ثقة من إزالة الجفاء بينه وبين الملكة، على شرط أن يصنع ما تطلبه منه بلا جدال ولا تردد.

صدقها وترك لها حرية العمل بما تقتضيه المصلحة!

وفى ذات يوم، قالت له أن الملكة ستشير إليه برأسها، علامة الرضى، وهى تمر بين عظماء المملكة فى بهو الاستقبال فى القصر، فوقف الكاردينال مع الواقفين وخيل إليه فعلا أن الملكة تشير إليه برأسها، فطار قلبه من الفرح!

وطلبت منه جان أن يكتب عريضة، يشرح فيها سلوكه ويبرره، قائلة له أن الملكة طلبت ذلك منها، فصدقها الكاردينال، وكتب العريضة، وجاء الرد من الملكة، موقعا عليه بيدها، وهى تقول فيه أنها تنسى الماضى، وأنها ستقابله عندما تسنح الفرصة!

وقد اعترف دى لافيليت فيما بعد أنه هو كاتب ذلك الرد، وكاتب جميع الرسائل التى تلقاها الكاردينال من الملكة، وأنه كان يقلد خط مارى انطوانيت نزولا على أمر مدام دى لاموت.

وأعتقد الكاردينال أن كل شىء سائر على ما يرام، بينه وبين الملكة، بفضل الكونتيسة صديقتها!

وضمت جان دى لاموت إلى عصابتها، فى أثناء ذلك، فتاة ساذجة جميلة تدعى «نيكول لوجى» اعطتها اسم «بارونة دوليفا» وعقدت العزم على استخدامها لقضاء أغراضها. وإذا كان لافيليت يكتب رسائل الملكة، فإن نيكول ستمثل دور الملكة، فى الرواية التى تعد الكونتيسة فصولها ومشاهدها.

كانت نيكول يتيمة مسكينة، فأنقذتها الكونتيسة وأحسنت إليها، وأقسمت الفتاة أن تطيعها فى كل ما تطلبه منها.

وجاءت الكونتيسة يوما إلى الكاردينال دى روهان فأبلغته أن الملكة ستقابله فى «خلوة فينوس» بحديقة القصر الكبيرة، ورسمت له خطة السير، وذهبت مع زوجها ولافيليت ونيكول إلى تلك الخلوة، ودخلت نيكول إلى مكان مظلم حيث جلست على مقعد، وجاء الكاردينال فمر أمامها، ولم يتمكن من رؤية وجهها، فاكتفى بلثم أطراف ثوبها، وسمعها تقول له متمتمة: «كن واثقا أن الماضى أسدل عليه النسيان!». وابتعد الكاردينال معتقدا أن المرأة التى لثم ثوبها، وسمع صوتها، إنما هى الملكة نفسها، التى وفت بوعدها، وحددت له تلك المقابلة بواسطة الكونتيسة دى لاموت، فى حين أن المرأة المختبئة فى خلوة فينوس لم تكن غير نيكول الفتاة الساذجة، التى كانت شديدة الشبه بالملكة، والتى دربتها الكونتيسة على تمثيل دورها باتقان، كما دربت لافيليت على تقليد خط الملكة!!

* * *

قضية العقد الثمين..!!

كانت سعادة الكاردينال عظيمة لا توصف، واعتقد أن أحلامه ستتحقق مادامت العقبة الوحيدة قد زالت من طريقه، وأنه سيصبح فى مستقبل الأيام خليفة الكرادلة الذين حكموا فرنسا من قبله.

وظهرت نتائج مقابلته للملكة بعد أيام من تلك الليلة التاريخية المشهودة. فقد جاءته الكونتيسة دى لاموت طالبة منه باسم الملكة مبلغ خمسين ألف ليرة (أى ٧٥٠ ألف فرانك) قالت أنها فى حاجة إليها، ولا تريد أن تطلبها من الملك. وتوالت مثل هذه الطلبات على الكاردينال، بواسطة جان دى لاموت، وكان الرجل يدفع فرحا مرتاحا، فتأخذ جان النقود وتهرع إلى الأسواق، فتبتاع ما هى فى حاجة إليه من ثياب وأثاث وتحف وخيول ومركبات...، وكانت الملكة تجهل كل شىء من أعمال النصب والاحتيال التى انصرفت إليها الكونتيسة المغامرة.

وبعد أن وثقت الكونتيسة من استعداد الكاردينال لاجابة الملكة إلى جميع

طلباتها أيا كان نوعها، عمدت إلى تنفيذ المرحلة الأخيرة من خطتها الشيطانية وهى المرحلة المعروفة بقضية العقد.

كان الملك والملكة يشتريان المجوهرات والحلى من التاجر الالمانى «شارل أوجست بوهمر» وشريكه «بول بازنجر» وهو ألمانى مثله، وأن كان من أصل فرنسى. وكان هذان التاجران قد جمعا من أنحاء أوروبا كمية من أفخر الأحجار الكريمة الموجودة فى ذلك الوقت، وصنعا منها عقدا رائعا يعتبر أجمل حلية عرضت للبيع فى أسواق المجوهرات. وكان املهما أن يبيعا ذلك العقد إلى الملك لويس الخامس عشر، ليقدمه هدية إلى خليلته مدام دى بارى. لكن الملك لويس الخامس عشر مات قبل أن يشترى العقد، فعرضه صاحباه على البلاط الأسبانى فرفض شراءه أيضا لفداحة ثمنه وفكر التاجران فى عرضه على لويس السادس عشر، فاعجب به الملك، وسأل مارى انطوانيت إذا كانت تريد أن يشتريه لها، فرفضت قائلة أن دفع الثمن المطلوب يعد ضربا من الجنون.

أما ذلك الثمن، فهو مليون وستمائة الف ليرة، أى ما يوازى ٢٤ مليون فرنك، وهو مبلغ هائل بالنسبة إلى قيمة النقد فى ذلك العهد.

وأرسل بوهمر يقول للملك أنه اضطر إلى استدانة ٨٠٠ ألف ليرة من أحد الأغنياء لدفع بقية الماسات، وأن أمواله كلها أصبحت مجمدة، وفوائدها باهظة، ويسترحم لويس السادس عشر أن ينقذه من الافلاس بشراء العقد منه. وجعل الرجل يعمد إلى الوساطات، فعاد الملك يسأل الملكة التى قالت أنها لن تحلى عنقها بذلك العقد كيلا يقال أنها تبذر أموال الشعب الجائع!

وعلمت الكونتيسة دى لاموت بقصة العقد، فبرزت فى ذهنها المرحلة الأخيرة من خطتها مع الكاردينال.

أسرعت إليه وقالت ما خلاصته: «أن الملكة ترغب فى شراء العقد من بوهمر، ولكنها لا تملك المال اللازم لذلك، ولا تريد من ناحية أخرى أن يعلم الملك بأنها ترغب فى شراء العقد. وهى تأمل أن يتولى الكاردينال شراءه بالنيابة عنها، فيوقع على عقد البيع، ويتفق مع صاحبى العقد على طريقة الدفع التى يريدانها، على شرط أن يقوم هو بتنفيذ عقد البيع وتسديد الثمن، ثم يسترده من الملكة على دفعات متوالية!!».

وصدقها الكاردينال دى روهان!!!

لاحت فى أفق باريس فى تلك الأيام شخصية غريبة قدر لها أن تلعب دورا فى قضية العقد الماسى.. أنه المدعو «الكونت كاليوسترو» كان يحيط نفسه بجو من الغموض ويدعى أنه ولد فى مالطة ونشأ فى المدينة المنورة وطاف فى افريقيا والشرق الأوسط، بل وادعى أنه شاهد بناء سفينة نوح وصلب المسيح وأنه يعرف سر صنع الذهب والماس، كما يعرف المستقبل!!

كان الكاردينال روهان يتفاخر بصداقة الكونت كاليوسترو هذا لذا راح يستشيره ويطلب مشورته.. وتظاهر الكونت بأنه فى حالة غيبوبة يستلهم الوحى.. ثم فتح عينيه وقال للكاردينال «ستنجح مهمتك وتعود عليك بأعظم الانعامات والألقاب، ويتضح لفرنسا كلها ما لك من مواهب وعبقرية.. اشتر العقد ومعه حب الملكة لك وتقديرها لاخلاصك وليكن العقد معبرك وموعدك مع قدر رائع!!»

واتصلت الكونتيسة بالتاجرين وافهمتهما أن الكاردينال سيشترى العقد ورافقتهما إلى قصر دى روهان، حيث رأى الكاردينال العقد، ودخل فى مفاوضات البيع، وشروط الدفع، وبعد أخذ ورد، لعبت فيهما الكونتيسة دى لاموت دورها، وبعد استشارة كاليوسترو الدجال الذى شجع الكاردينال على شراء العقد بزعم أن هذا سيضمن له مساعدة الملكة وتأييدها إياه فى مستقبل الأيام، وبعد أن اعتقد لويس دى روهان أن شراء العقد لحساب الملكة سيكون وسيلة لاستخدام نفوذها، وقد يكون مرحلة للأستيلاء على قلبها، بعد ذلك كله، تم توقيع العقد، واتفق الطرفان على موعد لتسليم الحلية الباهرة!

وعندما قال الكاردينال أمام صديقته الكونتيسة دى لاموت أنه يريد كلمة من الملكة يطمئن عليها، أخذت منه نسخة من عقد البيع وخرجت، ثم عادت حاملة إليه تلك النسخة وعليها توقيع الملكة: «انطوانيت دى فرانس!» فلم يبق فى ذهنه أثر للشك!

وتسلم الكاردينال العقد من التاجرين، واتفق مع صديقته على الذهاب إلى منزلها لتسليم العقد إلى الملكة، أو إلى من توفده لهذا الغرض. واعدت الكونتيسة عدتها لتمثيل هذا المشهد من الرواية على أحسن ما يرام، وذهب الكاردينال فى الموعد المحدد، ودخل قاعة الاستقبال بمنزل الكونتيسة، وإذا برجل يدخل «موفدا من الملكة» فيسلم الكاردينال العقد إلى جان دى لاموت، وتسلمه هذه إلى رسول الملكة، وينصرف الجميع!!

ولم يكن رسول الملكة غير رينو دي لافيليت، سكرتير الكونتيسة وعشيقها، الذى أعاد «الامانة» إلى سيدته بعد انصراف الكاردينال.

وهكذا حصلت الكونتيسة دى لاموت على «عقد الملكة» الذى كان الكاردينال يعتقد ببساطة عجيبة تدعو إلى الدهشة، أنه اشتراه لحساب مارى انطوانيت، ومارى انطوانيت لا تدرى من أمره شيئا.

وأطلع الكاردينال التاجرين على السر، قائلا لهما أن العقد قد أرسل إلى الملكة، ولكنه الزمهما بالكتمان، لأن مارى انطوانيت لا تريد أن يعلم الملك بأنها اشترت تلك الحلية الغالية!

* * *

عمدت العصابة إلى نزع الماسات من العقد واخفائها، وقام بهذا العمل الكونت دى لاموت وزوجته جان دى لاموت وشريكهما رينو دى لافيليت. وجعلوا منذ اليوم التالى يتصرفون فى تلك الأحجار الكريمة بلا حذر. كأنها هبطت عليهم من السماء، أو آلت إليهم من ميراث!!

وقبض البوليس على لافيليت وهو يعرض للبيع كمية من الماس فى الأسواق، واعترف الرجل بأنه أخذها من سيدة نبيلة هى الكونتيسة دى لاموت قريبة الملكة» فلم يضايقها البوليس لاعتقاده أن الكونتيسة تتجر بالمجواهرات لحساب بعض الجهات، ولكن مدام لاموت ادركت أن عرض اللآلىء فى اسواق باريس قد يجلب عليها وعلى شركائها الخطر، فقررت بيعها خارج فرنسا، وأوفدت زوجها ولافيليت لهذا الغرض، إلى انجلترا أو هولندا.

وابتاعت الكونتيسة فى باريس كميات من الحلى والثياب والاثاث والتحف، واشترت دارا فخمة، وكانت تقول لمن يسألها عن مصدر هذه الثروة الفجائية، أنها تلقت هدية ثمينة من اناس أسدت إليهم خدمة عظيمة فى أمريكا!

وخشيت الكونتيسة أن يكون مجيء الكاردينال إلى باريس، فى تلك الظروف سببا لاكتشاف أمرها، فجعلت تكتب إليه الخطاب بعد الخطاب، بأسم الملكة، وتطلب

منه البقاء فى قصره بسافرون، لأن مجيئه إلى باريس سيدعو إلى القيل والقال.

وأحيت الكونتيسة سلسلة من الحفلات، كانت تنفق عليها مبالغ طائلة، والناس يتساءلون: ماذا حدث؟ وكيف أصبحت مدام دى لاموت، بين عشية وصباح، على هذا الثراء الفاحش؟

وصارت متسولة الأمس، تخرج فى مركبة تجرها ستة جياد مطهمة!!

* * *

الصاعقة!!

كانت الكونتيسة دى لاموت، قد أكدت للكاردينال دى روهان أن الملكة مارى انطوانيت ستحلى عنقها بالعقد الثمين فى الثالث من شهر فبراير ١٧٨٥، وهو عيد فى فرنسا، فأسر الكاردينال ذلك إلى التاجرين، فذهبا إلى الحفلة لرؤية العقد على صدر الملكة. ولكنهما لم يريا شيئاً، فعاد بوهمر إلى الكاردينال واعرب له عن دهشته، فلم يعلق دى روهان أهمية كبيرة على ذلك، وظن أن الملكة لم تلبس العقد لسبب من الأسباب، ولكنه قال لبوهمر: «هل رفعت شكرك إلى الملكة لأنها اشترت منك العقد؟ إذا كنت لم تفعل بعد، فأذهب وقم بهذا الواجب!».

ومرت الأيام والأسابيع، دون أن تظهر الملكة وعلى صدرها ذلك العقد، فسأل الكاردينال صديقته مدام دى لاموت عن سبب ذلك، فقالت له أن الملكة لا تعد العقد ملكا لها، إلا بعد أن يتم سداد ثمنه للتاجرين. واضافت قائلة أيضا أن الملكة تعتقد أن ثمن العقد باهظ جداً، وأنها تطلب تنزيل مبلغ ٢٠٠ ألف ليرة من أصل ذلك الثمن. فصدق الكاردينال وبات ينتظر، إلى أن قرب موعد دفع القسط الأول من باقى الثمن، وذلك فى أول أغسطس ١٧٨٣.

ففى شهر يونيو من تلك السنة ـ وكان قد مر على استلام العقد خمسة شهور ـ طلب الملك من التاجرين قرطا من اللؤلؤ لاهدائه إلى الملكة، فاعتزم بوهمر أن يغتنم الفرصة لشكر مارى انطوانيت على شراء العقد المشهور وإبلاغها موافقته على تخفيض ثمنه حسب مشيئتها.

وكتب ورقة بذلك، وعندما مثل فى حضرة الملكة لتسليمها القرط الذى طلبه الملك، رفع إليها الورقة، ولكن دخول حاشية الملكة عليهما منعها من قراءتها، فانصرف بوهمر قبل أن تطلع مارى انطوانيت على مضمون تلك الرسالة.

وعندما تنبهت الملكة إليها، وقرأتها، لم تفهم ما يقصده التاجر من كتابة رسالته، التى حشاها بكلمات مبهمة عن: «نزوله على رغبة الملكة وقبول شروطها الخاصة بثمن العقد الذى تم الاتفاق على بيعه...» فألقت الملكة الورقة فى النار، وقالت لإحدى وصيفاتها: «أن هذا الرجل يضايقنى بعقده، فقولى له أننى لا أحب عقود الماس ولا أريد بعد الأن أن أشترى ماسة واحدة!».

لم تقل الوصيفة للتاجر شيئاً، لأنها لم تقابله بعد ذلك اليوم، ولم يصل إلى بوهمر رد الملكة على رسالته، فاعتقد، واعتقد الكاردينال معه، أن العقد فى حوزة الملكة!

ولم يبق غير أيام على موعد دفع القسط الأول، وقدره ٤٠٠ ألف ليرة، وكان مفروضا، حسب الاتفاق بين الكاردينال والكونتيسة، أن الملكة هى التى تدفع الأقساط وأن كان الكاردينال هو الذى تعهد للتاجرين بدفعها، فذهبت مدام دى لاموت إلى الكاردينال فى السابع والعشرين من شهر يوليو، وقالت له أن الملكة لن تستطيع تسديد القسط المستحق فى أول أغسطس، وأنها ترغب فى تأجيل الدفع ثلاثة شهور، على أن تكون الدفعة القادمة ٧٠٠ ألف ليرة بدلا من ٤٠٠ ألف. ووضعت الكونتيسة بين يديه مبلغ ٣٠ ألف ليرة ليوصلها إلى التاجرين كفائدة فى الثمن المطلوب. فاعتقد الكاردينال أن المبلغ مرسل من الملكة، وقبله منه التاجران ولكن كجزء من الدفعة الأولى التى ظلا يطالبان بها.

حينذاك، أقدمت الكونتيسة على عمل جرىء يدل على عدم تقدير العواقب فقد أرسلت تقول للتاجرين أن التوقيع الذى وضع فى ذيل عقد البيع مزور، وأنه ليس توقيع الملكة، وأن الكاردينال دى روهان رجل غنى يمكنه أن يدفع الثمن كله من جيبه!!

لم يجرؤ بوهمر على الافضاء إلى الكاردينال بما قالته له الكونتيسة، ولكنه قلق واضطرب، واسرع إلى القصر الملكى حيث قابل مدام دى كامبان، وهى الوصيفة التى عهدت إليها الملكة بابلاغ بوهمر أنها لا تريد شراء العقد، فواجهته الوصيفة بالحقيقة

المرة: «أنت ضحية احتيال مدبر، فإن الملكة لم تستلم العقد!».

وأدركت الكونتيسة المحتالة أن الخطر أصبح داهما، فذهبت إلى الكاردينال وطلبت منه أن يستضيفها بضعة أيام لأن خصوما يكيدون لها عند الملكة. فقالت له أن مارى انطوانيت خائفة من الحاح التاجرين واحتمال رفعها الأمر إلى الملك. فجعل الكاردينال يهدىء روعها، ويلح على التاجرين بوجوب الانتظار، ويؤكد لهما أن الملكة بالذات هى التى أرسلت إليه الثلاثين ألف ليرة لدفعها كفائدة عن المبلغ المطلوب، وأن لديه رسائل بخط الملكة هى أفضل ضمان بين يديه.

واطمأنت الكونتيسة على نفسها، معتقدة أن الصاعقة ستنقض على رأس الكاردينال وحده، وعادت إلى بلدتها.

وأخذ الكاردينال رأى كاليوسترو الدجال، فنصحه هذا الرجل البعيد النظر! بأن يذهب إلى الملك ويقص عليه كل شىء، مؤكدا له أن توقيع الملكة مزور، وأنها لم توقع أبدا باسم «مارى انطوانيت دى فرانس». ولو عمل الكاردينال بنصيحة الدجال كاليوسترو لانقذ الموقف. ولكنه تردد. ولم يطاوعه ضميره على كشف الستار عن أعمال الكونتيسة دى لاموت، معتقدا أن هناك أشياء لا يزال يجهلها.

وتساءل الرجل، أيقضى عليه الواجب بأن يدفع من جيبه ثمن العقد، ويضع حدا لهذه المسألة!

أما الكونتيسة، فإنها استأنفت فى بلدتها حفلاتها الساهرة. ومظاهر البذخ والترف.

وبينما كانت جان دى لاموت جالسة إلى المائدة مع لفيف من العظماء فى إحدى الامسيات، إذ دخل عليهم أحد الأصدقاء وهو يصيح قائلاً: «خبر رائع: الكاردينال لويس دى روهان.. قبض عليه البوليس داخل الكنيسة.. مرتديا ثوبه الكهنوتى!.. يقال أن هناك قصة غريبة.. قصة عقد من الماس اشتراه الكاردينال باسم الملكة!»

وخرجت الكونتيسة من القاعة مضطربة حائرة.

* * *

ماذا حدث؟!

حدث أن مدام دى كامبان اطلعت الملكة على ما قاله لها التاجر بوهمر. فارسلت مارى انطوانيت فى طلبه، واطلعها الرجل على مراحل الصفقة التى تمت بينه وبين الكاردينال، وكيف باعه العقد الثمين على أنه للملكة، وإنها لا تريد أن يعلم أمره أحد، فأمرته الملكة بأن يكتب تقريرا بذلك، فصدع التاجر بالأمر.

وأسرعت الملكة إلى الملك لويس السادس عشر واطلعته على كل شيء، وطلبت منه أن يتخذ ضد الكاردينال ما يراه لازما من تدابير، لأنه عمد إلى استغلال اسمها وتزوير توقيعها، فالكاردينال هو المذنب الوحيد، أو المذنب الأول فى نظر الملكة، ولا بد من الاقتصاص منه.

وأرسل الملك فى طلب الكاردينال، الذى قد وصل إلى كنيسة القصر للاحتفال بقداس رسمى أمام عظماء المملكة فأسرع دى روهان إلى الملك، وحاول اقناعه بأنه لم يقدم على شراء العقد مدفوعا بنية سيئة، وأنه مخدوع وليس خادعا.

أدخله الملك إلى مكتبه وأمره بأن يدون ما يريد فى تقرير يرفع إليه، ففعل الكاردينال ما طلبه الملك منه، ودارت بين لويس السادس عشر والكاردينال المسكين محاورة مؤثرة:

ـ أين تلك المرأة، مدام دى لاموت؟

ـ لا أعلم.

ـ أين العقد؟

ـ أنه معها.

ـ أين الوثائق التى خولتك الملكة بموجبها شراء العقد؟

ـ أنها معى، ولكنها مزورة!

ـ طبعا.. مزورة!

ـ سأحضرها لجلالتكم!

وأضاف الكاردينال بصوت متهدج!

ـ يا صاحب الجلالة: لقد خدعت! سأدفع ثمن العقد من جيبى!

فأجاب الملك:

ـ لا يسعنى فى هذه الحالة إلا أن أمر بوضع الاختام على قصرك، والقاء القبض عليك، فإن اسم الملكة عزيز علىّ، وقد لطخ هذا الاسم، فيجب على ألا أهمل شيئاً لمعاقبة الفاعلين.

رجاه الكاردينال أن يتجنب الفضيحة. وأوشك الملك أن يلين. لكن الملكة تدخلت فى الأمر، وألحت عليه بوجوب الالتجاء إلى الأساليب السريعة الفعالة.

فأصدر الملك أمره بوقف الكاردينال. وبدل أن يخرج لويس دى روهان من مكتب الملك ليذهب إلى الكنيسة ويعتلى الهيكل لاداء الصلاة، خرج من ذلك المكتب وخلفه الحرس، واجتاز صفوف العظماء الواقفين على الجانبين، فى طريقه إلى سجن الباستيل!

لكنه لم يفقد سيطرته على أعصابه، بالرغم من تلك الساعة الرهيبة. فقد نادى أحد أعوانه، وأوفده إلى قصره، وعهد إليه بأن يعدم طائفة من الأوراق والوثائق التى كان يظن أن فيها ما يسىء إلى سمعة الملكة، فى حين أن الملكة هى التى ألحت فى وجوب القضاء عليه!

* * *

صدر الأمر فى اليوم ذاته باعتقال الكونتيسة دى لاموت، فارسلت أيضا إلى سجن الباستيل.

واجتمع فى بيتها افراد تلك الاسرة العجيبة، وراحوا يبحثون فى أقرب طريقة لتهريب ما تبقى من مال ومجوهرات وأثاث، وفى وسيلة لانقاذ الكونتيسة من السجن.

أما الزوج، الكونت دى لاموت، فقد رأى أن خير ما يفعله هو أن يغادر فرنسا ويبتعد عن موطن الخطر، فسافر إلى لندن.

وغضب الشعب لاعتقال الكاردينال، لأن الأفكار الثورية كانت قد نجحت فى

فرنسا، وعلى الخصوص فى باريس، حيث كان الناس يتهمون الملكة بالتبذير، والملك باحتقار إرادة الشعب ورفض الاصلاحات المطلوبة. وحقد أشراف القصر أيضا على الملكة «الغريبة على فرنسا» والتى اعتقل بسببها رجل من خيرة رجال البلاد، ومن أعظم الأسر الشريفة جاها، وأوسعها ثروة، وامتد الامتعاض إلى رجال الدين الذين عدوا اعتقال الكاردينال اهانة لهم جميعا، ولم يكن «البرلمان» أقل انزعاجا من الأشراف والشعب ورجال الدين، لأن خصوم الملك فيه كانوا كثيرين. وهكذا، بعد اعتقال الكاردينال دى روهان، وجد الملك نفسه أمام معارضة قوية من جميع الطبقات.

وجلست مدام دى لاموت فى سجن الباسيل تفكر فى أمرها، وفى طريقة للدفاع عن نفسها، ظلت تعتقد أن فى وسعها التخلص من الورطة التى وقعت فيها، والقاء التبعة كلها على الكاردينال، الذى قام بعملية الشراء ووقع على الأوراق ودفع جزءا من المال للتاجرين.

وكانت نيكول، المرأة التى مثلت دور الملكة فى «خلوة فينوس» قد تزوجت وسافرت مع زوجها إلى بروكسل، فاعيدت إلى باريس بناء على طلب المحققين، كما أعيد إليها أيضا رينو دى لافيليت، مزور الرسائل والتوقيعات، وكان قد فر هاربا ولجأ إلى سويسرا. فاجتمع أفراد العصابة كلها فى سجن الباستيل، ما عدا الكونت دى لاموت الذى بقى فى لندن وتعذر القبض عليه.

***

ضحية الملكة الغريبة!!

اخطأ الملك عندما أمر بإعتقال الكاردينال، وكان فى وسعه أن يمنع الفضيحة. وأخطأ مرة ثانية عندما استجاب لطلب الكاردينال بإحالة قضيته إلى مجلس النواب وكان بوسعه أن يرفض وأن ينظر فى الأمر بنفسه، فيدرس القضية وملابستها، وينزل العقاب بالذين يستحقونه، ويخلى سبيل الكاردينال إذا ثبت له حسن نياته.

ووقوع الملك فى الخطأ مرتين، أدى إلى استغلال هذا الحادث، لمصلحة دعاة الثورة، فكانت «قضية العقد» عاملا من العوامل التى عجلت بتلك الثورة الهائلة التى انفجرت مراجلها فى فرنسا ١٧٨٩ والمعروفة «بالثورة الفرنسية الكبرى».

كان اسم الملكة مرتبطا بهذه القضية، وكانت سمعتها معرضة للخطر، وقد وجد المجلس فرصة سانحة لأظهار معارضتها للأسرة المالكة، فاغتنمها.

وبدأ المحققون فى استجواب المتهمين، ورفعوا الحجاب شيئاً فشيئاً عن الأسرار التى اكتنفت ذلك الحادث الذى يعد من أروع حوادث الاحتيال فى التاريخ. فقد سئل جميع المتهمين واحدا واحدا، ثم قوبلت أقوالهم بعضها ببعض، وعمد المحققون بعد ذلك إلى سؤالهم مجتمعين، ومواجهتهم بعضهم ببعض.

واظهرت الكونتيسة دى لاموت رباط جأش عجيبة، ووقاحة فى أجوبتها أدهشت المحققين، وكانت تعمد إلى الكذب بسهولة فائقة، وسرعة خاطر، وتكيل التهم لغيرها كيلا، محاولة أن تلطخ سمعة الكاردينال ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، فادعت أنه يحبها، وأنه أخذ العقد لنفسه، وأن الذين شاركوها فى العمل كانوا يستغلونها ويبتزون منها الأموال. ولكنها اضطرت فى النهاية إلى الاعتراف ببعض الحقائق، وأن لم تعترف بها جميعا، وكانت فى حجرتها بسجن الباستيل تصيح وتسب، ثم تنتابها نوبة عصبية أقرب إلى الجنون، فتلقى بنفسها على الأرض وتحطم كل ما يقع تحت يدها.

أما الكاردينال، فقد أثبت فى أثناء التحقيق أنه رجل طيب السريرة سليم النية إلى حد بعيد. وكان هادئا، متزنا، يعترف أنه أخطأ، ولكنه ينكر أنه مذنب. وكان شديد الاهتمام، وهو فى سجنه، بالدجال كاليوسترو وزوجته. وقد اعتقلا مثله فى سجن الباستيل. وظل متصلا بالأشخاص الذين عهد إليهم فى الدفاع عنه. وقد تجلت عواطفه النبيلة فى الرسائل التى كان يكتبها إليهم من سجنه، والتى أبدى فى بعضها أسفه لزج الملكة فى تلك القضية بسببه.

* * *

لم يعد للناس شاغل فى باريس غير قضية العقد. فالأشراف فى قصورهم، والمفكرون والكتاب فى خلواتهم، والجمهور فى الشوارع والميادين، ورجال الدين فى كنائسهم وأديرتهم، كلهم كانوا يتحدثون عن القضية ويبدون رأيهم فيها ويرقبون يوم المحاكمة.

وكان الشعور العام عدائيا نحو الملك والملكة. فعمد دعاة الثورة إلى طبع منشورات اتهموا فيها الملكة بالحق والباطل، وتظاهر الناس حول الباستيل هاتفين بحياة

الكاردينال الذى كانوا يعدونه ضحية تلك «الملكة الغريبة» لأنه قاوم سياستها، وبذل رجال الدين نفوذهم فى كل مكان لاكتساب عطف القضاة على الكاردينال المفترى عليه. وتضامن الأشراف مع أسرة روهان التى أهينت فى شخص عميدها. ووضع الشعراء الشعبيون الأغانى والأناشيد، للثناء على الكاردينال والطعن فى الملكة «النمساوية» والملك الذى انقاد لها. وما جاء يوم المحاكمة، حتى كان الجو قد تسمم والأفكار قد اضطربت والخواطر هاجت.

وكان الناس يروون فى شوارع باريس، أن الكاردينال قد ابتاع العقد لأن الملكة طلبت منه أن يبتاعه لها، وأنه يؤكد فى سجنه أن العقد قد تسلمته الملكة، ولكنها تنكر، وترفض أن تواجه الكاردينال لأنها تخاف منه!

* * *

المحاكمة!

بدأت جلسات «البرلمان» للنظر فى «قضية العقد» فى ٢٢ مايو ١٧٨٦. وكان عدد الأعضاء ٦٤ عضوا، ليس فيهم واحد من الأشراف الذين تربطهم بالأسرة المالكة رابطة القرابة، فهؤلاء قد انسحبوا من المجلس، أو بالاحرى «ردوا» عن النظر فى القضية. وكان رئيس هذه المحكمة العليا المركيز «ايتان والنجر» رئيس البرلمان.

كان المتهمون: الكاردينال دى روهان، والكونتيسة جان دى لاموت، وزوجها الكونت دى لاموت، والأنسة نيكول دوليفا، والكونت دى كاليوسترو، ورينو دى لافيليت.

اعترف دى لافيليت بأن رسائل الملكة كتبت بخطه، وأنه اشترك فى إعداد مشهد «خلوة فينوس» وأنه تسلم العقد من يد الكونتيسة بعد أن أخذته من الكاردينال، ثم أعاده إليها.

وبلغت وقاحة الكونتيسة أثناء المحاكمة مبلغا لا يمكن وصفه. فكانت تشتم وتسب القضاة والشهود، وتفترى على الجميع، وتدعى أن الذين شهدوا ضدها كانوا جميعهم يتوددون إليها ويكاشفونها بغرامهم. وارادت أن تثبت أن الملكة كانت تراسل الكاردينال، وأنها قابلته فعلا فى «خلوة فينوس».

وكانت أقوال الكاردينال أمام القضاة مطابقة لأقواله فى محاضر التحقيق. ولم يخرج ذلك الشريف النبيل لحظة واحدة عن رصانته واتزانه. وقد أعاد على مسامع القضاة رواية الحادث كما وقع.

وجاءت أقوال المتهمين كلها مثبتة لادانة الكونتيسة دى لاموت والذين اشتركوا معها اشتراكاً مباشراً فى إعداد حادث الاحتيال والتمتع بثمرة السرقة.

وكانت الجماهير محتشدة فى الخارج، تتسقط الأخبار، وتعلق عليها، وتنتظر صدور الحكم ببراءة الكاردينال دى روهان.

ولما أخذ رئيس المحكمة يقرأ الحيثيات وتبين الناس أن المحكمة قد غيرت محور ارتكاز القضية فحولتها إلى قضية للفصل بين الملكة نفسها وبين الكاردينال.. وحكمت لصالح الكاردينال، وهتفت الجماهير: «يحيا الكاردينال.. يحيا البرلمان».. وأصبح الكاردينال دى روهان رمزا للمقاومة وممثلا لمعارضة الملكة وكل ما تمثله.

وحكمت المحكمة غيابيا على دى لاموت زوج الكونتيسة وقررت نفى المزور لافيليت وحكمت بأن تطبع رسمة العار بالنار على كل من كتفى الكونتيسة وأن تسجن مدى حياتها ولكن جزءا من ثمن العقد الماسى استغل فى تدبير هربها من السجن بعد عام واحد!!

* * *

الوجه السياسى لقضية العقد الماسى!!

كان لتلك القضية أثر كبير على حياة الملكة مارى انطوانيت رغم براءتها وعدم علمها بشراء العقد الماسى، إلا أن الناس اتخذوا تلك القضية ذريعة للطعن فى الملكة وبذخها وإسرافها الجنونى وايثار اتباعها بأحسن الوظائف. واتخذ اعداء الملكة من هذه القضية مرآة يعكسون عليها كراهيتهم وبغض الشعب لها..

وقد نشرت الكونتيسة دى لاموت فالوا أثناء اقامتها فى لندن، بعد تهريبها من سجن الباستيل، سجلا مفصلا لغراميات الملكة مارى انطوانيت فيه على الأقل ٣٤ اسما لاشخاص عرفتهم الملكة معرفة جنسية!! مما يصعب سرده إلا على لسان شخص عارف باسرار البلاط الفرنسى قبل الثورة الفرنسية أو قادر على التلفيق الجهنمى!!

وفى عام ١٧٩١ كانت سيرة مارى انطوانيت الجنسية ملكا للخاص والعام فى شوارع باريس ونواديها السياسية، فارادت النوادى السياسية استقدام الكونتيسة دى لاموت فالوا من لندن لتدلى بأقوالها أمام محكمة الثورة بوصفها شاهدة، ولكن لوثة من الجنون أصابتها فانتحرت بالقاء نفسها من النافذة. وأسدل موتها المفاجىء ستاراً على الموضوع.

* * *

وفى أثناء محاكمة مارى أنطوانيت، بعد الثورة الفرنسية، احتجزت فى سجن الكونسييرجى بعد اعدام لويس السادس عشر وحاول أحد اعداءها استغلال هذه الفضائح فى قضيتها فلم ينجح إلا فى استدرار العطف عليها بسبب احتقارها إياه، فهذه الأمور الخاصة يصعب اثباتها لأنها تجرى عادة داخل أربعة جدران وبين قوم مدربين فى المحافظة على المظاهر.

ولم يمكن توجيه أتهام محدد إلى مارى انطوانيت فرفع رئيس المحكمة رأسه وقال: المطلوب من المحلفين أن يجيبوا هو سؤال واحد هو: هل هم مقتنعون بأن الملكة السابقة كانت على صلة بالخارج وأنها كانت تعمل على انتصار جيوش الأعداء وعلى اشعال الفتنة داخل البلاد؟

وهكذا طرح الأتهام على وجهه السياسى الذى لا تبرئة منه.

وبعد الخلوة المعهودة للمداولة أجمع المحلفون على أن الملكة مذنبة.

وصدر الحكم بإعدامها فسيقت إلى المقصلة..

* * *

قيل وسارت إلى الموت رابطة الجأش كما تسير الملكات..

● وعلى الذين ينسبون الثورة الفرنسية ويرجعونها إلى كتابات فولتير وروسو وديدور أن يضيفوا إلى اسبابها ذلك العقد الماسى الذى لم تلبسه الملكة مارى انطوانيت أو تلمسه إلا فى خيال من اختلفوا عليها بالباطل وهللوا يوم حوكمت واطاحت المقصلة بعنقها الذى لم يلمسه ذلك العقد الماسى المشئوم.

دى بومبــــــادور

ملكة فرنسا غير المتوجة ..
التسليــم بسلطــان الجمــال!!



كانت نبوءة من قارئة الطالع، ولكن الأم عرفت كيف تعد ابنتها لتصبح ملكة غير متوجة. وكانت الفتاة جميلة وضاءة المحيا، ولكن الجمال وحده يجتذب القلوب ولكنه لا يحتفظ بها. أن للاحتفاظ بالقلوب أسراراً وقد استطاعت الأم أن تدرب ابنتها على حذقها.

مدام بومبادور،

مدام لامركيز،

عشيقة لويس الخامس عشر.

وملكة فرنسا غير المتوجة!!

لم يكن جمالها. ولم يكن ذكاؤها فحسب الذى فتح لها أبواب قصر فرساى فاستولت على قلب الملك وحكمت فرنسا من غرفة مخدعها عشرين عاماً، بل كانت أنوثتها الصارخة وشهوة التسلط والتملك هى التى عبدت لها الطريق بالورد المعطر لتنزلق عليه أقدام هذا الملك الفاتر العزيمة الفاتر الدم، فتتلقفه ذراعاً مدام بومبادور كأنه طفل كبير، وتفتح له آفاقاً جديدة من المتع.

كانت مدام بومبادور تقول أن الحياة معركة، وقد كانت حياتها معركة طويلة فى سبيل الطموح، نزلت إلى ميدانها تحمل كل سلاح للمرأة، لا تعترف بشئ سوى النصر النهائى، إذ ليس فى شرعه الحرب مكاناً لفضيلة من الفضائل سوى ما تقضى تقاليد المعارك من كر و فر، ونكوص ووثوب، وخديعة ووقيعة، أرادت أن تكون عشيقة للملك، وأرادت لها أمها أن تكون خليلة الملك، وأراد لها وصيها أن تكون محظية الملك، فكان لها ما أرادت وما أرادوا لها، وعشيقات الملوك فى ذلك العهد كن ملكات غير متوجات، وهكذا أصبحت هذه المرأة المغامرة ملكة على فرنسا لا ينقصها سوى التاج!

* * *

نبوءة الأميرة الصغيرة!

عندما جاءت مدام بومبادور إلى الحياة باسم «أنطوانيت بواسون» فى ٢٩ ديسمبر ١٧٢١ كانت أمها مادلين ديلاموت عشيقة لرجل من رجال المال فى باريس يدعى تورنهيم بعد أن ساقت المتاعب زوجها مسيوبراسون إلى النفى فتخلصت بذلك من حياة الكفاف والعوز، وفتحت الطفلة عينها لترى أمها محظية لرجل لا تحمل اسمه ولكنها لا تعف عن أن تنتسب إليه، بل تكن له شيئاً من الوفاء إذ جعل من نفسه وصيا على الطفلة الجميلة ذات الخدود الوردية والشعر الذهبى الكثيف، فاغدق عليها من ماله وأحاطها بمظاهر الرفاهية وألوان البهرج، ولعله قد نفذ ببصيرته إلى قرارة نفس

الأم وهى ترقب جمال طفلتها يتفتح فى براعمه يوماً بعد يوم، وأحس بما يلتعج فى نفس هذه المرأة من رغبة فى أن تجدد شبابها فى شباب ابنتها وأن تغزو بهذا الجمال ميادين أخرى غير التى غزتها بين طبقات البرجوازية، إذ ما أكثر الفاتنات اللاتى فتحت لهن فرساى أبوابها واستولين على قلب الملك، فرأى مسيو تورنهيم أن يصقل هذا الجمال الموعود بالرعاية، وهو بحكم مهنته صيرفى تعود رنين الذهب الخالص وبريق الأحجار الكريمة التى يزيدها الصقل صفاء وإغراء، لهذا يسر لانطوانيت الصغيرة سبل التعليم وكان التعليم بعيد المنال فى ذلك العصر عن ابناء الطبقات الوسطى والدنيا ولكنه تعليم تحددت أهدافه ومراميه بالقدر الذى يجعل صبية اليوم امرأة مكتملة الأنوثة متسلحة بشئ من وسائل الإغراء، ولا حرج ما دامت من الفنون التى أقرها المجتمع واعترف بها العرف الشائع، ولم يكن فى هذه التقاليد مع شذوذها ما يجافى الذوق أو الأخلاق العامة فى باريس فى ذلك العصر.

وهكذا نشأت أنطوانيت بواسون لتكون محظية تستهوى عقول الرجال وتستلب عقل الملك بصفة خاصة، بل أنها ما كانت تجهل هذه الأمنية، إذ كان خليل أمها يدللها ويدعوها بالأميرة الصغيرة، وكانت أمها توسوس لها فى أذنها وتملأ صدرها الصغير بالأحلام الذهبية، وهى تجدل ضفائرها وتحزم خصرها ليزداد نحولا، وتختار لها من الثياب ما يبرز أنوثتها، فتبدو الطفلة كأنها امرأة صغيرة أو دمية كبيرة.

وفى ذات يوم وفدت على البيت امرأة تدعى العرافة وكانت أنطوانيت على عادتها من المرح، وقد ارتدت ثوباً فضفاضا الذيل من المخمل الأحمر نسج باسلاك ذهبية وصففت شعرها على هيئة تاج محلى بالزهور الصغيرة، وراحت تتكسر فى مشيتها كأنها غانية، وتبعتها العرافة بعين خبيرة وابتسمت لها وربتت على كتفها وتنبأت لانطوانيت - وكانت فى التاسعة من عمرها - بأنها سوف تكون عشيقة للملك!!، ولعل كل فتاة مثل هذه الفتاة كانت تطمع فى أن تكون من محظيات القصر فلم تكن هذه نبوءة بالمعنى الصحيح.

راحت الفتاة تطوى مدارج الصبا وأحاط بها المعجبون من الفتيان ممن كانوا أوفر سنا منها، إذ كانت تنفر من صحبة الفتيات من اندادها وتأنف من ألعاب الصغار، وكان هؤلاء الفتيان يسترضونها بالهدايا والملق فتستجيب لهم ولا تنفرهم منها، فلم

تكن طفولة أنطوانيت بريئة ساذجة، ولم تتفتح أنوثتها حتى وجدت حولها حاشية من العشاق كل واحد منهم يجذبها إلى ناحيتها، ويريدها لنفسه خليلة أو زوجة وكان لابد أن تنتهى الجولة الأولى منها حياتها بخاتمة ترضى عنها الأم على الأقل ويوافق عليها وصيها، وأن لم تحقق طموح أنطوانيت التى بلغت من عمرها عشرين ربيعا، لهذا قبلت يد المسيو «دتوال» وهو شاب من أصحاب المال يمت بصلة إلى المسيو تورنهيم خليل أمها، وكان من المقطوع به أن هذا القران كان زواج ضرورة فهو وأن لم يرضى مطامع أنطوانيت فإنه على الأقل رفع مدام دتوال إلى طبقة البرجوازية وفتح لها أبواب صالونات باريس، فضلاً عن أن ثراء زوجها قد منحها الكثير من مطالب الرفاهية التى تنشدها وأن كان لا يقاس بحياة البذخ والاسراف التى كان يعيشها النبلاء والأمراء، فما بالنا بالملك نفسه الذى وصل فى اسرافه إلى حد السفه.

كان لويس ولا أحد سواه ضالة مدام دتوال وهدفها الذى تنشده وهى واثقة من أن هذه القلعة لن تصمد طويلاً أمام فتنتها وأغراءها!!، ألم يكن يدعونها «أكثر الباريسيات باريسية!» فتبتهج بهذا الوصف ويملأ صدرها زهوا. كان عليها إذا أن تسعى لتلتقى بالملك ولو إلى لحظات قصار، وهى كفيلة بأن توقعه فى شباكها، وطفقت أنطوانيت تطارد الملك فى كل مكان يتردد عليه دون أن تسنح لها مناسبة كما تشتهى، وظلت هذه المطاردة ثلاث سنوات حتى تهادت لها أخيراً هذه الفرصة فى ذات ليلة من ليالى شتاء ١٧٤٥ عندما أقامت بلدية باريس حفلة تنكرية راقصة ابتهاجا بزواج ولى العهد، وأقبل الملك من ناحية، وأقبلت مدام دتوال من ناحية أخرى، أقبلت ساحرة فاتنة كأنها سندريلا، أقبلت للغزو والفتح والسلب..

***

وسقط الفأر فى المصيدة!!

كان طفلاً فى الخامسة من عمره، عندما جلس لويس على العرش فى المكان الذى خلا من جده لويس الرابع عشر الذى كان يقول: «أنا الدولة والدولة أنا» فاستلب الأوصياء سلطان الطفل والتف الباحثون عن الجاه والنفوذ حول الدوق أوليان ثم حول خلفه الدوق بوربون، واقفرت قاعات فرساى وخفتت أضواؤها الباهرة، وانقطع الهمس

بين الحاشية إذ لم يعد القصر مكانا للمؤامرات والدسائس والفضائح التى يعيش عليها خدم القصور، والملك الطفل يدرج بخطى وئيدة، ولا يعرف حتى أكثر الناس تفاؤلا عما إذا كان يقدر لهذا الصبى الهزيل أن يجلس على عرش لويس الرابع عشر، وامتدت أيام الصبى الهزيل، وجلس على عرش فرنسا فى سن الثالثة عشرة، وبعد عامين أصبح لويس زوجاً!

لقد كان الوصى الدوق بوربون يحكم فرنسا ومن وراءه عشيقته المركيزة «دبرى»، وقد رأت هذه المرأة أن تختار للملك الصبى زوجه لا تسلبها السلطان الذى تتمتع به باسم زوجها الدوق، فوجدت فى «ماريا لرينسكا» ابنه ملك بولندا المطرود المراد التى إذا ما قدر لها وأصبحت ملكه على فرنسا ستكون وفية للذين رفعوها إلى هذه المنزلة، لقد كانت هذه الأميرة البولندية أكبر من الملك سنا، وأن لم تكن دميمة الخلقة فكانت على الأقل فاترة جامدة العاطفة منطوية على نفسها.

وكان لويس فى شبابه الأول بليد الحس فاتر العزيمة خائر النفس فارغ الرأس، وإذا كان قد تعلق بما يبدو أنه فضيلة من الفضائل فذلك لأنه كان فى خوف دائم من عقاب جهنم ذلك الخوف الذى قوى فى نفسه بفضل تعاليم مرشده الأسقف فليرى الذى أصبح بعد ذلك وزيره الأول، فلم يكن لويس رجلاً فاضلاً بل كانت فضيلته جبنا، وأن كان حتى ذلك الحين وفيا لزوجته التى أنجبت له ولدين وعدداً من البنات فإن وفاؤه كان ضعفاً وعجزاً.

ولم تكن الحاشية لترضى بهذه الحياة الفاترة التى كان يسبح فيها القصر، ولتكن سياسة التقشف التى فرضها الكردينال فليرى لتقهر روح البذخ التى تعودها النبلاء ومن لاذ بهم من طفيليات القصور والتى لا تنتعش إلا إذا كان الملك نفسه يحميها ويرعاها كما كانت تجرى الحياة فى فرساى عندما كانت عشيقات الملك يحكمن باسم الملك، وكانت الدسائس تشغل بال الحاشية والفضائح وأخبار المغامرات الليلية تصرف الأذهان عن الأحداث الكبرى التى تمر بها البلاد، فإن ملكا بليد العاطفة وقصراً خلا من الدسائس ليس فردوساً ينشده الانتهازيون والمغامرون، فكان لابد أن يفعل خدم القصر شيئاً!

وهكذا أخذت عاصفة خفية تتجمع شيئاً فشيئاً فوق فرساى لتوقظ الملك الغافى،

فدار الهمس خلف الأبواب ونسجت خيوط مؤامرة كان على رأسها الدوق ريشيليو لكى تخرج لويس من القوقعة التى كان يعيش فيها، ونجحت المؤامرة مرحلة بعد مرحلة، فأقبل الملك أولا على الطعام حتى أصبح نهما أكولا، ثم تذوق النبيذ حتى أفرط فى الشراب، وتعود الخروج إلى الصيد والقنص، وأخذت غرائزه الحيوانية تتفتح باحثة عن آفاق جديدة من المتع واللذائذ، حتى استسلم فى النهاية إلى مروضيه، ولم تقعده وازع من كرامة عن المغامرات الجريئة سوى ذلك الخوف القديم الذى عشش فى قرارة نفسه والجبن الذى قر فى طبيعته، وقبل أن يفيق إلى نفسه ويستبد به النوم فيسرع إلى غرفته باكياً منتحبا كما كانت عادته، كانت المصيدة قد أعدت له، إذ غامر أحد خدم القصر فألقى بين ذراعى سيدة بفتاة جميلة من الوصيفات تدعى مدام «مايلى» فسقط الفأر فى المصيدة.

أين كان الكاردينال فليرى وصية الروحى؟ وأين كانت الملكة؟ قيل أن الكردينال الذى أصبح لا تشغل باله سوى أمور السياسة والمال قد أغمض عينيه وادعى أنه لم ير شيئاً، بل قيل أن يدا كانت له فى هذه المؤامرة! أما الملكة فقد رأت كل شئ واعترفت بواقع الأمر بل أنها اعتبرت هذا الواقع تطوراً طبيعياً لشخصية لويس! أى أنها قد اعترفت بفشلها كأنثى فى ارضاء نزوات هذا الشاب الذى بدأت حيوانيته تتفتح وتبحث عما يشبع نهمها.

أن رجلاً مثل لويس فى الخامسة والعشرين من عمره فارغ العقل يقضى يومه فى التثاؤب لفى حاجة إلى ما يبدد سأمه، ولم تكن الملكة التى نامت غرائزها النسوية والتى كانت تكبر زوجها فى السن بالمرأة التى تملأ فراغ هذا الرجل البارد القلب الثائر الدم.

وهكذا أصبحت مدام مايلى العشيقة الرسمية للملك، الذى وكأنه اكتشف نفسه فجأة انطلق يعدو فى هذا الميدان الجديد بأسرع مما كان يقدر له مروضوه!

وكما أن لويس لم يعد وفيا لزوجته فإنه لم يعد وفيا لعشيقته، بل سرعان ما هبط بالمثل الأخلاقية حتى فى غرامياته إلى القاع! كانت مدام دى مايلى الأخت الكبرى لخمس فتيات من أسرة تدعى «نسلى» اشتهرت بالجمال والذكاء، وبعد أن استوت مدام مايلى فى مكانها بعض الوقت وخشيت غدر الملك بها ارسلت تستدعى أختها الثانية وكانت نزيلة بأحد الأديرة وقدمتها بنفسها إلى الملك لكى تحتل المكانة التى خافت أن

تفقدها وتسلبها اياها امرأة غريبة عنها ، وأختها أقدر منها على اصطناع النفوذ السياسى التقليدى لعشيقات الملك وهو دور لم تجد مدام مايلى فى نفسها الكفاءة اللازمة للقيام به، وقد نجحت الأخت فى مهمتها واستولت بالفعل على قلب الملك ولكنها كانت من الوفاء لأختها بحيث أنها لم تعمد إلى ابعادها من القصر، بل رضيت بأن تشاركها فى قلب الملك وجسمه، ولما أحست بالحمل عمل الملك على تزويجها زواجا صوريا إلى المركيز فانتميل أحد أحفاد كبير اساقفه باريس! كما تزوجت الأخت الثالثة لمدام مايلى إلى الدوق لوراجيز وانضمت إلى شقيقتها فى قصر فرساى للترويح عن هذا الملك، الذى يبدو أنه لم يكن يستمرئ هذه المتع الجنسية إلا بغمسها فى الدنس.

وبينما كان الشعب يرزح تحت الضرائب الجائرة التى امتصت دمه كان الملك وحاشيته يعيش حياة بذخ واسراف واستهتار دون اعتبار لتقاليد أو عرف، وكان النبلاء من حوله يتنافسون فى ألوان من الاباحية الصارخة، وتدرج الملك فى غرامياته إلى اقتناص عشيقاته من بين الطبقات الشعبية مما أثار ثائرة النبلاء لا حرصا على الأخلاق بل دفاعا عن طبقتهم التى كانت حتى ذلك الحين وقفا على الملك فى اختيار محظياته أو تصارع الأباء فى سبيل النفوذ والسلطات عن طريق بناتهم بعد أن منح لويس خليلته مدام مايلى لقب «دوقة شاتورو» واصبحت الحاكمة بأمرها باسم الملك!

أرادت الدوقة شاتورو أن تحتذى سيره «آن سوريل» عشيقة الملك شارل السابع فحفزت الملك المتشائب على أن يلحق بجيوشه المحاربة فى الفلاندرز كى يستثير حماستها بوجوده، ويكسب لنفسه نصراً قومياً، فسافر الملك ولحقت له الدوقة فى حاشية كأنها ملكة متوجة تستقبل فى كل بلدة تمر بها استقبالا حماسيا من الشعب!

ولكن ما أسرع أن ارتد الملك متقهقراً إلى مدينة متز بعد أن منيت جيوشه بالهزيمة، وهناك أصيب بالحمى ولعل المرض قد أيقظ فى نفسه روح الندم لاستهتاره ومباذله فلم يجد تكفيراً لذنوبه إلا أن يصيب جام غضبه على عشيقته التى كانت تعنى به حول سرير مرضه، فتعمد اهانتها وأمر بأقصائها على الفور، وكانت لهذه الثورة الروحية أثرها فى الشعب الذى هزته توبة مليكة فركع يصلى داعيا للويس بالشفاء..
وعاد لويس إلى باريس، فكان أول أمر أصدره أن أعاد الدوقة شاتورو إلى القصر وأمر بنفى جميع من ترسم فيهم العداوة لها، ولكن انتصارها كان قصير العمر إذ أن الموت عالج الدوقة شاتورو على الأثر وهى بعد فى العشرين من عمرها.

كان مسيو «دتوال» يحب زوجته حبا جارافاً، ولكنها كانت تقابل عواطفه بفتور وتحفظ، والحقيقة أن مسيو دتوال لم يكن فارس أحلامها الذى تتعشقه امرأة مثل أنطوانيت بواسون، إذ كان هضيم الجسم تعوزه سماحة الوجه كما تعوزه اللباقة وأصول الاتيكيت التى تستهوى امرأة مثل زوجته تعتبر نفسها باريسية أكثر من الباريسيات، ومع ذلك فكانت من الذوق بحيث أنها لم تكن تبدى نفورا من رجل رفعها إلى مرتبة البرجوازية، وكانت صالونات قصره بالقرب من غابة سينار ملتقى الطبقات الراقية، وهكذا اتصلت أنطوانيت بالمجتمع الباريسى الذى كان تطمع دائماً فى الامتزاج به، وأهم من هذا كله أن الملك كان يتردد على غابة سينار للصيد والقنص فلم تعد أنطوانيت فى حاجة إلى افتعال الفرص للقاء الملك الذى كان يمر أمام عتبة بابها تتبعه حاشيته الكثيرة من رجال ونساء، وكادت تنجح ذات مرة فى لفت أنظار الملك إليها إذ خرجت تقود عربتها وقد ارتدت ثوبا ورديا وتزينت بطريقة مثيرة خلابة وتعمدت أن تعترض طريق الملك، ولكن مدام شاتورو وكانت متيقظة لها وأحست بالحيلة فأسرعت إلى أبعاد لويس عن طريقها حتى لا تلقى عينه بها.

والآن وقد خلا مكان الدوقة شاتورو لم تتردد أنطوانيت لحظة فى أن تملأ هذا الفراغ، ونجحت أولاً فى أن تجعل الملك يعترف بوجودها، لم يثبط لويس محاولتها للتقرب إليه، فدرج على أن يرسل إليها بعض الصيد الملكى الذى جرت التقاليد على أن يوزعه الملك على خاصيته والمقربين إليه، ثم انقضى شهران على وفاة الدوقة شاتورو وبدأت شهية لويس تتفتح لصيد جديد.

وفى ليلة من ليالى فبراير ١٧٤٥م أقامت بلدية باريس حفلة تنكرية راقصة بمناسبة زواج ولى العهد بأميرة أسبانية، واعتزمت أنطوانيت على أن تجعل هذه الليلة معركتها الفاصلة، فجاءت إلى الحفل فى باهر زينتها، وأخذت تتحرش بالملك، حتى إذا اطمأنت إلى أنه يتبعها بناظريه شقت حلبه الرقص حتى إذا كانت أمام لويس تعمدت اسقاط منديلها عند قدميه، فما كان من لويس إلا أن انحنى والتقط المنديل وقدمه إلى صاحبته كما كان يفعل فرسان القرون الوسطى! وما كاد يفعل حتى سرى الهمس بأن عشيقة جديدة فى طريقها إلى قصر فرساى.

كانت الحاشية أسرع من الملك فى تنفيذ رغبته!، واضطلع بهذه المهمة أحد أفراد الحاشية ويدعى «بينيه» الذى جعل من أبيه وسيطاً بين أنطوانيت وسيدة، ولم يكن الأمر يحتاج إلى وساطة أحد بل إلى تدبير وتنفيذ، فقد أصبح معروفاً منذ تلك الليلة أن مدام دتوال أصبحت خليلة الملك، ولم تمض أيام حتى شوهدت فى طريقها إلى فرساى وكان الملك فى انتظارها، ثم شوهدت مرة ثانية وثالثة، وبدأ الحرس يألفون رؤية عربتها المقفلة، ثم انقطعت زيارتها فجأة، فدار الهمس بأن الملك الذى لم يخلص للدوقة شاتورو قد فترت علاقته سريعاً بمدام دتوال، ولكن الحقيقة أن لويس أصبح أشد كلفا بهذه المرأة التى أعدت نفسها فى اصرار عجيب لكى تكون عشيقة له، فليس من الهين أن تتخلى عن مكانها على هذا النحو، ولعلها أرادت أن تجعل من غرام الملك بها فضيحة تتناقلها صالونات باريس، فشجعت لويس ومن وراءها أمها على أن يسعى إليها هو، وفى هذا ارضاء لغرورها، ولم يقاوم الملك هذا الاغراء، بل لعله أراد أن يمتحن جرأته وأن يجرب شجاعته فى مغامرة غرامية، والحقيقة أن لويس بدأ يتخلى نهائياً عما تقضى به تقاليد القصر، وأصبح لايهاب العيون المطلعة إليه، ولا همس الهامسين وراء ظهره، ولم تكن هذه شجاعة منه بل رجوع إلى بلادته القديمة.

وفى ذات مساء خرج الملك فى عرب مقفلة اتجهت إلى باريس وانتهت إلى منزل فى شارع «بوترانفانت» يقابل قصر الوزراء، ولم يكن رجال البوليس يجهلون ما يجرى حولهم، إذ أن مدير الشرطة كان على علم بتنقلات الملك، وهكذا نقل لويس مسرح غرامياته من القصر إلى الشارع. نزل بينيه من العربة وطرق باب المنزل، ثم تبعه الملك، الذى استقبلته مدام بواسون بتقبيل يديه الكريمتين، وهى التى جعلت من بيتها عشا لغرام الملك، وعلى درج السلم وقفت ابنتها وقد مدت ذراعيها لتقود لويس إلى مخدعها الذى فاضت منه رائحة العطر، وجلست الأم تتحدث إلى الخادم بينيه وهى جد فخورة بما قدمته من يد فى تدبير هذه المؤامرة الخسيسة، بينما كان الملك مع ابنتها - وفى غفلة من زوجها - فى خلوة داعرة! وتكررت زيارة الملك إلى منزل مدام بواسون ثم انقطعت، ولعل لويس قد تحركت فى نفسه روح الشهامة أو الكرامة، أو لعله قد أرضى نزواته، فأراد أن تنتهى مغامرته عند هذا الحد، ولكن أنطوانيت ما كان لها أن تقف فى منتصف الطريق فإنها لم تحقق بعد أمنيتها التى عاشت لها خمسة عشر عاماً، فكان

لابد لها وأن تفعل شيئاً حاسماً متذرعة بكل ما فى طاقتها من اغراء وما فى نفسها من أنانية ومن قحة وما فى قدرتها من مهارة فى نصب الشباك ومن خلفها أم نبذت كل حياء أو خجل، فسارت أنطوانيت للقاء الملك فى القصر نفسه..

عندما علم لويس بأن مدام دتوال فى فرساى وأنها تصر على مقابلته لم تثر فى نفسه هذه المفاجأة عجباً لأن طبيعته الباردة جعلته يأخذ الأمور ببلاده واسترخاء، لقد جاءت هذه المرأة بقدميها إلى فرساى لتضرب ضربتها النهائية وقد اعدت كل شئ ودبرت كل شئ، إنها فى فرساى التى اتسعت من قبلها لمدام ماينتيون والدوقة شاتورو فهى لن تضيق بها، وهى كذلك لا يصدها صاد عن غايتها ولا تلقى سلاحها فى سهولة ويسر.

فلما دخلت أنطوانيت على الملك ألقت بنفسها على الأرض وتعلقت بقدميه وقد سبحت فى دموعها! إنها قد جاءت تستجير به وتطلب الحماية من زوجها الذى علم بخيانتها واعتزم قتلها، أنها ضحية غواية الملك فمن الشهامة أن ينتصر لها الملك وأن يفرض عليها حمايته.. لقد كانت بارعة فى تمثيلها، بارعة فى تصوير عواطفها، بارعة فى ايقاظ اعتزاز الملك بقوته ولا نقول ايقاظ شهامته ونخوته، لقد لعبت دورها فى براعة وثقة، وهكذا وقع لويس فى الفخ الذى نصبته له، فأمر على الفور بأن تبقى مدام داتول فى القصر وأن يخصص لها مكان تلزمه بعيداً عن العيون!

وفى مساء اليوم نفسه، الثانى والعشرين من ابريل ١٧٤٥ كانت مدام دتوال تتناول طعام العشاء فى إحدى قاعات قصر فرساى بين الدوق ريشيليو والدوق لوكسمبورج، وفى صباح اليوم التالى أخلى لها المخدع الذى كان لعشيقة الملك السابقة الدوقة شاتورو!

كان لويس على أهبة السفر للحاق بجيوشه المحاربة على حدود فرنسا الشرقية، فلم تقف مدام دتوال فى طريق ما اعتزم عليه وكان فى مقدورها أن تفعل حتى لا يتركها لويس فى القصر وهى بعد لم تثبت أقدامها ولم يعترف بها عشيقة رسمية! فسافر الملك وفى صحبته ولى العهد، وجاءت المعركة الفاصلة عند فونتنوى التى انتصرت فيها فرنسا ولكن بعد أن بذلت دماء آلاف من رجالها، بيد أن الشعب الذى كان يبحث عن النصر مهما كلفه الثمن اهتز زهواً لهذا الانتصار والتف حول الملك الذى

كأنه كسب هذه المعركة لنفسه، وفى حومه هذا الحماس عاد لويس إلى باريس وإلى قصر فرساى وكانت مدام دتوال فى انتظاره، ومنذ هذه الساعة أصبح معروفاً أن هذه المرأة قد أصبحت عشيقة الملك الرسمية، وفى حفلة الاستقبال الكبرى التى أقيمت فى القصر بهذه المناسبة وحضرتها الملكة وولى العهد والأمراء وكبار رجال الدولة قدمت رسمياً إلى الملك مدام دتوال فتفضل جلالته ومنحها لقب مركيزة بومبادور، ومنذ هذه اللحظة اختفى اسم مدام دتوال من كتب التاريخ والأدب فلم نعد نسمع إلا عن «المركيزة دى بومبادور» أو عن «مدام لامركيز» كما أصبح اسمها يتردد فى أغانى ذلك العهد..

لم تكن عشيقة الملك بعد أن اعترف المجتمع الفرنسى بها ومنحها الملك لقب المركيزة بالمرأة التى تدخل القصر من بابه الخلفى أو من وراء ستار، بل أصبحت السيدة الثانية فى القصر بل السيدة الأولى، فإن الملكة تخلت لها عن مكانها الطبيعى، وأصبحت هذه المرأة تحيط نفسها بجميع المظاهرة والمراسيم التى تحاط بها الملكة المتوجة، بل تعينت لها وصيفة من أميرات الأسرة المالكة هى الأميرة كونتى، وأصبح لها جناح فى القصر له من الخدم والأتباع ما للملكة نفسها..

* * *

حرب مع الملل!

كانت مدام هوسيه خادمتها الخاصة تدون يومياتها وتضمنها الكثير من الملاحظات الصغيرة عن شخصية سيدتها، كانت تقول أن مدام بومبادور مع صلابة ارادتها سيدة شديدة القلق تفزع من كل ريح تهب وتتصور الدسائس تحاك لها فى الظلام، كان لابد لها من أن تنام مفتوحة العينين، لهذا كان الرجل الثانى الذى يجب أن تشترى صداقته قومسير البوليس الذى بث عيونه وارصاده فى كل مكان لكى يتسقطوا لها الأخبار من الصالونات والشوارع ومن دواوين الحكومة، بل لم تكن هناك من فضيحة غرامية أو مغامرة ليلية إلا وتصل أخبارها إلى مدام بومبادور، بل أن عيونها وجواسيسها كانت تترصد سفراء الدولة الرسميين فى خارج فرنسا.

أما لويس فكان غارقاً فى طوفان من المتع التى كانت مدام بومبادور بارعة فى ابتكارها، لم يكن جمالها نادر المثال فحسب بل كانت حيويتها الفياضة وجاذبيتها

الحيوانية، كفيلة باشباع نهمه الجنسى، وكانت أناقتها وافتتانها فى ثيابها وفى زينتها تسحران عين الملك فتبدو وكأنها عروس دائمة، وكانت تصفف شعرها على طريقة الملكات وتحافظ على زينتها اليوم كله، وكانت تهوى العطور القوية النفاذة التى تتضوع منها كأنها أميرة من الشرق، هكذا أصبحت مدام بومبادور بحق أكثر الباريسيات باريسية، بل تركت وراها للأجيال تراثا فى عالم الأزياء ينسب إليها ويعرف باسمها، وفتح لها الملك خزائنه فراحت تغرف منها بلا حساب ولا رقيب عليها.

أصبح لويس أسير هذه المرأة التى ملأت كل فراغ حياته وجعلت نفسها وصية عليه ومنفذه لرغباته ومسحت من جبينه ذلك الملل الذى كان يسيطر عليه من شروق الشمس إلى مغيبها فلم تكن تدعه لحظة لينطوى على نفسه أى يتثاءب، فتعاونت طبيعتها مع تعليمها فى ابتكار شتى وسائل التسلية والاغراء، كانت تجيد التمثيل والغناء والرقص ورواية النوادر والفضائح كأنها شهر زاد جديدة، وكانت إذا أحست الضجر يتسرب إلى نفسه تغريه على الانتقال من مكان إلى مكان وهى فى صحبته تدبر كل شئ، وتتبعها حاشية كبيرة دون اعتبار للنفقات الباهظة التى كانت تتكبدها هذه الرحلات الملكية الدائمة.

ثم ابتكرت مدام بومبادور طريقة جديدة لشغل فراغ الملك وحاشيته، بأن أقامت مسرحاً فى القصر كان رجال الحاشية والوصيفات الممثلين والممثلات فى المسرحيات التى كانت تعرض على خشبته، والتى كانت الدوقة تغرى الأدباء على تأليفها، وكانت هى تقوم بالدور الرئيسى فى هذه المسرحيات وكانت تختار شخصية البطلة اختيارا يتناسب معها، وكان الملك يبتهج عندما يرى عشيقته فى دور أفروديت أو فينوس آلهة الحب، ولم يكن يسمح بحضور هذه المسرحيات أو مشاهد الباليه التى تعرض على هذه المسرح سوى لطائفة خاصة من المقربين.

لقد كانت مدام بومبادور فى حرب مع الملل الذى تخاف أبداً أن يتسرب إلى قلب الملك فيزهد فى قربها، فرأت أن تنقل لويس من قصر فرساى بقاعاته الرحبة الفسيحة وحفلاته الرسمية وتقاليده الملكية التى كثيرا ما يتبرم بها إلى حيث تكون أقرب إليه ويكون فيها حرا طليقا من مراسيم القصر، فبدأت فى بناء عدد من القصور الصغيرة فى كثير من أنحاء فرنسا، لقد كان غرام هذه المرأة بالعمارة لا يقل عن حبها للأزياء

الفاخرة، فجمعت حولها أشهر مهندسى ذلك العهد وأشهر الفنانين والمصورين والمزخرفين وصانعى الأثاث، وكانت تفرض عليهم ذوقها الخاص الذى وان لم يكن يرقى إلى مرتبه الفن الحقيقى، إلا أنه كان يمثل طبيعتها النسوية المحبة لكل ما هو زاه متألق مبهرج مبتكر مما ليس له شبيه فى قصور الملك، لقد أنفقت ملايين الجنيهات فى بناء وتجميل قصر التريانون، وقصر شواذى، وكريسى، ومنترو، ولاسل، وفونتميلية، وأولنى، وسان ريمى، وبلفيه..

وعند افتتاح قصر بلفيه عام ١٧٥٠ أعدت مدام بومبادور هدية لكل ضيف مَن ضيوفها وضيوف الملك هى ثوب من قماش نادر قرمزى اللون مبرقش باسلاك الذهب تكلف الثوب الواحد منه مائة وألفا من الجنيهات الفرنسية، ولم تكن مدام بومبادور تكتفى بالهدايا الفاخرة تقدمها للأنصار والاتباع ولشراء الأصدقاء، بل كانت تنفق المال جزافا وتمنح الصلات والهبات الطائلة بلا تقدير حتى قيل أنها كانت تلقى بالمال من النافذة دون أن تعده، ولم تكن مدام بومبادور تكتفى بالجديد من القصور والأثاث فحسب، بل كان همها أن تفاجئ الملك فى كل مرة يزور فيها قصرا من هذه القصور الخاصة بشئ جديد مبتكر فكانت تعيد زخرفته فى كل مرة وتجدد أثاثه وتقتنى فيه نادر التحف، وكان الملك يعجب بكل هذا ويزداد تعلقه بها.

* * *

أين كانت الملكة؟ وأين كان ولى العهد والأميرات؟ بينما أطلقت يد مدام بومبادور فى كل شئ من شئون الملك الخاصة وشئون الدولة العامة؟ لقد كانوا جميعا فى فرساى يشاهدون فصول هذه المسرحية دون أن يفعل واحد منهم شيئاً، بل دون أن تتكتل العناصر المعادية للدوقة فى شبه حزب من أحزاب المعارضة، إذ أن بومبادور جمعت حولها الاتباع والحاشية وقربت إليها كل صاحب نفوذ، بل كانت تعين الوزراء والقواد من خاصتها دون اعتبار لكفاءة سوى الولاء لها، لقد أصبحت الملكة كماً مهملا فى القصر، وانطوت على نفسها أكثر من ذى قبل، ولكن المركيزة كانت من اللياقة بحيث كانت تبدى لها الاحترام الواجب لمقامها، فلم تثر بذلك حفيظتها، ولكنها لما لم تستطع أن تكسب صداقة ولى العهد عمدت إلى التشهير بسلوكه الشاذ، أما الأميرات اللاتى كن يتعلمن فى دير «فونتفرولت» فكن إذا ما عدن إلى فرساى عشن فى شبه صومعة

بعيداً عن أضواء القصر، وكانت مدام بومبادور تعاملهن كأطفال فإذا بدر منهن ما يدل على عدم الرضا أسرعت وقدمت إليهن بعض الهدايا الصغيرة، لقد علمتهن أن يحترمنها على أنها ضيفة أبيهن. ولقد كانت النزعة الدينية متسلطة على الأسرة المالكة، بينما كان الملل نفسه يعيش حياة داعرة لا ضابط لها، حتى أن الدوق اورليان أكبر الأمراء سنا نزع فى أخريات أيامه إلى التنسك فالتجأ إلى دير سنت جنفييف حيث توفر على تأليف بعض الكتب الدينية قبل وفاته، وهكذا كان الشئ ونقيضه يعيشان جنباً إلى جنب فى قصر فرساى!

* * *

عواصف!!

كانت مدام بومبادور ممثلة بالسليقة والتعليم، وكانت تقوم بدورها كممثلة، فهى لم تكن تجهل أن لها أعداء، وأن الشعب يحتقرها، وأن الخاصة تمقتها، فهى مهما صنعت لكسب الأنصار والأتباع فلن يتملكها الغرور بحيث تنكر أمام نفسها بأنها ليست إلا عشيقة ومحظية للملك، وكانت هذه الفكرة لا تبرح خيالها، وجعلتها دائمة القلق مع كل مظاهر الفرح التى كانت تحيط نفسها بها، وعندما بدأت تنتشر فى فرنسا بعض الأغانى التى تسخر منها ضاقت بها، وعندما تسربت هذه الأغانى الشعبية إلى باريس أصبحت المركيزة عصبية المزاج فرصدت العيون للبحث عن مؤلفى هذه الأغانى التى صورت مدام بومبادور فى صورة امرأة وضيعة الأصل تحاول أن تحتفظ بنفوذها مهما كلفها الثمن، ثم تعرضت هذه الأغانى للملك نفسه!، فأثارت الدهشة أولاً لأن الجماهير لم تكن تألف حتى هذا التاريخ التعريض بصاحب التاج مهما كانت أخطاؤه، ولكن عندما تضاعفت هذه الأخطاء وبدأ الشعب يحس بوطأة الفقر بسبب اسراف الملك وعشيقته، فقد لويس عطف الجماهير، وقابل الملك وعشيقته هذه الحملة بالشدة، فامتلأت السجون بمن حامت حولهم الشبهات بتأليف هذه الأغانى واتهموا بترديدها أو قراءتها أو نشرها، والتى تتعرض لحياة الملك الخاصة أو لمدام بومبادور أو لرجال الحاشية الذين انغمسوا بدورهم فى أحط أنواع الرذائل، فكان المارشال ساكس يتعقب كل منافس له فى غرامياته بأقسى أنواع الانتقام، ولم تنج ممثلته التى حاولت الافلات من يده من القاء القبض عليها، بل أن السجن قد امتد إلى الكاتب «مارمونتل» الذى

عرف بولاء» للمركيزة لأنه نظم بضع أبيات من الشعر تعرض فيها للدوق أومام، وكان نصيب الكونت «موررباس» وزير البحرية الطرد من وظيفته لأنه اتهم بنظم أبيات من الشعر دسها تحت طبق المركيزة على مائدة الطعام، حدث كل هذا بينما لم تدخر مدام بومبادور وسعا فى ارضاء كبار الأدباء فقربت إليها فولتير ومونتسكيو بل وضعت مؤلفى الانسكلوبيديا الفرنسية الأولى تحت رعايتها.

لقد كان من السهل أن تستثار خواطر الجماهير ضد مدام بومبادور ببث الشائعات الكاذبة التى لا يقبلها المنطق السليم، فقد حدث فى عام ١٧٥٠ أن صدرت الأوامر إلى البوليس بجمع الأطفال المشردين من شوارع باريس لارسالهم إلى المستعمرات الفرنسية الجديدة بأمريكا الشمالية، وقد استغل البوليس هذه الأوامر فألقى القبض على جميع الصغار الذين التقى بهم فى الشوارع أو الحدائق العامة دون تمييز، وذلك لكى يطالب الأثرياء من الآباء بدفع دية مناسبة لرد أبنائهم، كان هذا من فعل البوليس ولمنفعته الخاصة، ولكن الشائعات انتشرت فى ذلك الحين بين الجماهير بأن هؤلاء الصغار يجمعون ويذبحون لاعداد حمام من دمائهم يسبح فيه الملك العربيد ليعيد إليه شبابه!! ومع سخافة هذا الزعم ومع أن الدوقة لم يكن لها صلة مباشرة به فإنه لم تسلم من سخط الجماهير.

ووقفت مدام بومبادور أمام العاصفة مرة أخرى عندما حاول معتوه الاعتداء على حياة الملك فى شهر يناير من عام ١٧٥٧ وسرت الاشاعة بأن خنجر المعتدى كان مسموما، وأن حياة لويس أصبحت فى خطر، عند ذلك ارتفعت رؤوس المناهضين لنفوذ الدوقة، وعملوا على اثارة حفيظة الملك الذى تملكه الوهم والخوف على حياته فأصدر أمره وهو على سرير مرضه - كما فعل من قبل بالدوقة شاتورو - باقصاء مدام بومبادور من القصر فوراً، وكان من بين المتآمرين الوزير ماشو الذى رفعته الدوقة إلى هذا المنصب، ولم يكد ينتشر هذا الخبر حتى انفرط عقد الاتباع من حولها وأقفر مخدعها من أصحاب الحاجات، ولكنها صممت على ألا تطاطئ رأسها لعاصفة فلا تغادر القصر ولو اقتصر وجودها على أن تعمل وصيفة للملكة فحسب، ولكن لويس ما أن اطمأن على حياته حتى أعاد الدوقة إلى سابق مكانتها وأمر بنفى المتآمرين ضدها بما فيهم الوزير ماشو.

* * *

أن طموح مدام بومبادور لم يكن ليقف عند اسوار فرساى أو حدود فرنسا، فالسياسة فى نظرها ليست إلا ميدانا من ميادين اصطناع النفوذ يرضى غرورها، فهى وقد سيطرت على الملك أصبحت قادرة على توجيه سياسة الدولة إذا كان فى هذا التدخل ما يحقق شهوة من شهوات الحكم والسلطان عندها، لهذا لا غرابة إذا اشرأبت عنقها وإذا وضعت أنفها فى شئون الدولة الخارجية، ولعل رجال السياسة أنفسهم قد وجدوا فى هذه المرأة شخصية لها وزنها واعتبارها فى توجيه سياسة فرنسا الخارجية، فتقرب إليها سفراء الدول فى باريس وحاولوا كسب صداقتها بالمداهنة والرياء، وكانت أوربا فى ذلك الحين ميدانا لمعركة كبرى بين بروسيا والنمسا، وكان على عرش الأولى فردريك الأكبر وعلى عرش الثانية ماريا تريزا، أما فردريك فكان أكبر شخصية عسكرية فى عصره وكان فيلسوفاً ساخراً كصديقه فولتير، فلم يكن ينظر إلى مدام بومبادور نظرة كريمة بل كان يسخر من عبثها وصغائرها ويطلق عليها اسم «الفستان رقم واحد» فأثار بذلك ضغينتها، أما الإمبراطورة ماريا تريزا التى كانت تعتبر فردريك عدوها الأول لانتصاره عليها واقتطاعه جانبا من أراضيها فقد رأت فى مدام بومبادور ما يحقق رغبتها فى الانتقام من ملك بروسيا، فأوفدت إليها وزيرها الأول الكونت كادنتز الذى كان فى ذلك الحين شاباً أنيقاً معسول اللسان ليعقد محالفة بين فرنسا والنمسا، وهى محالفة ليس لفرنسا مصلحة فيها بل كانت ضد سياستها التقليدية، ولم تكتف الامبراطورة بذلك بل كتبت رسالة بخط يديها إلى عشيقة لويس دعتها فيها «بالأخت العزيزة» وضمنتها كلمات المديح والاطراء، فامتلأ رأس مدام بومبادور غروراً واعتبرت نفسها منذ تلك الساعة حليفة «لصديقتها» الامبراطورة، ولم تجد المركيزة صعوبة فى موافقة لويس الذى أثارت كبرياءه وغروره ضد فردريك، غرور الانسان التافه ضد رجل عبقرى، كما استثارت فيه الوازع الدينى المدفون فى قرارة نفسه، إذ أدخلت فى روعه أنه بوقوفه أمام ملك بروتستنتى ملحد وفى محالفة مع ملكة كاثوليكية اعلاء لشأن الكنيسة التى لها أن تمنحه الغفران لمعاصيه وخطاياه الشخصية!!، وهكذا كسبت مدام بومبادور المعركة التى خسرتها فرنسا فى ميدان القتال!

* * *

رياض الوعل!

كانت مدام بومبادور تعرف جد المعرفة أن الملك لن يكون وفيها ولها، لأن نهمه الجنسي لا يقنع بعشيقة واحدة مهما كانت فاتنة جميلة، إذ أن مثل هذا الرجل لا يرضى إلا أن يقطف لذاته حيث يجدها، وكانت المركيزة وهي امرأة ناضجة الأنوثة ناضجة التجربة تعرف كذلك أن جمالها وفتنتها إلى ذبول عاجل أو آجل، فعليها إذا أرادت الاحتفاظ بما لها من نفوذ على الملك أن تمد له في حبال نزواته تحت رعايتها وملاحظتها، نعم أن غيرتها كانت دائمة اليقظة خشية أن تتسلل امرأة أخرى إلى فرساى وتستولى على مكانها، بيد أنها كانت عظيمة الثقة بنفسها لا تخشى الانثى التي قد ترضى نزوة طارئة من نزوات الملك، ولكنها تخشى المرأة ذات الشخصية الطاغية التي قد تسيطر على هذا الرجل الفارغ العقل الفائر الدم، فتفتق ذكاء مدام بومبادور عن ابتكار ألوان جديدة من المتع تغرق لويس في طوفانها، فأهدت إليه قصراً ريفياً - شيدته بأموال لويس - على طريق سان جرمان في أطراف فرساي عرف باسم «الارمتاج» أو الصومعة، ولكنه لم يكن صومعة عابد بل عش غرام يتسلل إليه الملك بعيداً عن أضواء القصر الكبير، وكانت المركيزة لا تخشى خطراً في أن تقدم بنفسها إلى الملك الفتيات الجميلات وكان يعاونها في هذه التجارة الآثمة المركيز «ليجاك» وهو رجل من ذي قرباها رفعته إلى مراتب الشرف ثم «لابل» خادم الملك، وقد نجحت التجربة..

وسرعان ما أقيمت في أطراف حدائق فرساي الفسيحة بيوتا من هذا النوع عرفت «برياض الوعل» لم تكن سوى مواخير ملكية، كان الملك يستقبل فيها محظياته ولا نقول عشيقاته إذ أن كثيراً من هؤلاء الفتيات لم يكن يعرفن حقيقة هذا الدور، بل أن بعضهن لم يكن يعرفن شخصية الملك نفسه!

* * *

تمثال الثلج البديع!!

كان جمال مدام بومبادور كعمر الزهر من النوع الذي يتسرب إليه الذبول سريعاً، ولقد أخذت نضارة وجهها تحيل بعد الأعوام الأولى من حياتها في القصر، ولا شك أن السنين الطويلة التي عاشتها في تدبير لتحقيق مطامعها قد امتصت كثيراً من

حيويتها وبدأ أثرها للعين بعد أن استقرت حياتها واطمأنت نفسها. كان يعيب جمال الدوقة بياض بشرتها وكانت تعالجه بالمساحيق، وهذا ما عناه الوزير الشاعر موريباس إذ قال:

«إن المركيزة ذات جاذبية واغراء.

«إن ملامحها رقيقة وتقاطيعها رقيقة.

«وأن الأزهار تتفتح تحت ذراعها.

«ولكنها ويا للأسف زهور بيضاء.

كانت بشرتها رقيقة شديدة الحساسية عرضه للالتهاب. وكانت تبدو فى بعض الأحيان شاحبة كأنها مريضة، ولكنها كانت تخفى هذا الشحوب بالتجميل، بيد أنها لم تكن لتركن إلى الهدوء والراحة وقد آلت على نفسها أن تطلق حول هذا الملك الخامل الحزين دوامة تطن وتأز حوله حتى لا تدعه يعود أى شرنقته، ولا تدعه ينصرف إلى عشيقة أخرى قد تفتح له آفاقاً قصرت عنها المركيزة.

ولم تكن مدام بومبادور امرأة تعتمد على جمالها فحسب، بل على جاذبيتها الطاغية حتى فى أيام مرضها وضعفها، كانت شخصيتها تبدو فى لون جديد براق كلما بدلت ثوباً بثوب، أو صففت شعرها بطريقة مبتكرة، وكانت تبدو فى كل ساعة من ساعات اليوم فى لون جديد، وكانت تبدو فى أضواء الشموع والثريات غيرها فى ضوء النهار، كانت هذه المرأة تتجدد فى كل ساعة، لهذا لا عجب فى أنها لم تثر الملل والسأم فى نفس رجل مثل لويس.

أن عشرين عاماً ليست شيئاً قليلاً، عشرين عاماً حكمت فيها مدام بومبادور فرنسا من مخدعها، وليس أمراً هيناً أن تحتفظ بالنفوذ والسلطان خلال هذه الأعوام الطويلة وأن تخرج من المآزق والشباك والدسائس التى تحاك بها - حتى بين صنائعها الذين رفعتهم إلى كرسى الوزارة أو منحتهم الألقاب والرتب - ولا يفت هذا الصراع فى كيانها، إذ أن الاحتفاظ برجل مثل لويس خلال عشرين عاماً فى ذاته صراع يفل عزيمة امرأة أخرى غير مدام بومبادور التى بدأت تشكو مرض الصدر، وكان هذا هو سر نحولها وشحوبها، ولكنها لم تعترف بالمرض فتعتكف ولو إلى حين بعيدا عن الحياة الصاخبة الساهرة التى كانت تعيشها من أجل الملك فتركت الداء يتسلل إلى صدرها

رويداً رويداً، لقد كانت مستعدة دائماً للتضحية لكسب اعجاب هذا الرجل الذى بدأ يتبرم بها ولكنه لا يستطيع أن يتخلص من سحرها ومن تسلطها عليه.

لقد أصبح لويس يتهمها بالبرود ويشبهها بتمثال بديع.. من الثلج! ولكن مدام بومبادور لم تلمه على قسوته بل حاولت أن تقهر فى نفسها هذا البرود فاستخدمت شتى الحيل، كانت تأكل الشيكولاتة المعطرة بالعنبر، وكانت تكثر من تناول الكرفس وتستخدم أنواع العقاقير، كل ذلك لكى تثبت فى المعركة حتى النهاية، ومع ذلك فكان لويس يقضى يومه فى مخدعها متمددا على مقعد طويل يتثاءب ويتمطى ويدور بعينين فارغتين حوله، بينما كانت مدام بومبادور تقرأ وتكتب وتناقش الوزراء وتروى النوادر لتسلية الملك المتثاءب، أنها تحس بأنه قد زهد فيها كأنثى ولكنه لا يستطيع عنها غناء كالطفل الذى يحتاج إلى من يعتمد عليه، إذ فى خلال هذه السنين العشرين كان لويس لا يفكر إلا بعقلها ولا يدبر أمراً إلا برأيها..!!

وفى ١٥ ابريل سنة ١٧٦٤ وعندما أحست بدنو أجلها ارتدت أفخر ثيابها الملكية، وتزينت فى أبهى زينة، حتى ماتت على تلك الصورة، ووقف الملك يشيع نعشها ببصره وهو يحمل إلى العربة، والمطر ينهمر بشدة، فكان كل ما قاله: «لقد اختارت المركيزة لرحلتها الأخيرة أسوأ جو!!»



كاتـــرين الثانيــة

الجمــال الذى حكـم روســيا!!



يصفون القيصر بطرس الأكبر بأنه صنع روسيا كما يصنع النجار قطعة من الأثاث، ويصفون القيصرة كاترين الكبرى التى جاءت بعده بأنها تناولت قطعة الأثاث التى صنعها فتعدتها بالصقل والتهذيب حتى غدت روعتها فتنة الناظرين. وقد اشتهرت كاترين هذه بمغامراتها فى السياسة والحرب.. والحب!

اعتلت كاترين الثانية عرش روسيا عقب فترة صاخبة من فترات التاريخ، ظلت فيها تلك الإمبراطورية المترامية الأطراف، زهاء أربعين عاماً، ترقص فوق فوهة بركان. فبين السنة التى مات فيها بطرس الأكبر (١٧٢٥)، بطل الشمال، وتلك التى جلست فيها كاترين على العرش، ابتليت روسيا بستة حكام من حثالة الأمراء والأميرات، وأحط الأباطرة الذين آل إليهم تاج الإمبراطورية، فهم ثلاث نساء خليعات مستهترات، وطفل عمره ١٢ عاماً، ورضيع عمره سنة، وغر أبله فى العقد الثالث من عمره، كان شغله الشاغل فى البلاط اللعب بعساكر من الدمى الخشبية، كما كان يفعل ملك فرنسا الأحمق المأفون، لويس السادس عشر، زوج مارى أنطوانيت!!

كان بطرس الأكبر شديد الرغبة فى انتزاع روسيا من آسيا وحضارتها البدائية، وإدخالها فى قلب أوربا ومدنيتها الساحرة الخلابة، فتنقل بين عواصمها، واتصل بملوكها، وتتلمذ كأبسط العمال فى مصانعها وأحواض السفن فى مرافئها، وأنشأ مدينة بطرسبرج لتكون نافذة تطل منها روسيا على أوربا، وحلق ذقون القواد والزهاد والقساوسة، وذبح ابنه الكسس ذبح الشاة، حتى لا يخلفه فى الملك ويرجع بالبلاد إلى أسيويتها!!، وزوج عدداً من الأميرات من بناته وبنات اخوته لدوقات أوربا وملوكها، حتى تزيده المصاهرة ارتباطاً بمدينتهم. ولم يدر بخلده أن العرش بعده، سيصبح فريسة لمؤامرات وعصابات أجنبية، وخيانات داخلية من أشراف الروس الذين اعتنقوا مبادئ أوربا وتقاليدها ورطنوا بلغاتها، فانقطعت الصلة بينهم وبين الرعية.

خلف بطرس الأكبر على العرش زوجته الثانية كاترين (الأولى)، وهى فى الأصل خادمة من لتوانيا لاحق لها فى الملك!!. ومنها آل العرش بعد سنتين إلى ابنها بطرس الثانى، نجل ذلك التعس الكسس الذى ذبحه أبوه بطرس الأكبر بيده، ومات بطرس الثانى فى الخامسة عشرة من عمره فخلفته الأميرة «آن» بنت أخى بطرس الأكبر. وسرعان ما قضت نحبها فانتقل التاج إلى ابن أخيها جون السادس، وكان عمره سنة واحدة!. ولم ينقضى عام حتى خلع من الملك، واعتلت العرش اليصابات البنت الصغرى لبطرس الأكبر، وأخيراً تولى الملك الغر الذى سبقت الإشارة إليه، بطرس الثالث، ابن أميرة هولشتاين، التى كانت يوماً ما تطالب بعرش السويد. ومن مساخر القدر أن كاترين الثانية فاتنة التاريخ، كانت زوجة لذلك الأبلة، إلى أن قتلة رجال حاشيته، فتولت الحكم بعده وتنفست روسيا، بمجيئها الصعداء.

* * *

الأميرة الألمانية

تبدأ قصة الإمبراطورة كاترين الثانية وهى غادة ناهدة هيفاء فى الرابعة عشرة من عمرها، حلوة القسمات، متمايلة الأعطاف، تبدو أكبر من سنها جسماً وعقلاً وعاطفة. لم تكن روسية ولا تمت لروسيا بصلة!. كان أبوها مارشالا فى جيش بروسيا وأمها من أسرة فردريك الأكبر. ولم تكن أمها من ذوات اليسار، فقد دخلت روسيا وبنتها «صوفيا» لا تملك من الثياب سوى ثلاثة فساتين. وسرعان ما استقلت عن أمها التى ساءت سمعتها فطردتها الحكومة وسرعان ما جذبت أنوثتها الفائرة وجمالها الفتان الأنظار والقلوب، فزوجوها لذلك الأبلة الذى آل إليه العرش باسم بطرس الثالث. وكان زواجاً غير موفق من البداية.

فى ٢١ أغسطس ١٧٤٤، قرعت أجراس كنيسة العذراء فى قازان معلنة للشعب الروسى نبأ زواج الأمير بطرس - ولى العهد - بالأميرة الألمانية «صوفيا فون انهالت» بعد أن استبدلت بمذهبها البروتستانتى مذهبه الأورثوذكسى وسميت «كاترين الكاسيفنا».

وكانت القيصرة اليزابيث، ابنه بطرس الأكبر هى التى اختارت الأمير بطرس وليا لعهدها ووارثا لعرشها وأملاكها. كمل أنها هى التى اختارت له عروسه الأميرة صوفيا الألمانية، واختارت لها اسم كاترين. وقد أشرفت على إعداد معدات الزفاف، متمنية أن يسعد العروسان، وأن ينجبا لعرش القياصرة وليا للعهد بعدهما، يواصل السير بروسيا نحو المجد والعظمة.

وفى مساء يوم الزفاف التاريخى، صحبت القيصرة والوصيفات عروس ولى العهد إلى حجرتها، وقبل أن يتركنها طبعت اليزابيث على جبينها قبله ملؤها الحنان.

كانت كاترين - كما ذكرنا - شابه جميلة ساحرة. أما ولى العهد فكان فى مقتبل العمر أيضاً، ولكنه قبيح المنظر، تشوه وجه آثار الجدرى، وعيناه الصغيرتان لا تنمان عن أى ذكاء، فكان يبدو بجانب عروسه الفاتنة أشبه بالقرد الذى أسبغت عليه زينة الأعياد!

وانقضى ذلك اليوم التاريخى على أى حال، وتنفست الأميرة الصغيرة الصعداء،

شاكرة لله إن استجاب لرغباتها وآمالها. فأصبحت بزواجها من ولى العهد، مرشحة لأن تجلس على عرش روسيا فى الغد القريب أو البعيد، وينظر إليها الشعب الروسى نظرته إلى قياصرته الذين يقدسهم إلى حد العبادة، ويدين لهم بالطاعة العمياء!

على أنها منذ اللحظة الأولى، كانت على يقين من أنها أن استطاعت ترويض نفسها على الرضا بالحياة فى الجو الجديد الذى أحاطتها به القيصرة، وتقبل التحيات التى لا تنتهى من الحاشية الكثيرة العدد فى القصر، فإنها من ناحية أخرى، لن تستطيع أن ترضى بهذا الزوج الجلف المشوه الخلقة الذى زفت إليه، وارتبط مصيرها بمصيره!

أنه خلال خطبتهما، لم يقل لها كلمة واحدة تنبئ عن عطف أو حب أو حنان!.. ثم هو خبيث لئيم سيئ المعاشرة. وحينما يرى القيصرة تحيطها بشئ من الحنان، لا يملك نفسه من أن يسخر منهما ويضحك استهزاء بهما، فى سماجة وبرود.

ومضت الفتاة الألمانية فى حياتها الجديدة، ترقب ما يجرى حولها وتفكر فيما يضمره لها المستقبل. وقد أثبتت فى مفكرتها الصغيرة هذه العبارات: «أن قلبى ينبئنى بأننى لن أجد السعادة فى الزواج. ولكن ما أطمع فيه من مجد وعز وسلطان يجعلنى أحتفظ بالأمل والثقة. فلا بد أن أصبح سيدة روسيا المطاعة، والقيصرة التى يخضع لها الجميع!»

ومرت الأسابيع تتلوها الأسابيع، وولى العهد ماضى فى خطته، لا يعامل كاترين معاملة الزوج لزوجته، ولا يعود إلى القصر إلا فى ساعة متأخرة من الليل، فيلقى بنفسه فى الفراش دون أن ينزع ثيابه وحذاءه! وكان سكيراً عربيداً!

ومرت سبعة أعوام كاملة، وهو يعيش معها على هذه الحال. يجمعهما قصر واحد، ولكنهما قلما يلتقيان. وتألمت المسكينة وبكت. وكانت القيصرة تحنو عليها وتحاول التخفيف من آلامها. وقد اتهمتها فى بادئ الأمر بأنها لا تعرف كيف تثير فى قلب زوجها عواطف الحب والهيام. فدافعت كاترين عن نفسها، وأثبتت لولية نعمتها أن الأمير يهملها، وأنها ليس أحب إليها من أن تكون زوجة صالحة، ولكنه هو نفسه لا يريد أن يكون زوجاً صالحاً!!

وحدث ما لم يكن بد من حدوثه، فقد تنبه رجال الحاشية إلى أن القطيعة تامة بين ولى العهد وزوجته الحسناء، وأن قلبها الرقيق المتفتح للحب لا يجد قلباً يبادله عواطف. وكان أكثر أفراد الحاشية عناية بأمر الأميرة المهملة فتيان صديقان هما: نارشكين وسرج سوليتكوف.

وكان الأخير من أجمل شبان روسيا وأبعدهم جرأة من النساء. وكان له فى القصر مركز خاص، بوصفه من أعضاء الأسرة المالكة. فاغتنم فرصة خروج الأمير للصيد ذات يوم فى إحدى الغابات القريبة من القصر واستطاع بلباقته وخفة ظله أن يدخل معها فى حديث طويل، انتهى بأن تفاهم قلباهما.

وحينما عادت كاترين إلى القصر فى ذلك اليوم، قضت ليلتها تفكر فى ذلك الحديث، وتقول لنفسها: أن بطرس ذلك الزوج الغريب الأطوار قد ضنى على قلبى بما لابد منه من الحب والحنان، فلماذا لا أبحث عنهما عند سواه!

* * *

البحث عن وريث للعرش!!

وعهدت القيصرة إلى السيدة تشوجوكوف فى السهر على راحة الأميرة كاترين وإدارة شئونها الخاصة، وقامت هذه السيدة بمهمتها خير قيام.

وفى ذات يوم، خلت تشرجوكوف إلى كاترين، وشد ما دهشت هذه من الحديث الغريب الذى راحت السيدة تهمس به إليها. ثم ازدادت دهشتها حين فهمت من سياق الحديث أن القيصرة نفسها هى التى أوحت به!

لقد قالت لها السيدة تشوجوكوف: «أن الشعب ينتظر منها أن تمنحه وليا للعهد بعد بطرس زوجها، وأن هذا الشعب فى دهشة وأسف وألم لأن ولى العهد المنتظر لم تشرق طلعته، رغم مضى سبع سنين فى الإنتظار!».

وقالت كاترين: «أن بطرس هو السبب». فحدقت رائدتها فى عينيها وقالت فى حزم: «إذا كان هو لا يريد، فلماذا لا تريدين أنت ما يريده الشعب وتريده القيصرة؟. أن هذا لا يكلفك إلا أن تختارى من بين رجال الحاشية الكثيرين من تشائين!!».

وذهلت كاترين لهذا التصريح الجرئ، وسكتت فلم تحر جواباً، ولكن السيدة تشوجوكوف عادت تقول: «أن للضرورة أحكاماً لابد من الخضوع لها، وأن القيصرة لا تمانع فى أن تختارى من أفراد الحاشية، من تنسين معه صلف ذلك الزوج الأحمق السكير، على أن يسعد الشعب بولى العهد المنتظر!».

وبقيت كاترين ساكنة ذاهلة، فسألتها السيدة: «أيعجبك ليون؟». فلم تجب كاترين. واستطردت الوصيفة فقالت: «إذن يمكنك اختيار سرج!».

وجاء رئيس التشريفات بعد السيدة تشوجوكوف، وراح يحدث الأميرة عن وراثة العرش، وضرورة تحديدها.. وإنتهى حديثه بأن عرض على كاترين أن يجئ إليها بالشاب سرج سوليتكوف، على أن تتخذه فى الحال عشيقاً:

ـ هذا ما أمرتنى به مولاتى اليزابيث، وما على غير التنفيذ! وقد قالت لى: أن امرأة ذكية لا ترضى أن تموت بدون أن تترك ابنا يرثها بعد موتها!

إذن، أنهم يريدون منها أن تصبح خليلة لسرج سوليتكوف فليكن لهم ما يريدون!

نفذت الأميرة إذن إرادة القيصرة، وأطلقت لعواطفها العنان، وألقت بنفسها فى أحضان سوليتكوف الجميل، ولكن زوجها ـ الذى أهملها وأعرض عنها سبعة أعوام كاملة ـ شعر حينذاك بالغيرة تأكل صدره، وأراد أن يعوض ما فاته، وراح يضايق الأميرة الحائرة ويزعجها ويقسو فى معاملتها، فاضطرت اليزابيث إلى التدخل بين الزوجين لتهدئة غضب الأمير وثورته!

وما مضت عشرة أشهر حتى كانت الأميرة كاترين قد وضعت طفلاً، تقرر أن يطلق عليه اسم «بولس بتروفتش» ومعناها بولس بن بطرس.

لقد أصبحت كاترين إما..! ولكنها لم تلمس ابنها ولم تره إلا بعد مرور أربعين يوماً على مولده. وجعلت الأم تحدق البصر فى طفلها. أهو يشبه أباه؟ أم يشبه سرج سوليتكوف؟! كلا أنه يشبه سرج. فهو إذن ابن الغرام المحرم!

وأقيمت معالم الزينة فى جميع أنحاء روسيا، وقرعت أجراس الكنائس: أن

وراثة العرش أصبحت مضمونة إلى حقبتين. وأهدتها القيصرة مائة ألف روبل. ولكنها أصدرت أمرها بأن يبتعد سرج سوليتكوف عن الأميرة، بل عن القصر: لقد أصبحت كاترين أما. فمشكلة الوراثة قد حلت الآن. فلا داعى إلى إتخاذ عشيق يحل محل الزوج إذا تمرد!

كانت كاترين فى الثالثة والعشرين من العمر. وكانت قد أحبت سوليتكوف حباً عنيفاً إرادته أن يكون خالصاً وفياً. لكن إرادة فوق إرادتها قطعت حبل ذلك الحب فجأة. فأصدرت اليزابيث مرسوماً بتعيين سرج سوليتكوف سفيراً لدى ملك السويد. وسافر الشاب من روسيا بدون أن يرى الأميرة.

أما ابنها - وهو ابنه - فيجب أن يعلن أمام الناس أنه ابن الأمير بطرس، وأنه سيرث العرش بعد أبيه!

***

حفلات.. ودسائس!!

كان كل شئ يجرى بخلاف المألوف، فى البلاط الروسى. وعملا بهذه القاعدة، أرادت الإمبراطورة أن تحى حفلة ساهرة، فقررت أن يتنكر الرجال فى زى النساء والنساء فى زى الرجال! وقد امتعض بعض رجال الحاشية من هذا القرار العجيب، ولكنهم اضطروا إلى النزول على رغبة مولاتهم.

وكانت كاترين قد امتنعت عن الإشتراك فى حفلات القصر، منذ أن أصبحت أما، ومنذ أن ابتعد سوليتكوف عن العاصمة، ولكنها فى ذلك اليوم علمت أنه عاد من السويد لقضاء بضعة أيام عند أهله، وأنه سيذهب إلى تلك الحفلة الساهرة، فقررت أن تذهب إليها أيضاً.

كان منظر المتنكرين يدعو إلى الضحك حقاً: تصوروا قائداً ذا لحية يتسربل بمعطف امرأة ويضع على رأسه قبعة تعلوها ريشة كبيرة، وتصوروا نبيلاً أخر فى السبعين من العمر، يلبس ثوب قروية وعلى رأسه منديل، أو نساء البلاط يجرين من مكان إلى مكان فى أزياء القواد والنبلاء..!!

أطلقت القيصرة اليزابيث فى تلك الحفلة الماجنة لغرائزها العنان. فهى امرأة لا تعرف لتلك الغرائز حداً. وقد أرادت أن تكون ابنه أختها كاترين مثلها. ولكنها جعلت مع الأيام تنظر إليها بعين الحسد والغيرة، لأن كاترين شابة ساحرة، وهى كهلة بدأت الأخاديد تخط صفحات وجهها. ولكنها كانت تخفى حسدها وغيرتها خلف قالب من الحنان والعطف: أليست مدينة لكاترين بولى عهد يرث الملك بعد بطرس؟

وكان المبعوثون السياسيون يغتنمون فرصة الحفلات الساهرة، فى مقر القياصرة، لالقاء حبائلهم وحبك دسائسهم. وفى تلك السهرة التقى اثنان من أولئك الرسل: السير شارلس هانبرى الإنجليزى، والسيدة ليا دى بومون الفرنسية. وكان الأول يلاحق القيصرة بأن تعقد محالفة مع بلاده ضد فرنسا. وكانت الثانية تلاحقها بأن تعقد محالفة مع فرنسا ضد الإنجليز. ودعت القيصرة لبادى بومون إلى حجرتها، وقررت تعيينها قارئة فى القصر، ثم تطورت العلاقة بين اليزابيث والفرنسية الحسناء تطوراً سفر عن مفاجأة لم تكن القيصرة تنتظرها: فقد اتضح لها أن ليا دى بومون ليست امرأة، بل هى رجل. وقد اشتهر ذلك الرجل فى التاريخ باسم «شفالية ديون» وكان يطوف عواصم أوربا فى زى امرأة، ويقوم بأداء مهمات صعبة لحساب وطنه فرنسا!!

أما كاترين، فأنها لم تعثر على سوليتكوف فى الحفلة الساهرة، وقد بحثت عنه عبثاً فى أركان القصر وزوايا الحديقة. فما الذى حدث؟

علمت الحقيقة فى اليوم التالى، إذ أخبرها جواسيسها أن الشاب الجميل قد نسيها، وأنه لم يعد يفكر فيها، بل بحث عن السلوى فى أحضان غيرها من النساء.

إذن، ستبحث هى أيضاً عن السلوى فى أحضان غيره من الرجال!

وكتبت كاترين فى مفكرتها، بعد تلك الحفلة: «أن عزة نفسى تجعلنى لا أطيق التفكير فى أننى سأكون تعيسة يوماً من الأيام. فإذا شعر الإنسان بدنو التعاسة منه، عليه أن يترفع عنها ويرتفع فوقها. وليعمل بحيث لا تظل سعادته رهناً للحوادث!»

وهكذا كانت كاترين تظن أنه يكفيها أن تنتقل من رجل إلى آخر وأن تختار عشيقاً جديداً كلما فقدت عشيقاً سابقاً لكى تضمن لنفسها السعادة فى الحياة.

***

سياسة وغرام!!

كانت كاترين فى ذلك الوقت تجتاز مرحلة دقيقة من مراحل حياتها. فزوجها لايزال كما كان. وعشيقها سوليتكوف قد ابتعد وقطع كل علاقة معها. والقيصرة التى تبذر المال يميناً ويساراً تنسى فى بعض الأحيان أن تدفع لابنه أختها المرتب المقرر لها. وكاترين فى حاجة ملحة إلى المال، لأنها أيضاً، متلافة مبذرة. فمن أين لها المال؟..

أدرك سير وليامز، السفير البريطانى، ما تعانيه الأميرة من متاعب مادية وعذاب نفسى. ويا لها من فرصة عزم الرجل على اغتنامها بلا تردد!

كاترين تريد مالاً؟.. أن خزانة السفير مفتوحة لها: فلتغترف منها ما تشاء! عشرة آلاف جنيه.. ثم عشرين ألف جنيه!.. أن هذا الكرم الذى يبدو من السفير لا غرابة فيه. فإنه يفتح له جميع الأبواب، ويقرب المسافة بينه وبين الأميرة، ويرفع بينهما الكلفة إلى حد بعيد..

والفرصة سانحة أيضاً ليتحدث السفير إلى الأميرة عن وجوب عقد محالفة بين روسيا وإنجلترا. وحينما يتم التوقيع على المعاهدة سيقدم لها ما تريد من مال!..

ويندفع السير وليامز فى حديثه مع الأميرة، فيثير فيها الرغبة فى أن يكون لها قصور ومركبات وضياع.. ثم لماذا لا تفكر فى العرش من الآن؟.. أن خالتها مسنة ومريضة. والموت لا يرحم أحداً. فإذا ماتت الإمبراطورة، وأصبح بطرس قيصراً بعدها، فهل يحكم هو؟ هل تتركه كاترين يحكم أم تلعب فى تاريخ روسيا الدور الذى لعبته اليزابيث نفسها، فتصبح مثل خالتها إمبراطورة عظيمة مطاعة؟

أن ما تحدث عنه السفير يثير فى نفس الأميرة كوامن الأمل والحقد على زوجها وخالتها، والرغبة فى الوصول بأسرع ما يمكن من الوقت إلى أوج العظمة والمجد وهذا السفير يدرك كوامن صدرها. فلماذا تخفى عنه أسباب امتعاضها وتعاستها؟

أنها زوجة ولى العهد، نعم. ولكن ولى العهد لا يحتل مكانا فى قلبها وبجوارها. أن قلبها فى حاجة إلى الحب الذى حرمت منه.. حاول سير وليامز أن يستغل هذا الضعف لنفسة. ولكن الأميرة أوقفتة عند حدة. فشعر بأنها لن ترضى بة عشيقاً، وعزم منذ تلك اللحظة أن يجيئها بعشيق آخر، يكون من رجالة الأمناء الأوفياء..

لماذا لا تلقى الأميرة نظرة على الكونت ستانسلاس بوينياتوفسكى، البولونى الشريف، المطالب بعرش بلاده، الذى يعد من أجمل شبان عصره؟ أن بوينياتوفسكى يقيم فى بلاط القيصرة اليزابيث، وهو يتمتع بسمعه طيبة، والجميع يحبونه ويحترمونه..

وألقى السفير الأنجليزى حبائلة للصيد، فكان الصيد موفقاً، فقد تواطأ مع ليون ناريشكين وأختة آنا، على تمهيد السبيل لبوينياتوفسكى، وبوينياتو فسكى صديقة بل صنيعتة..

ودعا ليون ذات ليلة الأميرة كاترين إلى سهرة تحييها اخته فى دارها، فذهبت الأميرة مطمئنة إلى بيت صديقتها، فإذا بها تجد نفسها وجها لوجه مع بوينياتوفسكى، فأدركت أن الدعوة لم تكن غير حيلة عمد إليها الأخ والأخت، لكى تلتقى الأميرة بالشاب البولونى.

وكانت ساعة من ساعات الغرام قضتها كاترين مع بوينياتوفسكى فى حماية صديقيها. وعادت إلى القصر فى ساعة متأخرة من الليل، فإذا بها تلتقى بزوجها بطرس، فى السلم المؤدى إلى حجرتها! ودارت بين الإثنين محاورة عنيفة:

- من أين أنت قادمة يا سيدتى؟!

- كنت أبحث عنك يا سيدى. كما يقضى على الواجب!

وتقدم الأمير من زوجته شاهراً سيفه، لكنها صاحت به:

- مبارزة؟ إذن، أنا فى حاجة مثلك إلى سيف!

فتراجع الرجل، وجعل يتمتم: «سوف أنتقم، سوف أنتقم!»

* * *

وقع لكاترين، يوم التقت للمرة الأولى مع بوينياتوفسكى فى موعد غرامى، حادث أقرب إلى نسيج الخيال منه إلى وقائع الحياة. فقد ضربت لعشيقها الجديد موعداً أمام باب القصر، وجاء بوينياتوفسكى فى مركبة يجرها حصان واحد، وكان متنكراً. وخرجت إليه كاترين متنكرة أيضاً فى زى خادم من خدام القصر. وانطلقت المركبة بالعاشقين نحو الغابة القريبة. وصادف أن جمح الحصان فى الطريق فانقلبت المركبة فى

حفرة عميقة. وسقط العاشقان فى الوحل، وأغمى على الأميرة بين ذراعى الشاب الذى استولى عليه قلق شديد.

ونهض الاثنان من تلك الورطة، وقاد بوبناتوفسكى حبيبته إلى دار القنصل البريطانى القريبة من هناك، فأضافهما الرجل ورحب بهما.

ووضعت كاترين فى تلك السنة طفلة قال فيها الأمير بطرس زوجها: «لست أدرى من اين تأتى زوجتى بأطفالها!!».

وكانت الروابط قد توثقت بين بوبناتوفسكى ووليامز من ناحية وكاترين ويستو جيف كبير الأمناء من ناحية أخرى. فوضع الأربعة خطة ترمى إلى سن قانون لوراثة العرش يفتح لكاترين فى المستقبل منفذاً إليه، ويساعدها على التخلص من زوجها والإستئثار بالحكم. وكان عليهم أن يقاوموا نفوذ نائب كبير الأمناء، شوفالوف عشيق الإمبراطورة اليزابيث، والذى كان يدفعها بين أحضان فرنسا، فى حين أن وليامز وأعوانه كانوا يرمون إلى أغراض لا تتفق مع السياسة الفرنسية. وفاز شوفالوف فى بادئ الأمر فحمل الإمبراطورة على إعلان الحرب على فردريك ملك بروسيا، وزحف جيش روسى كبير نحو برلين بقيادة المارشال ابراكسين.

وفى ذلك الظرف العصيب، وقع حادث فى لندن جعل اليزابيث تطلب من وليامز مغادرة بطرسبرج، فانهارت أحلام السفير البريطانى وأصدقائه، وراحت كاترين تتساءل: هل أحسنت صنعاً فى اتفاقها مع وليامز، أم كان خيراً لها أن تساير سياسة القيصرة؟

وحمل الرسل من بروسيا خبر الانتصارات الباهرة التى أحرزها جيش ابراكسين على جيش فردريك، وأقيمت معالم الزينة فى العاصمة الروسية. ولكن الأنباء وردت، فى أثناء الحفلة، بأن الانتصارات قد تحولت إلى هزيمة، وأن براكسين يفر مسرعاً أمام الجيوش البروسية الظافرة!

وبينما كان ذلك كله يجرى فى ميدان السياسة والحرب، وكان ولى العهد بطرس يدبر مكيدة لإيقاع غريمة بوبناتوفسكى فى الفخ، وحملة على الاعتراف بأن كاترين عشيقته. وكان للأمير أيضاً فى ذلك الوقت عشيقة تدعى اليزابيث فورنستوف. فدعا هذه المرأة وزوجته وبوبناتوفسكى إلى مأدبة. ولكنه بدلاً من إنزال العقاب بالرجل الذى

سرق منه زوجته، صارحه بأنه يعلم بعلاقته بكاترين، ولكنه يغض الطرف عنهما، ويكتفى بالمرأة التى اختارها من ناحيته عشيقة له، وهى اليزابيث فورنستوف. أو بعبارة أخرى، قال الأمير لزوجته: «خذى عشيقك واتركينى آخذ عشيقتى!». تلك هى الأخلاق التى كنت سائدة فى ذلك العصر.. وتلك هى حياة أسياد روسيا فى القرن الثامن عشر!

* * *

الخدر أم الدير؟!

كانت الإمبراطورة وزوجة ولى العهد، وكان ولى العهد والقواد العظماء، يتبادلون العشاق والعشيقات، وكانت السياسة خاضعة فى سيرها لهذا التبادل العجيب. ومع ذلك فقد كانت تلك المرحلة من أروع مراحل التاريخ فى روسيا، ومن أعظم العهود التى مرت بها!!

نقمت القيصرة على بستوجيف فعزلته من منصبه. وخشيت كاترين أن يكون الرجل قد ترك أوراقاً ووثائق تثبت تواطؤها معه ومع بويناتوفسكى ضد سياسة القيصرة. ولكنه أخطرها سراً بأن جميع ما لديه قد أحرق قبل اعتقاله. وظلت كاترين تخابره سراً وهو فى سجنه بوساطة صديقها بويناتوفسكى. ولكن القيصرة علمت بالأمر. وأرسل الشاب البولونى العاشق فجأة إلى السويد، بدون أن يتسنى له أن يقابل. وأرسل الشاب البولونى العاشق فجأة إلى السويد، بدون أن يتسنى له أن يقابل عشيقته قبل سفره!

وكتبت كاترين إلى أبيه تقول: «أن ملك السويد شارل الثانى عشر يرحب الآن بولدك. ولكننى أعدك بأن أجعل من ستانسلاس ملكاً عندما أصبح سيدة روسيا!»

هى الآن وحيدة منعزلة فى بطرسبرج. فقد عاد وليامز إلى بلاده. وسجن بستوجيف. وذهب ستافسلاس إلى السويد وخلا الجو لخصوم كاترين لكى يخلقوا حولها جواً من العداء والنقمة. فهى تراقب من الجميع. والقيصرة تنظر إليها بعين الريبة والشك. وزوجها يكرهها ويضمر لها الشر كل الشر. والأصدقاء القليلون الذين ظلوا على وفائهم لها، ينقلون إليها أنباء ليس من شأنها أن تعيد الطمأنينة إلى نفسها،

فالإمبراطورة تفكر فى إرسالها إلى المنفى. وزوجها يؤثر أن يراها فى الدير لا فى خدرها، بل أنه يفضل أن يراها ميتة لكى يتزوج من غريمتها اليزابيث فورنستون!

عمدت كاترين إلى المكر والخداع، ولم تدع لليأس منفذاً إلى صدرها. وتظاهرت ذات يوم بأنها مريضة وطلبت الكاهن لزيارتها فى حجرتها. وتوسط الرجل لدى الإمبراطورة فدعتها اليزابيث إلى حجرتها. وجاء معها بطرس، وهو يمنى النفس بأن يكون هذا لقاءه الأخير لزوجته قبل موتها!!

وكان حديث وكان عتاب. وتمكنت الأميرة الساحرة من تبديد مخاوف الإمبراطورة واسترجاع عطفها. وهذا ما أثار كوامن الحقد فى صدر الأمير زوجها. وعندما غادرت كاترين حجرة اليزابيث، كانت المياة قد عادت إلى مجاريها الأولى بين المرأتين، ولم يعد أحد يفكر فى إرسال الأميرة إلى المنفى أو إلى الدير! بل أن الإمبراطورة أوفدت إليها شوفالوف عشيقها ليقول لها: «أن مولاتى علمت أنك تفكرين فى الابتعاد عن بطرسبرج، وهى ترجو أن تبقى هنا!» وهكذا، بدل أن تنفى الأميرة جاءها رجاء من الإمبراطورة بأن لا تنفى نفسها!

* * *

كان شوفالوف عشيق القيصرة. ولكن هذا لم يمنعه أن يتخذ لنفسه عشيقة أخرى هى الأميرة كورالين الغادة الحسناء.

وحدث أن ضابطاً من رجال الحرس الإمبراطورى يدعى أورلوف غازل الأميرة كورالين، فأرسل إليه شوفالوف عصابة من رجاله لتأديبه. ولكن أورلوف تغلب عليهم، فأصبح بين عشية وضحاها، شهيراً محبوباً!»

وأرادت كاترين أن تعرف ذلك الشاب الذى انتقم لها، بكيفية غير مباشرة وبدون أن يدرى، من شوفالوف المتكبر المتعجرف، صديق الإمبراطورة وعدو بويناتوفسكى.

فعهدت إلى إحدى وصيفاتها بأن تتصل بالشباب وتمهد له سبيل الوصول إلى القصر للقائها. وقامت الوصيفة بالمهمة، فقصدت ليلاً إلى بيت أورلوف، ولم يكن

بعيداً عن القصر، فخرجت معه بعد أن وضعت على عينيه عصابة، وقالت له أن سيدة عظيمة تنتظره، ولكنها لا تريد الافضاء باسمها!

ورضى الشاب وتبعها إلى القصر، حيث كانت كاترين تنتظره فى حجرتها.. وكان لقاء وكان غرام!.. فقد نسيت عشيقها البعيد، بوبناتوفسكى الجميل، بين ذراعى هذا العشيق الجميل الجديد، أورلوف!!

وكان لأورلوف أخوة ثلاثة، جميعهم من ضابط الحرس الإمبراطورى. وظل الشاب بضعة أسابيع يزور المرأة فى خدرها خلسة. ولا يعرف من هى تلك الحسناء التى وهبته نفسها!!

وفى أثناء هذا، كان الموت يلج القصر فى جناح آخر: فقد فاضت روح القيصرة اليزابيث فى عام ١٧٦٢. وقرعت الأجراس حزناً. وخرج موكب الجنازة من باب القصر الكبير، تتقدمه فرق الجيش وموسيقاه، ويصطف رجال الحرس على جانبى الطريق، بقيادة ضباطهم، وبينهم أورلوف وإخوته.

وأمام النعش، مضى أفراد الأسرة المالكة، وفى طليعتهم ولى العهد بطرس، وفى مركبتها الرسمية، مرت زوجة ولى العهد كاترين.

ووقع نظر أورلوف عليها، فعرف فيها المرأة المجهولة التى أحبته!! وطار فؤاده من الفرح، وأوشك أن يصيح فى وجوه الناس حوله: هذه زوجة ولى العهد، هذه قيصرة الغد، هذه عشيقتى!

ومرت الأيام، وارتقى بطرس الثالث عرش القياصرة فى بطرسبرج، وأصبحت كاترين إمبراطورة بجانبه. ولكنه ظل يضمر لها الشر ويعمل للتخلص منها. ووقع سفراء الدول فى حيرة من تقلبات سياسته الجديدة، وجعلوا يتساءلون: أيزج هذا الرجل ببلاده فى حروب جديدة؟ أيظل محتفظاً بعرشه؟ أيضع حداً لغرائزه البهيمية أم ينغمس فيها بلا حساب؟

وهبت على بطرسبرج موجه من المجون وجاء الإمبراطور إلى قصره بأفواج من النساء والشبان، راح يأويهم فى حجراته ويقدم لهم الشراب والطعام، وشاهدت تلك الحجرات أحط أنواع الخزى والعار والفجور..!!

وأمر الإمبراطور بأن يعاد سوليتكوف ـ عشيق زوجته الأول ـ إلى العاصمة، وحاول أن ينتزع منه إقراراً بأن الأمير بولس ولى العهد هو ابنه! ولكن الرجل رفض الخضوع وتمرد!

ووضعت كاترين فى ذلك الوقت طفلاً ثالثاً، هو ثمرة غرامها مع أورلوف!!.

وتآمرت مع لفيف من خدم القصر فاخفوا أمر هذا الطفل وارسلوه إلى حيث لم يعلم أحد!..

واتسع الخلاف بين الإمبراطور وزوجته، مما جعل سفير فرنسا يكتب إلى حكومته: «لا يدهشنى، وأنا أعرف الإمبراطورة كاترين، أن تعمد هذه المرأة إلى أساليب العنف لأحداث انقلاب فى روسيا!»

* * *

المؤامرة!!

لم يكن السفير الفرنسى مخطئاً فى تقديره. فقد حدث ما تنبأ به!

يقول المثل الروسى: «أن من أراد أن يأكل العسل، عليه أن يقتل النحل!»

نحن فى الثامن من يوليو ١٧٦٢: وكاترين تنتظر فى شرفة قصرها نتيجة المؤامرة التى دبرتها بالإشتراك مع أورلوف عشيقها وأخوته.

فقد أراد الإمبراطور أن يطرد من الخدمة بعض ضباط الحرس، فأثار أورلوف رفاقه عليه، واشترى تأييدهم بمائتى ألف روبل سرقها من الجيش! وأراد بطرس الثالث أن يغير مذهبه الدينى فأثار عليه أورلوف رجال الدين! وقرر العاشق الجرئ إسقاط الإمبراطور، بعد أن تم له تمهيد السبيل لهذا الإنقلاب، على أن ينادى بكاترين إمبراطورة على روسيا.

والمرأة توافق على هذا كله. لقد مضت عليها ثمان عشرة سنة وهى تعانى العذاب مع أولئك الاجلاف!

وجاءت ساعة الانتقام!

دخل الكسيس أورلوف عليها عند الفجر وقال: «تعالى يا سيدتى. فكل شئ

معد للعمل!»

وسألت الإمبراطورة أين زوجها. فأجابها أورلوف بأن بطرس الثالث فى بلدة أورانئيون، وأن اشاعة قد سرت فى العاصمة بأنه اعتقل الإمبراطورة فثار الجيش، وهو ينتظر نزول كاترين من القصر للمناداة بها وإسقاط زوجها!!

وخرجت كاترين. وسارت مع أنصارها إلى حيث يريدون، وإنضم إلى الموكب رجال الحرس ورجال الدين. وأرغم الإمبراطور بطرس الثالث على كتابة وثيقة بالتنازل عن العرش، وأعلن القواد أن كاترين الفاتنة أصبحت إمبراطورة على روسيا من أقصاها إلى أقصاها!

وتم الانقلاب بدون قتال يذكر. ولم تقع غير حوادث متقطعة منفردة، أصيب فيها بعض الضباط بجراح.

وذهب جريجوار أورلوف عشيق الإمبراطورة، إلى حجرة عشيقته فى مساء ذلك اليوم، وبينما كاترين منهمكة فى تضميد جرح إصابة فى جنبه، إذ بالأخ الثانى، الكسيس أورلوف، يدخل عليهما صائحاً: «لقد قتل الإمبراطور! لم نكن نقصد قتله، ولكنه تشاجر مع أحد رفاقنا وأسفرت المشاجرة عن مصرعه!»

* * *

العشاق يتسابقون!!

مات القيصر فاندفع العشاق يتسابقون إلى القيصرة! فستانسلاس بونياتوفسكى يفكر فى العودة إلى بطرسبرج. وجريجوار أورلوف يثور بسبب الغيرة وتبلغ به الجرأة أن يضرب عشيقته. والكسيس أورلوف أخوه أخذ نصيبه من قلب كاترين الواسع. وبوتمكين، وهو عاشق حديث العهد، يحاول أن يحل فى ذلك القلب محل من تملكوه من قبل!..

وعزمت الإمبراطورة أن تضع حداً لهذا التسابق بين عشاقها، ففكرت فى أن تختار من بينهم زوجاً يحل محل الإمبراطور الراحل على عرش القياصرة.. ووقع اختيارها فى النهاية على جريجوار أورلوف. فدعت مجلس العرش إلى الإجتماع لتبلغه إرادتها وعزمها. ولكنها فوجئت باعتراض أحد الأشراف، الذى قال لها بصراحة ممزوجة بالحزم: «أن الإمبراطورة حرة بأن تصنع ما تريد. ولكن مدام أورلوف لن تصبح أبداً إمبراطورة!»

فعدلت كاترين عن قرارها. ولكنها لم تفترق عن أورلوف. بل أن جميع رجال البلاط صاروا ينظرون إلى هذا الرجل نظرهم إلى سيد الموقف، وكان أورلوف لا يخفى علاقاته بالقيصرة بل يباهى بها أمام الناس..

وجمع خصوم القيصرة جموعهم وجعلوا يثيرون القلاقل فى الأقاليم النائية. فقد رفع بوجاتشيف لواء العصيان على ضفاف فولجا، وادعى بأنه القيصر بطرس القتيل، قائلاً أنه لم يقتل بل فر من جلاديه وعاد الآن لينتقم من زوجته الخائنة..

وعلم ولى العهد بولس الصغير بالخبر، فقال لمعلمه: «عندما أصبح رجلاً، سأنتزع من أمى العرش الذى انتزعته من أبى!»

لكن بوجاتشيف وقع فى الأسر وعذب وقتل. وقام غيره بالثورة، وقاد الثوار فى هذه المرة رجل يدعى بوجومولوف أدعى أيضاً أنه بطرس الثالث! فقبضت عليه كاترين وأمرت بأن يجدع أنفه ويرسل إلى المنفى فى سيبريا!..

وساعدها الحظ فأحرزت جيوشها وأساطيلها سلسلة من الانتصارات وطدت دعائم ملكها بالرغم من تلك الثورات والإضطرابات. وقال قائل أن الحظ هو أكثر عشاق كاترين وفاء، فهو يخدمها كلما ضاقت فى وجهها السبل واعترضت طريقها الصعاب!

ومال قلب القيصرة إلى رجل آخر، غير الرجال السابقين: ذلك هو بوتمكين، عشيقها المقبل! وثارت ثورة أورلوف وأخوته، فتشاجروا مع بوتمكين وضربوه ففقد عينا فى المعركة. لكن هذه الهزيمة لم تحل بينه وبين القيصرة التى فضلته على غيره فيما بعد! وهكذا ظلت الإمبراطورة منغمسة فى غمرة الملذات، فى الوقت الذى كانت فيه تشرف على تسيير دفة الحكم والسياسة بقدرة فائقة وكياسة أثارت إعجاب المؤرخين!

وكانت دائماً تعتقد أن عشاقها جميعاً يحبونها ويهيمون بها، ولا تفكر لحظة فى أنهم يطيعون أهواءها طمعاً فى الجاه والمال والنفوذ والسلطان!

وقد كانت تتبادل الرسائل مع كبار الكتاب وفلاسفة العصر، وتهتم بكل كبيرة وصغيرة من شئون مملكتها الشاسعة، ولكن ذلك كله لم يكن كافياً لينسيها الملذات التى عاشت لها وانغمست فى غمراتها.

* * *

وهجرت أورلوف بعد ما شعرت نحوه بالسلوان، فتزوج ابنة عمه.. وبعد حين أخبروها ذات يوم أن زوجة أورلوف ماتت فى سويسرا بداء السل فلم تبعث بكلمة عزاء للزوج الذى كان فى وقت من الأوقات مالكا لها. لقد كانت فى ذلك الحين تتذوق غراماً جديداً بين ذراعى لانسكوى الشاب المرهف الإحساس!..

وفى إحدى الليالى، بينما الإمبراطورة مختلية بعشيقها فى إحدى حجرات القصر، إذا بالباب يفتح، ويدخل منه شبح فى ثوب الحداد، ويتقدم نحوهما!

من هو هذا الشبح القادم من حيث لا يدرى أحد؟ وكيف دخل إلى القصر؟!

لقد فتح الأبواب بمفاتيح يحملها فى جيبه!

هو أورلوف! إنه يمشى بخطى بطيئة، وقد ارتسمت على وجهه أمارات الخبل..

فهم لانسكوى بالانقضاض عليه، لكن كاترين أمسكت بيده..

وتقدم الرجل وأسند رأسه على كتف القيصرة، ونظر إلى لانسكوى سائلاً: «أهذا هو العشيق الجديد؟ كيف وقعت فى الفخ أيها الأبلة؟»

وانتفض لانسكوى، فأوقفته كاترين بهذه الكلمات: «دعه! إنه مجنون!»

وصاح أورلوف: «نعم، مجنون! لقد جننت بسببك يا كاترين! فعلت من أجلك كل شئ.. وأنت الآن تقولين أننى مجنون!».

وأخرج أورلوف من القصر. ومات بعد بضعة أيام، فى نوبة جنون هائلة!

وما مضت أيام أخرى، حتى كان لانسكوى نفسه يعانى حشرجة الموت على سريره، والقيصرة بجانبه..

* * *

كوكب هوى!

نقل لانسكوى إلى القبر، وكان الناس يظنون أن الإمبراطورة لن تنساه..

ولكنها نسيته. وأحلت محله الكونت مامونون: والذى جاءها بهذا العشيق هو بوتمكين نفسه، أحد عشاقها السابقين الذى لم يبق أمامه من سبيل إلى إرضائها غير

البحث لها من عشاق!

وأرادت أن تقوم برحلة فى أنحاء مملكتها، فأعد بوتمكين العدة لتحقيق هذه الرغبة وكانت رحلة رائعة!

تقدم بوتمكين الموكب الإمبراطورى. ونشأت المدن والقرى، بل نبتت من الأرض على طول الطريق. وتحققت فى خلال هذه الرحلة طائفة من المشروعات التى خلدت اسم الإمبراطورة الغريبة الأطوار.

وإنتهت الرحلة بعد أن زارت القيصرة الأقاليم الواقعة على الحدود، وعادت إلى عاصمة ملكها تعبة منهكة القوى.. وبحثت عن تسلية جديدة مع رهط من الشبان!!

وشعرت بأن العشاق الذين يقع عليهم اختيارها يترددون فى قبول ما يعرض عليهم: فهل يأنفون من معاشرة الإمبراطورة؟!

لقد أدركت كاترين هذه الحقيقة فى النهاية، وهى أن الشيخوخة قد حلت بها، فصاحت مرة فى وجه وصيفاتها:

«ظننت أن الإمبراطورة تحتفظ بسن الشباب، وإنها تبقى دائماً فى الخامسة عشرة من العمر!»

وماتت كاترين الثانية الملقبة بالكبرى فى ١٦ نوفمبر ١٧٩٦، ولم يكن فى حجرتها غير أورلوف عشيقها - وهو الأخير من تلك السلسلة الطويلة.

وعندما دخل ولى العهد بولس ووقع نظره على أمه جثة هامدة، قال لرجال حاشيته:

أنبشوا قبر أبى واستخرجوا جثته وضعوا التاج على جمجمته الصلعاء!

وأمر القيصر الجديد، بولس الأول، بأن توضع جثة أبيه بعد استخراجها من القبر، وجثة أمه فى نعشين يحملان معاً فى موكب واحد إلى مقرهما الأخير!

وعلى بلاطة الضريح، نقشت هذه الكلمات:

«فرقتهما الحياة فجمعهما الموت».

مدام ريكامييه

فاتنة الملوك
بين الحب والسياسة!!



إذا ذكرت مدام ريكامييه ذكر الجمال الفتان والمحاسن الخلابة، ذكرت رشاقة الجسم ولدانه العود وتناسب الملامح وتناسب التقاطيع، فقد كانت القيثارة التى يغنى عليها الحب أنشودته الأبدية، كانت البلبل الصداح الذى يغرد لحن القلوب الكسيرة والأفئدة المنسحقة، كانت المنهل العذب الذى يغترف منه الفنانون الوحى، والآلهة التى يستنزل منها الشعراء الإلهام، فتهافت عليها أشهر رجال العصر وأذيعهم صيتاً، لينحله الفنانون منهم، مثل دافيد وجيرار وكانوفا، جمالها الخلاب على لوحة التصوير ورخام التماثيل، ويستوحى رجال الأدب مثل فيكتور هيجور ولامرتين وشاتوبريان وسانت بيف خفايا العواطف ويستوعبوا دقائق الإبداع.

ولم يكن رجال السياسة ورجال السيف أقل من هؤلاء شغفاً بمحاسنها، فقد كان نابليون سيد أوربا يحج إلى كعبتها كما يحج إليها سائر الملوك والأشراف، لكنهم يرتدون أمام صونها كما يرتد الفراش المتهافت على المصباح، وقد هيض جناحه وباء بخيبة الأمل وفشل الأماني.

ولدت جولييت برناد - وهو اسمها العائلى - فى مدينة ليون، وكانت أمها فتنة للناظرين قد استكملت جميع المحاسن، فورثت عنها آيات الجمال، ولم تتم الخامس عشر ربيعاً حتى كانت فتانة المحاسن، جذابة للقلوب، أخاذة بالألباب، وكانت نفسها فياضة بالشعور يتدفق منها العطف والحنان، فلما أتت إلى باريس سنة ١٧٩٣ كانت الثورة الفرنسية فى إبان اشتعالها، ترسل كل يوم إلى المقصلة مئات الضحايا، فتمر العربات الحاملة لهؤلاء بمنزل جولييت فينفطر فؤادها أسى ولوعة ويزيد ذلك فى أجاشة عواطفها وتدفق إحساسها.

ولما تفتح قلبها للحب استعرت شعلته المقدسة فى فؤادها الغض، تطلعت فيما حولها علها تجد بعواطفها مجيباً تأنس إليه وتمتزج به، لكنها لم تألف إلى أحد، لأن النغمات التى أثارتها أوتار قلوب المحيطين بها لم تجد شجوا فى قلبها ولا وقعا فى سمعها.

وكان صديق العائلة ريكامييه الغنى صاحب المصرف الشهير يتردد على بيت أبويها فخطبها إلى أمها. فرضيت هذه به وألحت على ابنتها بأن تتزوجه، فرضيت جولييت أن تقرن ربيع حياتها بخريف أيامه، قبلت أن تتزوج وهى فى الخامسة عشرة من عمرها برجل لم تجد له فى قلبها غير إجلال واحترام لأن سنية تربو على الأربعين.

ولم يكن ريكامييه أنانيا محبا لذاته يريد تضحية هناء فتاة فى سبيل استمتاعه وملاذه، ولكن هناك سراً انطوت عليه جوانحه منذ أمد بعيد، وهو أنه شغف بمدام برنار أم جولييت واستولدها هذه الابنة!!

ولما كان من مبغضى الثورة ومن مناوئها، وكانت حياته على وشك الانصرام لإيقانه بأن الثوار لا يعفون ولا يرحمون، تزوج من ابنته ليترك لها بعد أيام قليلة اسمه وثروته التى تعد بالملايين، فيكفل لها هناء العيش وراحة الحياة، دون أن يثير ظنون السوء والشبهات فيها إذا تصرف تصرفاً آخر وترك لها ثروته.

وكان رواج ريكامييه بجولييت مقتصراً على الظواهر الخارجية دون تآنس ولا تواصل، ولذا عجبت جولييت من تصرف زوجها ولم يتسن لها تأويله لأنها كانت تجهل صلة زوجها بأمها.

ولما كانت شديدة الحياء، ذات عواطف ترفعها عن مستوى الميول الحسية، رغبت

فيما رغب به ريكامييه. وسمت بنفسها عن كل عاطفة جسدية.

وقد شاءت الأقدار أن تعبث بتدبير ريكامييه، فلم يقبض عليه دعاة الثورة، ولم يعدم ليترك ابنته حرة طليقة ذات ثروة طائلة، بل قيدته بها تقييداً تاماً فلا هو بمحجم عما أقدم عليه، ولا ابنته التى دام اسعادها دون إثارة ظنون أبيها، بقادرة من فك عقالها والتمتع بزوج يماثلها سناً ويشاركها عواطف.

وكانت العواطف الهوجاء تمر وقتئذ بفرنسا فتكتسح كل شئ حتى أخلاق أهلها، فقد تولدت فيهم بعد زوال رزايا الحروب عواطف مادية غاية فى الخطورة وظمأ شديد إلى العبث واللهو، فكانت الحفلات تلى الحفلات، والأعياد تتلو الأعياد، والناس يلهون ويطربون وقد تراخت أخلاقهم وسفلت ميولهم، ولكن مدام ويكامييه الفتاة ذات الجمال الذى يسبى العقول كانت تمر بكل هذه النقائص دون أن يعلق بها منها شئ. فكانت والحالة هذه أشبه بالذهب الذى لا تزيده النار إلا بهاء ورواء، فكانت أين حلت تثير الأعجاب حتى أن حسنها وملاحتها كسفا حسن ربات الجمال فى ذلك العصر، فشعرت مدام هاملان ومدام تاليان اللتان كانتا إلهتى الحسن والجمال فى ذلك الزمن بعوامل الغيرة والحسد تدب فى قلبيهما عندما وقعت أعينهما على ذلك المحيا الفتان وذلك الدلال المسبى.

كانت متوقدة الذكاء، شديدة الطموح، واستطاعت بجهودها الفردية أن تنال قسطاً وافراً من الثقافة، وأن تطالع الكثير من كتب الأدب.

وأتاح لها ثراء زوجها أن تقيم فى دارها صالوناً لرجال الأدب والسياسة، يؤمونه ويحومون حولها، فكانت بينهم كالكوكب المتألق، والنجم الساطع، وتنتقل بينهم كما تنتقل الفراشة ذات الألوان الجميلة، والعيون محدقة بها تكاد تلتهمها.

وكان حسب زوجها أنه اقتناها فى داره كما يقتنى الرجل الثرى التحف النادرة والقطع الفنية الرائعة يزين بها داره، ويفخر باقتنائها أمام أصدقائه والمترددين عليه.

كان ريكامييه يعرف أن زوجته مطمع لأولئك الرجال الذين يترددون عليها، وأن من بينهم رجالاً عظماء فى عالم السياسة، وآخرين فحولا مبرزين فى عالم الأدب، وإلى جانب هذا فمن أولئك وهؤلاء شبان فى ريعان الشباب، يمتازون عنه بنضرة الصبا،

ووسامة الوجه، وسحر الحديث.

ويذكر المؤرخون أنه كان لها عشاق كثيرون كان من أبرزهم ما يتودى مونتمورنسى، ولوسيان بونابرت والبرنس أوجستاس البروسى وبالانش وامبير وكونستان وشاتوبريان وبروسبار بارانت، غير أن الذى فاز بنصيب الأسد منها هو النيكونت فرنسوا رينيه شاتوبريان، وهو مؤلف فرنسى يعد من أكبر أدباء فرنسا، وكان يكبرها بتسع سنوات، وكان فى بداية عهده يناهض الآراء التى كانت سائدة خلال الثورة الفرنسية.

وما كان شاتوبريان محباً مخلصاً بل كان خائناً للعهود، متقلباً فى أهوائه. أحب أول ما أحب بولين دى مونت بعد أن تردد على صالونها، وتبادلا الحب والغرام فترة طويلة من الزمن، وكانت بولين تعاونه فى حياته الأدبية والسياسية.

فهل كان شاتوبريان مخلصاً لها، وفياً فى حبه وغرامه؟ لم يكن الإخلاص فى خلقه، بل كان نزاعاً إلى اللهو وإلى التقلب فى حبه.

بيد أن المرأة الوحيدة التى ظفرت بقلبه واحترامه، كانت هى مدام ريكامييه، وقد وضح حبه لها وتقديره واعجابه واحترامه فى مذكراته التى طبعت بعد عام من وفاته وكان عنوانها «مذكرات من العالم الآخر».

وهل كانت مدام ريكامييه مخلصة، هى الأخرى، فى عشقها وحبها؟

أن كثرة عدد عشاقها يدل على أنها لم تكن تعرف الإخلاص بمعناه الصحيح. أنها امرأة تزوجت رجل فى عمر أبيها من أجل ثرائه الطائل، ولم تكن تشعر نحوه بحب، ولكنها اتخذته إدارة لأهوائها وأغراضها، واستخدمت أمواله فى تحقيق أهدافها، فأنفقت بسخاء، وافتتحت صالونها الأدبى السياسى، وهى عادة شائعة فى فرنسا، وخاصة فى العصور الماضية. وهذه الصالونات مجدية بلا ريب، فهى مجتمع عظيم تحل فيه أعقد المشاكل السياسية، ويتبادل مرتادوها الرأى فى كثير من المعضلات، غير أنها مجتمع يضم النساء والرجال فى صعيد واحد، والإنسان هو الإنسان فى كل زمان ومكان، وليس من المعقول أن يرى الشاب الأديب المتأجج العاطفة امرأة ذات حسن فتان، ويستطيع أن يقاوم هذا السحر الطاغى.

وقد لعب جمال مدام ريكاميبه دوراً عظيماً فى مثل هذه المجتمعات، فسجد الكثيرون تحت أقدامها، وحاموا حولها كالفراش، وراحت هى تنتقى وتختار من يروق فى نظرها من هؤلاء العشاق، فاختارت من أسلفنا ذكرهم واحداً بعد واحد، لترتوى من مناهل الحب بالقدر الذى تريده لنفسها، وبالقدر الذى تتعطش إليه.

ولقد كان صالونها يعج برجال السياسة وخاصة أنصار الملكية، وكانت هى تناهض سياسة نابليون بونابرت.

وبينما هى فى تنازع العواطف وتضارب الآمال ساق لها القدر الكاتبة الشهيرة مدام دى ستايل التى أصبحت لها صديقة وفيه حفظت عهدها حتى آخر أيامها.

ورغماً عما كان بين هاتين الفتاتين من تباين العواطف وتنافر الطباع، فقد ألفت الصداقة ما بين قلبيهما حتى ظهر أثرها جلياً فى حياتهما.

وكانت مدام دى ستايل على نقيض صديقتها حرة الإرادة طليقة الميول لا تأسرها إذا جاشت ولا تقيدها إذا انطلقت، فكانت تسير فى حياتها التى كلها تمتع ولذاذة يتبعها المتيمون بها، الذين ينافون أخلاقاً المعجبين بجمال مدام ريكاميبه وسمو أخلاقها وقويم مبادئها.

ولما كانت مدام دى ستايل وثابة العواطف تناولت الحدة أيضاً نفثات يراعها، فطفقت تحمل فى كتاباتها على نابليون الذى لم يزل بعد قنصلاً، فحقد عليها وأضمر لها الشر متحيناً الفرص ليثأر منها ويجعلها عبرة لسواها.

وكان صيت مدام ريكاميبه يتعاظم ويشيع من يوم إلى آخر، حتى أصبح ملء الأفواه يتحدث به الخاص والعام ويذكره الباريسيون، لجمالها الساحر الذى يسبى العقول ويخلب الألباب.

ولم يكن نابليون رغماً عما اشتهر به من الخلق الحربى الجاف بمعزل عن التأثير بجمال هذه الفاتنة، التى سميت بحق جوليت السماوية والآلهية، لأنها لم تكن تقترب من إنسان مهما صلد قلبه وتحجرت مشاعره وصلبت عواطفه إلا ونفثت فى فؤاده سحر جمالها وقيدته بين أسرى صبابتها وغرامها.

فلما وقعت عينا نابليون على هذه الفاتنة فى حفلة أقيمت فى قصر أخيه لوسيان الذى كان وقتئذ وزيراً للداخلية اضطرب تحت تأثير نظراتها الساحرة، لكنها مرت به مداعبة لعوباً كما مرت بغيره دون أن يعلق بذهنها منه شئ، فامتعض القنصل الأول من عدم اكتراثها به، وصمم على أذلالها واخضاعها لإرادته مهما كلفه ذلك.

وكان الزمن خير معوان له فاتكل عليه وسلمه مقاليد أموره، ليفعل بها ما يشاء، لكن الحظ الذى يلازم انساناً لا يتخلى عنه دقيقة واحدة، فقد كان أبو جولييت مديراً عاماً للبريد الفرنسى وكان ملكى النزعة، فساعد على إيصال المكاتبات للحزب الملكى المناوئ للحكم القنصلى، فاكتشف أمره وقبض عليه وأودع السجن ليحاكم فى اليوم التالى بتهمة الخيانة العظمى.

اضطربت جولييت الفاتنة من هذا النبأ وسعت لدى أصدقائها العديدين ملتمسة منهم عضداً لها وسنداً، فتوسط لها الجنرال برنادوت وقادها إلى قصر التويلرى لمقابلة القنصل الأول الذى كان وقتئذ الحاكم بأمره فى كل فرنسا - وهكذا شاءت الأقدار أن تضع مرة أخرى الحمامة الوديعة أمام النسر الجارح - فتلقاها نابليون بالإكرام والحفاوة وأمر بالإفراج عن الذى تظنه أباها فى الحال وأمر بحفظ الدعوى، ولم يطاوعه قلبه المحب ولا عواطفه الولهى عن مناوأة آلهة الجمال التى كان ظهورها وحده كافياً لشل كل حركة عدائية نحوها وتحويلها إلى رعاية لها وإسراع فى تلبية رغباتها.

ومرت الأيام سراعاً مقتطعة بيديها أجزاء الحياة البشرية اللاهية، وأصبح نابليون إمبراطوراً عظيم القدر كبير الحول والطول، لا يحول بينه وبين مرامه حائل، ولا يقف عائق فى سبيل إرادته مهما كانت عزيزة المطلب، فضرب معارضيه بيد من حديد فقتل منهم من رآه يستحق القتل، وشرد منهم من وجده قليل الوزر، وكان من بين الفئة الأخيرة مدام دى ستايل التى سلكت طريق المنفى غير آسفة إلا على فراق صديقتها الوفية مدام ريكامييه.

ورغماً عن السؤود والمجد اللذين بلغ إليهما نابليون لم تبرح من ذهنه جولييت الفاتنة، فعرض عليها أن تكون وصيفة لزوجته الإمبراطورة لتكون دائماً بقربه فأبت، فألح عليها بذلك فى مقابلة جرت بينه وبينها مبديا لها مشيئته الإمبراطورية التى لا

ترد فرفضت، فضاق صدره من تجنبها ودلالها عليه وعزم على إخضاعها لامره واذلالها لإرادته بكل الطرق التى يراها ملائمة.

ومن ثم أصبحت عرضة للاضطهاد والشنيع، فاشيعت الأراجيف السافلة الكاذبة لثلم شرفها وإساءة سمعتها، وأذاع ذات يوم أعوان السوء فى أنحاء باريس أن بنك ريكامييه الشهير على وشك الافلاس، وقد قطع بنك فرنسا عنه كل معونة مالية مما أدى إلى إحراج مركزه، فأسرع الناس إليه لسحب الودائع الموجودة فيه، وتهافتوا عليه من كل صوب حتى أصبح عاجزاً عن تلبية كل طلباتهم وأوشك أن يقدم دفاتره.

وكانت الحالة حرجة ولا ينقذها غير الإمبراطور الذى منع المدد عن مصرف ريكامييه بأمر منه، فتوسلت جولييت إلى جينو حاكم باريس أن يستدر عطف نابليون، لكن الإمبراطور رفض ملتمسة صائحاً بشماته:

«لم يوضع مال الأمة لمساعدة أناس يبذرون الأموال تبذيراً فينفقون فى السنة ٦٠٠,٠٠٠ ألف فرنك على ملاذهم، ولست أنا عاشقاً لمدام ريكامييه لانقذها من هذه الورطة».

فأفلس مصرف ريكامييه وسقطت جولييت من ذروة الثراء إلى حضيض الفقر. ولما كانت المصائب لا تأتى فرادى فقد تبع ذلك موت أمها. وعندما أحست هذه بدنو أجلها أرادت إطلاع ابنتها على سر مولدها والاستسماح منها عما جنته عليها فقالت لها:

«أرجو منك عفواً يا جولييت، فإنى لم أحضك على مثل هذا الزواج إلا لعلمى بأن دقائق ريكامييه كانت معدودة..».

ولم يمهلها الموت لتبوح لابنتها بسرها بل عاجلها قبل أن تتم كلامها، فذهبت حاملة معها ذلك السر الذى كان السبب فى تنغيص حياة ابنتها الجميلة، فظنت هذه أن ما قالته والدتها لم يخرج عن حد هذيان الحمى فلم تعلق عليه أهمية ما.

ولما أصيبت بهذه النوازل ذهبت إلى صديقتها مدام دى ستايل فى قصرها الكائن على شاطئ بحيرة ليمان فى سويسرا، فقابلت هناك البرنس أوجست البروسى فتدله هذا بحبها ودنف به وصارح لها بما تأجج فى قلبه من نار هواها، وكانت جولييت وقتئذ فى

الثلاثين من عمرها وقلبها لم يعرف الحب الحقيقى بعد لكنه خفق بشدة عندما طرقت أذنيها كلمات الأمير وشعرت بعاطفة جديدة لم تعرف كنهها قد اختلجت بين جوانحها.

طلب منها البرنس البروسى الكتابة إلى زوجها وحضه على طلاقها لتتزوج بمن اختاره قلبها، ففعلت ذلك وفؤادها يكاد ينفطر حزناً على مفارقة ريكامييه، فورد اليها منه جواب يخبرها فيه بأنها قاسية القلب لا ترق لحاله، ولا ترحم، وإنه أسبغ عليها خيراته كلها حتى لم يبق لديه منها شئ، فإذا أرادت أن تنبذه الآن وقد أصبح فقيراً تعساً فإنه يقبل ذلك حباً بها وإبقاء على هنائها وسعادتها.

فأبت عليها مروءتها التخلى عنه فذهب البرنس أوجست وهو دامى القلب منفطر الفؤاد فشيعته وهى تقول فى نفسها: هذا هو الرجل الوحيد الذى أحببته.

ودفنت من ذلك الوقت غرامها فى أعماق قلبها فأخذ يقرض حبل حياتها حتى آذنت نضارتها بالذبول، فقد تولاها أرق شديد، فشرعت تتعاطى الأفيون بناء على استشارة أطبائها وأكثرت منه.

ولما رأت أن الموت يتهرب منها تناولت كمية كبيرة من الأفيون وهى واثقة من أنها ستجد فيها الراحة الأبدية. لكنها لم تكد تقربها من فمها حتى انتزعها منها زوجها أو بالأحرى أبوها الذى كان ساهراً عليها وألقاها بعيداً وهو يصيح:

ابنتى.. ابنتى..

فهل آن لتلك التعسة أن تعرف كنه السر الذى كان ينطوى عليه صدر ذلك الأب الذى تدعوه بزوجها؟

لا! فقد أبت الأقدار إلا حفظه وعدم اطلاعها عليه، إذ حالما شرع ريكامييه يفضى إليها به، دخل (أبوها) برنار، وكأنها كانت وقتئذ بين الشك واليقين من جهة نسبها وصلتها بريكامييه، فأخذت تنقل طرفها من زوجها إلى برنار أبيها، حتى استقر على هذا الأخير، ففتحت له ذراعيها وصاحت: أبى.. أحبك من صميم فؤادى.

فوضع ريكامييه رأسه بين يديه وغمغم: لقد آن أوان العقوبة.

وتوالت السنون، ولاشت أحزان جديدة هذه المحن، ولكن حقد نابليون عليها لم

يخمد له أوار ولم تطفأ له نار، بل ظل اضطهاده ملازما لها حتى جردها من الباقية لها من حطام هذه الدنيا، ولم يكتف بذلك بل نفاها خارج فرنسا، فقبلت ذلك بصبر وجلد.

ولما دالت دولة ذلك الجبار رجعت إلى باريس وقد أشرفت على الأربعين، فاعتزلت العالم فى دير الأبيبى دى بوا، ولكن مأواها لم يلبث أن أصبح منتجعاً لكل رجال العلم والأدب وفى مقدمتهم الفيكونت دى شاتوبريان.

وعندما ناهزت السبعين عاماً وذبلت زهرة جمالها وذوى غصن بهائها، وضعف بصرها حتى أوشكت أن تصبح كفيفة النظر، واختطف الموت كل قريب لها ومعين عرض عليها شاتوبريان الزواج، فتناولت مرآه وتطلعت فيها بعينين كادت السنون والأحزان تطفئ نورهما، فألفت ذلك الوجه الصبوح الفتان قد تجعد، ،وذلك النظر الساحر قد خبأ ضوءه فتنهدت وقالت له:

«أيها الصديق. إن حبك لى هو آخر زهرة تينع فى طريق حياتى، ولكن أصوات من سبقونى إلى عالم الأبدية ترن فى أذنى طالبة منى أن ألبث كما كنت مدام ريكامييه، ومع ذلك فأية فائدة لنا من ضم قلبينا وجمع جسمينا ونحن على أبواب القبر؟»

هذه حياة تلك الفاتنة، التى كانت أشبه بنرجسة بيضاء وناصعة، هبت عليها أعاصير هذه الحياة بسمومها ولفحاتها، لكنها لم تنل من نقائها، ولم تغير من أريجها العطر، الذى ظل فياحاً حتى أتت عليه عوادى الزمن.



ليـدى هـاملتـــون

الفاتنة التى أسرت بطل البحار!!



قصة « أيما » ليدى هاملتون، فيه من الغرائب والمآسى ما يغنى كاتبها عن كل مبالغة أو تأنق فى الأسلوب أو صنعه يستهوى بها القارئ أو يجذب انتباهه.. فالقصة غنية عن كل ذلك، تبدأ من الحضيض وترتفع إلى السماء ثم تهبط إلى أسفل سافلين.. تبدأ بجوار الكير ثم تنتقل إلى القصور وتنتهى فى السجون.. أولها وضعة ووسطها عز وجاه وآخرها ذل ومسغبة.

والخير أن نبدأ القصة من البداية.

«أهوى!.. ها هى ذى الأرض تلوح!»

ما أن انبعث بهذه الصحية صوت ضابط المراقبة على ظهر البارجة «أجاممنون» فى صباح أحد أيام شهر أغسطس سنة ١٧٩٣ منبها إلى اقتراب البر.. حتى خففت قلوب رجال السفينة - من ضباط وجنود - وهفت نفوسهم إلى المتع التى كانوا يحلمون بتذوقها فى نابولى، وأخذ كل منهم يستحث البر أن يخف إلى لقاء السفينة ما دامت سرعتها لم تكن كما كان يشتهى..

وراحت الأحلام تراود رؤوسهم.. أحلام النساء والهوى والخمر!.. عدا ضابط صغير برتبة «كابتن» يدعى «هوراشيو نلسون» اتجهت أحلامه إلى أمور أخرى.. إلى سلطات مملكة «نابولى» وإلى المآدب والتقاليد الرسمية التى كان عليه أن يحتملها مرغماً، إذ كانت «اجا ممنون» تفد على «نابولى» فى زيارة رسمية..

كان الضابط الشاب فى الخامسة والثلاثين من عمره، قد قضى ثلاثة وعشرين عاماً من هذا العمر فى خدمة البحرية البريطانية - إذ كان تعليمه فى صغره متقطعاً، مضطرباً، مما أغرى خالاً له كان ضابط فى البحرية بأن يسعى حتى عينه على البارجة «ريزونابل» - التى كان ضابطا عليها - وهو فى الثانية عشرة من عمره، وأتاح له فرصاً للمران والرحلات مكنته من أن يظهر مهارا واستعداداً، فراح يرقى سلم الرتب بسرعة حتى صار ضابطاً برتبة «الكابتن» وهو فى العشرين من عمره!

وكان نلسون دمث الأخلاق، رقيقاً، استطاع أن يكسب محبة رؤسائه ومرؤوسيه على السواء.. كما كان أنيقاً فى ملبسه ومظهره، وقد ظلت هذه الأناقة تلازمه فى مختلف مراحل عمره.. وبعكس زملائه الضابط - لاسيما أقرانه فى العمر - كان عزوفاً عن اللهو، مكباً على الإطلاع والتثقيف.. وفى سنة ١٧٨٧ قدر له أن يوفد فى رحلة على ظهر البارجة «بورياس» إلى جزر الهند الغربية، حيث التقى بإنجليزية شابة توفى عنها زوجها الذى كان طبيباً فى تلك البقاع، مخلفاً لها ولداً يتيما حنا عليه الضابط الشاب، فكان حنوه جواز مرور له إلى قلب الأم الأرملة.. وقادتهما علاقة من الود والرزانة - لا الحب المشبوب - إلى الزواج.. فكان «نلسون» زوجاً وفياً، مخلصاً.. ومن هنا ندرك سر عزوفه عن اللهو الذى كان يستهوى زملاءه والبارجه تقترب بهم منه، شاقة طريقها خلال مياه خليج «نابولى» فى ذلك الصباح من صيف سنة ١٧٩٣.

وإذا كانت البارجة فى زيارة رسمية، فقد ألفى «نلسون» فى انتظاره على الشاطئ «السير وليم هاملتون» الوزير البريطانى لدى بلاط ملك «نابولى».. وارتاح نلسون إلى ترحيب الدبلوماسى العجوز الذى كان إذ ذاك فى أوائل العقد السادس من عمره.. وأحس بكثير من الشرف والتكريم إذ وجده فى استقباله، فقد كان يعرف أن «السير وليم» أخ غير شرعى لجورج الثالث ملك انجلترا!.. كما كان يعرف عنه أنه دبلوماسى ناجح، استطاع أن يفوز بثقة البلاط الملكى فى «نابولى» فظل مبعوثاً دبلوماسياً لبلاده هناك منذ سنة ١٧٦٤ ـ أى نحو ثلاثين عاماً! ـ وفوق هذا وذاك كان السير وليم عالماً ومؤلفاً، وضع كثيراً من الدراسات عن البراكين والزلازل..

على أنه كان قبل كل شئ مضيافاً كريماً، وقد ارتاح نلسون إلى حفاوته، فلم يتردد فى أن يقبل دعوته إلى زيارته فى داره..

وفى الصباح التالى قصد نلسون إلى دار الوزير، فوجده متغيباً فى بعض المهام.. لكن الخادم الذى فتح له أنبأه بأن «الليدى هاملتون» ستسعد بأن تستقبله.. وقاده إلى بهو واسع أنيق، جلس فيه الضابط البحرى الشاب ينتظر، وقد شغله عن الوقت جمال التحف الفنية واللوحات التى تناثرت حوله فى كل مكان..

وفجأة، انبعثت فى الجو ضحكة ناعمة، ذات رنين عذب، فإذا الضابط يبادر معتدلاً فى تحفز وتوتر، كشخص أنذر بخطر قريب.. ثم جاس بعينيه فى حذر، فإذا فى أحد أركان البهو الواسع، فنان أقام لوحة على حامل، واستغرق فى الرسم.. وأمام اللوحة، رأى نلسون قواماً أملد، ملفوفاً فى رشاقة فاتنة، يعلوه تاج من شعر ذهبى انطلق خصلاته فى تمرد حبيب.. ثم وجه صبوح، جميل، له عينان زرقاوان بعيدتا الأغواء كأنما لا قرار لهما! وفم دقيق جميل له شفتان كالعقيق يوحى منظرهما بحساسية مرهفة، وعواطف مشبوبة، وكأنهما تهتفان بدعاء صامت إلى التقبيل.. ثم عنق جميل، ناصع البياض.. وصدر ناهد، برز فى إغراء وغوية..

وبهت نلسون!.. وظنها فى البداية ابنه السفير أو ضيفته، ولكنها لم تلبث أن تقدمت ترحب به، فأدرك أنها.. «ليدى هاملتون»!

* * *

هكذا تم أول لقاء بين «هوارشيو» و.. «ايما»!

أما اللقاء الثانى فكان فى مأدبة أقامها السفير فى ذلك المساء تكريماً له.. وفيه ألفى «الكابتن» البحرى نظراته مشدودة إلى الشابة الجميلة زوجة السفير الشيخ، لا تقوى على أن تتحول عنها.. وقد أذهلته بسماتها الساحرة، وأثمله حديثها، وأطربه الصوت العذب ذو الجرس المشجى الذى كان ينبعث من فمها الفاتن!

ولم يكن بد من أن يلاحظ «السير وليم» النظرات المشدوهة.. ولكنه لم يعجب لها، ولم يحنق من اصرارها على التطلع إلى زوجته - بل لعله رأى فيها تحية مرتقبة لجمال «ايما» فقد اعتاد أن يرى فتنتها تسحر الناس! - وفى غمرة هذا السحر رسم لها الفنان المشهور «جورج رومنى» ثلاثة وعشرين لوحة فى شتى الأوضاع والأشكال - وقد عاش الرسام يؤكد أنه لو قضى العمر كله يرسمها ما استطاع أن يلم بكل نواحى الإلهام الفنى فى جمالها الخلاب الخالد!

وفى غمرة هذا السحر أيضاً هبط وحى الشعر على «جيته» - شاعر المانيا العظيم - فتغنى بفتنة «ايما» الطاغية فى إحدى قصائده الخالدة!.. بل أن هذا السحر تجاوز الرجال إلى النساء، فإذا ملكه نابولى «ماريا كارولينا» تنزل «ايما» من نفسها منزلة خاصة تفوق منزلة الصديقة والأنيسة.. بل تفوق منزلة الأخت!

والتقى كابتن البارجة «اجا ممنون» بعد ذلك بزوجة سفير بلاده فى نابولى مراراً - فقد كانت الزيارة كما ذكرنا رسمية، ومن ثم توالت خلالها الحفلات والمآدب - وفى كل مرة، كان الشاب يزداد بها إعجاباً.. حتى أنه حين غادرت بارجته مياه نابولى فى نهاية مدة الزيارة، لم يستطع أن يقاوم رغبة طاغية فى أن يكتب إلى زوجته «فرنسيس» عن «ايما»!!.. فراح يلتمس لذلك الأسباب، حتى عثر على حجة مقبولة: إذ كان ابن زوجته - من زوجها السابق - فى صحبته ورعايته، فكتب يشيد لها بما لقيه «جوزيا نسيت» من حنو «ليدى هاملتون» التى كانت رائعة فى كرمها ولطفها، ثم انطلق قلمه يسجل اعجاباً سافراً تجاوز حدود التحفظ والاعتدال..!

* * *

وما أدرك نلسون ولا «ايما» إذ ذاك أن القدر قد ربط حياتهما إلى الأبد، منذ أن تعارفا!.. بل ما كانت «ايما» ـ على جمالها وتزلف الرجال إليها ـ لتتصور يوماً أن تشرك مع زوجها أحداً في الوفاء الذي كان يعمر قلبها.. لا لأنها كانت متيمة بذلك الزوج، (فالواقع أن السير وليم كان يكبرها بأكثر من ثلاثين عاماً، ولم يكن في شيخوخته المتزنة الحكيمة ما يأتلف مع شبابها الفائر المتفجر!).. وإنما كانت تدين له بولاء لا حد له، لأنها عرفت له مآثر لم تر مثلها من إنسان.. فقد انتشلها من وهدة سحيقة، فسما بها إلى أرقى مكانة.. وكانت دائماً تذكر له هذا الفضل، فلا تملك إذ تستعرض تاريخ حياتها إلا أن تزداد له عرفانا..

كانت ايما قد رأت نور الحياة أول ما رأته ـ في سنة ١٧٦٥ ـ في بيت عامل فقير من عمال مناجم الفحم في مناطق «تشيشاير» يدعى «هنري لايونز».. وبدا اشراق جمالها ـ منذ طفولتها ـ خلف ستار من غبار الفحم الذي كانت تنقله في عربة يجرها حمار، فتطوف أرجاء بلدة «جريت ينستون» لتتبعه.. ثم قدر لها ـ وهي في الثالثة عشرة من عمرها ـ أن تعمل خادمة.. وتكشفت لعينيها إذ ذاك فتنتها فأثارت في نفسها طموحاً حفزها على أن تفر إلى لندن، حيث التحقت بالعمل في أحد المتاجر.. ولكن الحياة خلف منضدة البيع في المتجر المعتم لم تكن البغية التي اشتهتها.. فقد كانت معتدة بجمالها، فأرادت أن تسلط عليه الأضواء كيما ينبه بريقه الأنظار..

ولكن الطريق لم تكن سهلة كما ظنت، بل كانت حافلة بالمزالق.. وانزلقت «ايما» بالفعل!.. وانتهى بها الزلل إلى العمل في الحانات كسميرة لروادها، وإلى التسكع في مشارب «كوفنت جاردن» لتصيد الرجال..!!

غير أن طموحها لم يكن ليجعلها راضية عن حياتها هذه.. بل أنها كانت تنشد رجلاً واحداً تؤثره بحبها، وتنعم بحمايته.. وساق لها القدر هذا الرجل في شخص «تشارلس جريفيل» وكان شاباً عابثاً من أبناء الطبقة الراقية، رأى فيها زهرة في غمرة الوحل فانتشلها في سنة ١٧٨١ ـ وهي بعد، رغم ماضيها الحافل، لم تتجاوز السادسة عشرة ـ واتخذها عشيقة خاصة له..

وأحست «ايما» بالطمأنينة والكرامة لأول مرة فى حياتها، فشاءت أن تضرب بينها وبين ماضيها ستاراً! فكرست نفسها لجريفيل، واستبدلت باسمها اسم «اميلى هارت»، وعاشت معه معيشة الزوجة العاشقة، وأن لم تربطها به رابطة الزواج الشرعى..

ولكن الحياة التى كان يحياها «جريفل» كنت تضطره إلى نفقات تفوق موارده.. وزادت رعايته للفتاة من أعبائه.. فقد حنا عليها صادقاً، وراح ينفق على تعليمها الغناء والرقص والتمثيل، ليكفل لها مهنة تصونها من ذله التسكع سعياً وراء طلاب اللهو الرخيص..

ورآها عنده الرسام النابغة «رومنى» لأول مرة، فبهره جمالها وحيويتها، وطغيان سحرها وفتنتها، فراح يحاول جاهداً تسجيل هذه النواحى الفذة من لوحات خلدت اسمه فى عالم الفن!

وظلت «ايما» فى رعاية «جريفيل» ثلاث سنوات، أخلصت له فيها الود، وكانت أمينة فعلاً على عهده - بل لعلها أحبته حقاً وتعلقت به! - وذات يوم زاره خاله «السير وليم هاملتون» وكان قد عاد إلى إنجلترا فى أجازة قصيرة، فما وقع بصره عليها حتى أحس بالحياة تدب فى القلب الذى أثقلته ثلاث وخمسون سنة من العمر، والذى خاله قد مات حين ماتت - قبل ذلك بعامين - الزوجة التى أورثته ضيعة وثروة طائلة..

وهتف السير وليم بابن أخته: «الآن فهمت سر الحاحك فى طلب المعونة المالية حتى كدت تستنزف مواردى!»

وأعجب «السير وليم» بعشيقة ابن أخته.. وسحرته الفتاة بما أوتيت من لطف ولباقة وذكاء فلم يضنى على «جريفيل» بمال!

ولكن ديون جريفيل أخذت تتراكم وتستفحل، حتى جاء اليوم الذى غدا فيه مهدداً من دائنيه.. بيد أنه لم يحفل إذ ذاك بشئ قدر ما حفل بفتاته ومستقبلها، إذ أدرك أنه لن يستطيع أن يوفر لها الحياة المطمئنة التى تقيها أدران الوحل!

وكان خاله ملجأه ومستشاره، فكتب إليه يسأله الرأى.. وجاءه الرد صريحاً بغير مجاملة: فلقد عرض عليه السير وليم أن يسدد له جميع ديونه، مقابل أن ينزل له عن.. «ايما»!

* * *

يبيع عشيقته.. سدادا لديونه!

وألقى «جريفيل» نفسه ينكر على خاله هذا الإقتراح ويستهجنه!.. ولكن الحاح الدائنين كان يلاحقه فى نذير رهيب.. حتى وجد نفسه موزعاً بين عدة عوامل، خشية أن ينفذ الدائنون وعيدهم.. واعتزازه بالفتاة.. وثقته من اخلاصها فى حبها له.. ثم رغبته فى أن يطمئن على مستقبلها.. وأخيراً حنقه على خاله واستنكاره الثمن الذى أراده للمعونة!

ولكن الدائنين لم يتركوا له فرصة للتفكير، فاضطر إلى الإسراع فى العمل: عرض اقتراح «السير وليم» على «ايما».. لكنها استنكرته، وصاحت به والدموع تفيض من عينيها:

ـ إذا كنت قد مللتنى وسئمت معاشرتى، فخير لى أن تطردنى عن أن تبيعنى!

ولكنه مازال بها يشرح لها الموقف ودقائقه، ويزين لها الحل، حتى خفت ثورتها، ووهنت معارضتها.. فألقت برأسها الجميل على صدره وهى متعلقة بعنقه، وتشبثت به وكأنها تحتمى من المصير المرتقب.. بينما قال لها «جريفيل» مسرياً «اعتبريها تجربة.. سأرسلك إلى نابولى فى زيارة تنزلين فيها ضيفة على خالى، فإذا راق لك العيش هناك، بقيت.. ومن يدرى؟.. لعل الحال تتبدل فاسعى بنفسى إلى اللحاق بك لاستردك. وإذ ذاك، سأناضل خالى ما وسعنى النضال من أجلك!»

وسافرت إلى نابولى، حيث تلقاها «السير وليم» ولما تمضى سنتان على لقائهما الأول.. ولما تمضى أربعة أعوام على وفاة زوجته!.. ولعله لم يرم إلى الاستئثار بالفتاة إشباعاً لعاطفة جامحة أو قلب أبق، ولكنه كان ذواقاً للجمال الفنى، ينفق عن سعه فى اقتناء التحف.. وقد كانت «ايما» تحفه رائعة أبدعتها الطبيعة!

* * *

جمال يغزو البلاط الملكى!

ومر شهران، وثلاثة، وأربعة.. وارتاحت «ايما» إلى الإقامة فى نابولى، فلقد أتاحت لها مكانة «السير وليم» فرصة الظهور فى أرقى المجتمعات، فإذا بجمالها

يتألق، وقد زاده رواء ما وفره له السفير من حياة ناعمة ورفاهية!.. ثم أرضت أقصى جماع طموحها يوم أتيح لها أن تدعى إلى حفلات البلاط الملكى فى نابولى، حيث طغت بحسنها وأناقتها وروحها المرحة على كل الحسان.. حتى لقد مالت إليها «ماريا كارولينا» ـ الملكة ـ ثم استحال الميل إلى صداقة وطيدة! فغمدت «ايما» من أقرب الناس إلى قلب الملكة التى كان لها من قوة الشخصية والأرادة ما جعلها تطوى الملك فى أطواء نفوذها.. وتصبح صاحبة الكلمة الحقيقية فى المملكة!

ولمع نجم «ايما» فى سماء مجتمع نابولى حتى غدت محوطة بالمعجبين والهائمين بها، من الرجال والنساء!.. وأصبحت أثوابها «مودة» تحتذى.. وحفلاتها مناسبات يسارع الكل إليها، ليشهدوا تلك اللوحات الحية والأدوار التى كانت تقوم بتمثيلها لتسلية الضيوف!.. وبلغ من رجاحة عقلها وحضور بديهتها، وتألق ذكائها، أن اعتبرتها الملكة بمثابة مستشارتها الخاصة، تلجأ إليها إذا أحزبها أمر، أو أعوزها تدبير.. وتدعوها لمسامرتها كلما أثقلها الضجر من حياة البلاط، أو أبرمت بنفاق رجال الحاشية!.. بل لقد بلغ من اعتزاز الملكة بها، وإيثارها أياها، أن قالت لها يوماً: «أننى لأود أن تكون ثيابنا دائماً متماثلة، حتى نبدو كأختين!!».

وكان طبيعياً أن يدرك الدبلوماسى الإنجليزى العجوز مدى أهمية هذه العلاقة بين «ايما» و «ماريا كارولينا».. لذلك لم يتردد طويلاً حين فهم من الإشارات العابرة المستترة أن الملكة تسأله أن يجعل لايما صفه رسمية حتى تستطيع أن توطد علاقتها بها وأن تنزلها من البلاط المنزلة التى تريدها لها، دون خوف من نقد ناقد أو تعريض ناقم!.. فكان أن فاجأ السير وليم عشيقته ذات يوم من صيف سنة ١٧٩١ ـ وكان قد اصطحبها إلى إنجلترا فى أجازة ـ فاجأها.. »

متسائلاً: «ما رأيك يا عزيزتى فى اسمى؟».. فأجابت «ايما» فى لهجة صادقة: «انه أعز الأسماء واكرمها..»

ـ فما رأيك فى أن ألحقه باسمك؟

وشهقت «ايما» مذهولة.. لا لأن الفرق بين عمريهما كان يروعها، وإنما لأنها لم تكن تحلم بأن يكون لها مثل ذاك الاسم وهى التى تحمل وراءها ماضياً ذليلاً..!

واستطرد سير وليم هاملتون: «أننى لا أعبأ البتة بالأوضاع ما دمت معى.. ولكننى أريد أن أعزز مركزك وأن أرفعك فوق الجميع!»

وفى ٦ سبتمبر من ذلك العام، عقد زواجهما..

وبهذا الزواج بدأت صفحة جديدة فى حياة ايما.. صفحة «السفيرة» التى تقدر واجب الوفاء للوطن الذى تمثله، والوفاء للزوج الذى أكرمها وانتشلها من مهاوى الذلة ليرفعها إلى مجالس الملوك!.. كما تقدر مقتضيات مكانتها لدى الملكة التى بدأت تطورات السياسة الأوربية ـ لاسيما عقب قيام الثورة الفرنسية ـ تجعل لملكتها قيمة سياسية و «استراتيجية» كبيرة!.. وهكذا غدت «ايما» همزة الوصل بين زوجها والملكة.. أو بالأحرى، بين السلطات البريطانية والرأس الحاكمة فى نابولى!.. وكثيراً ما استعان بها «السير وليم» فى اقناع الملكة بالأقدام على أمور تخالف سياسة زوجها الملك «فرديناند»!

وكانت «ايما» رغم كل ماضيها، صادقة فى ولائها للسير وليم هاملتون، أمينة على عهده.. لا يعيبها سوى أنها كانت مسرفة، مشغوفة بالبذخ.. وقد لا يكون هذا عيبا إذ ما تذكرنا أن الملكة نفسها كانت تريدها على أن تجاريها، لتظهرا معاً «كأختين شقيقتين».

وفى تلك الأثناء، كانت الأحداث تتوالى على المسرح السياسى الدولى فى تعاقب سريع: فقد نشبت الثورة الفرنسية فاهتزت عروش أوربا لانهيار العرش الفرنسى، وبدأت الدول الملكية تتحوط، وتتقارب لتتدبر سلامتها!.. ثم ظهر «نابليون» على المسرح بطموحه المشبوب، وخططه الجريئة.. فبدأت بريطانيا ترى فى حركاته ما يهدد نفوذها فى حوض البحر الأبيض المتوسط، وترى فى سياسته ما يهدد إمبراطوريتها، وفى نجاحه ونجاح الثورة ما يهدد الملكية والعرش فيها.

ومن ثم كانت بريطانيا أكثر الدول الملكية اسرافا فى عداء فرنسا وجمهوريتها ونابليونها!.. وراحت قطع الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض تتحرك قلقلة، فإذا آبت إلى قواعدها حينا ظلت فى رسوها متحفزة!

وهيأ هذا الجو خير الفرص لليدى هاملتون كى تظهر على مسرح السياسة، مستغلة مركزها فى بلاط نابولى ومكانتها لدى «ماريا كارولينا» حتى ليعزى إليها

الفضل فى حصول بريطانيا على كثير من البيانات الهامة والأسرار السياسة الخطيرة التى أحاطت ببلاط نابولى وسياسة ملكها «فرديناند» فى سنة ١٧٩٦.

* * *

دموع امرأة.. تسعف بريطانيا!

ولكن أهم أدوار «اما» على المسرح السياسى لم يبدأ إلا فى سنة ١٧٩٨.

كان «نلسون» إذ ذاك يذرع البحر الأبيض بحثاً عن الأسطول الفرنسى الذى أحاط نابليون حركاته بتكتم شديد، وهو يعد عدته لغزو مصر!.. وفى ساعة مبكرة من صباح أحد الأيام الأخيرة من ربيع ذلك العام، أوقظ «السير وليم هاملتون» من نومه على مقدم رسول يحمل رسالة خطيرة من نلسون أعرب فيها عن أن الظروف قد جعلت سفنه فى حاجة ماسه إلى أن تأوى إلى مياه نابولى وصقلية - لتتزود بالماء والمؤن - فى طريقها إلى تعقب الأسطول الفرنسى!.. ولما كان «فرديناند» قد عقد معاهدة مع نابليون تعهد فيها بأن لا يسمح لأكثر من سفينتين من سفن الأسطول البريطانى بدخول أى ميناء تابع لمملكة نابولى، فقد كان لزاماً على السفير أن يسعى بكل حيلة إلى الحصول على إذن من الملك لإيواء سفن نلسون فى ميناء نابولى.

ولم يضع هاملتون وقتاً، بل هرع من فوره إلى «فرديناند» الذى بادر بدوره فدعا مجلسه إلى الانعقاد لبحث الأمر.. ولكن الخوف من الفرنسيين كان مسيطراً على المجلس، فرفض أعضاؤه رجاء نلسون.. وبدا أن لا مفر للقائد البحرى الإنجليزى من أن يعود إلى «جبل طارق» إذ أن بارجة القيادة «فانجارد» كانت قد فقدت صاريتها أثناء عاصفة هوجاء، وبات لابد من اصلاحها.. ولكن العودة إلى «جبل طارق» كانت كفيلة بأن تضيع على نلسون كل أثر للأسطول الفرنسى أو فرصة فى العثور عليه..

وإذا كان «هاملتون» قد استسلم فى تلك الظروف لليأس، فإن «ليدى هاملتون» أبت أن تجارية، بل أسرعت إلى صديقتها الملكة، فألقت بنفسها عند قدميها باكية..

وهتفت بين عبراتها: «بحق الحب الذى بيننا، هلا أجبت توسلى؟.. أنت - وأنت وحدك - التى تستطيع انقاذ الموقف.. وأنت.. أنت وحدك التى تملك من السلطة ما

يخول لها أن تأذن لاسطولنا بدخول الميناء.. فاكتبى الأذن الآن!.. أننى أتوسل إليك أن تؤدى هذا الصنيع لايما.. صديقتك!»

وترددت الملكة فى البداية ـ فقد خشيت عواقب تدخلها فى مسألة خطيرة كهذه ضد إرادة الملك ومستشاريه! ـ ولكنها لم تقو طويلاً على مقاومة توسلات صديقتها الأثيرة الحبيبة..

وسرعان ما كان رسول نلسون ينطلق إليه بأقصى سرعة يحمل الإذن الثمين!!

وخف هاملتون وزوجته إلى الميناء فى ارتقاب وصول نلسون.. وكانت ايما قلقه، محمومة، بادية الانفعال وهى تقف على سطح «اللنش» الذى سعى إلى مدخل الميناء ليستقبل «اجاممنون».. حتى إذا التقى بها، رفع السفير وزوجته إلى سطح البارجة..

وكانت الدماء قد انحسرت عن وجه «ايما» ولهفتها قد تفاقمت.. كانت تعرف أن نلسون قد فقد ذراعه اليمنى فى مغامرة جريئة للاستيلاء على «سانتاكروز» منذ عام وأنه.. أصيب فى عينه اليسرى فى بعض العمليات البحرية فى «كالفى» قبل ذلك بثلاثة أعوام، فأخذت قوة إبصار تلك العين تخبو تدريجياً.. وكانت أنباء وأخبار انتصاراته تتناهى إليها فتتقبلها فى عناية واهتمام، وفى صدرها شعور خفى لا تفقه كنهه.. فلما اقتربت الساعة التى تلقاه فيها بعد فراق دام خمس سنوات، بدأت غريزة الأنوثة تلقى بعض الضياء على ذلك الشعور الخفى الغامض.. وأخذت هالة البطولة التى أحاطت بنلسون تكتسب لوناً وردياً بهيجا، انعكس من أعماق فؤاد «ايما»!

وإذ رأته بنفسه يخف لاستقبالهما.. وتبينت ما فعلته به سنوات الصراع والكفاح والعمل الدائب.. وشاهدت العصابة السوداء التى استقرت على عينه اليسرى، وكم السترة الذى خلا من الذراع اليمنى وحمل بدلاً منها الإشارات القصبية التى تدل على أنه أصبح برتبة «اميرال».. وجف قلبها، وكأنها قرأت فى لوحة الغيب ما سوف تتطور إليه علاقتها بذلك البطل المرموق.

ولم تكن ثمة حفلات ولا أوقات فراغ فى هذه المرة.. بل أن نلسون لم يجد وقتاً لأكثر من أن يستمع من هاملتون إلى تفصيلات الدور الذى أدته زوجته، ومن أن يشكر «ليدى هاملتون» على الخدمة الجليلة التى أدتها، وأن يؤكد لها أنه وبريطانيا بأسرها

لن ينسيا لها هذه الخدمة..

ومع ذلك.. فإن الدور الذى أدته «ايما» كان ذا أثر عظيم فى حياتها وحياة القائد البحرى، فقد فتح عينيها على أمور لم يجدا ثمة داعيا للبحث عن كلمات تعبر عنها.. وأدركت «ايما» بغريزة المرأة أنها حين توسلت إلى الملكة لم تكن مدفوعة بحبها لوطنها فحسب، وانما ملبية لنداء قلبها أيضاً، من أجل بطل أعجبت به!.. فلما رأته الآن على ظهر البارجة، ولمحت بريق عينه الباقية، تبينت أن قلبها لم يكن مغالياً.. وأن نلسون لم يكن يتوق إلى أكثر من أن ينتزع الظفر فى المعركة بأسرع ما يمكن، ثم يلقى بقلبه عند قدميها!.. كما أدرك نلسون بدوره أنها لم تكن تزمع أن تدع القلب ملقى دون اكتراث..

وحملت النظرات المتبادلة، والابتسامات، وضغط الأيدى، حديثاً صامتاً بين زوجة السفير والقائد البحرى.. بين «ليدى هاملتون» و«نلسون».. بين المرأة والرجل!

وبدأت الحسناء الفاتنة تعيش فى فترة من القلق، والوجد، والتكلف!.. ولاسيما منذ انطلاق نلسون فى أعقاب الأسطول إلى المياه المصرية!.. فقد شرعت الهواجس ترتاد فى غيابه فكر «ايما» وقلبها.. وأخذت تستريب فى أنه يشعر بما دب فى فؤادها نحوه، وأن فؤاده قد استجاب بدوره لنداء العاطفة.. وكان القلق قاسياً، لوعها بألوان من العذاب.. كان قلقاً مزدوجاً: فهى قلقة على العاطفة الوليدة فى أعماقها، وقلقة على سلامة البطل الذى كان يسمو فى عينيها وخيالها محوطاً بهاله كانت تزداد تألقاً يوماً بعد يوم!

على أنها عانت، إلى جانب القلق والوجد، ضرورة «التمثيل» والتكلف: كان عليها أن تبسط على وجهها قناعاً من المرح الذى اعتاده القوم منها، ومن الابتسام الذى ألفوه منها، ومن الابتسام الذى ألفوه مشرقاً على أساريرها، لتخفى ما كان يضنيها من لواعج وشجون، وهى المضطرة إلى الظهور فى المجتمع وإلى مخالطة عليه القوم فى كل حين..

وكأنما أشفق القدر على تحفته الغضة من وطأة الجوى والضنى، فما لبثت الأنباء أن أقبلت تحمل البشرى بانتصار نلسون فى معركة النيل، وتحطيمه الأسطول الفرنسى فى «أبى قير»! واستولت على «ايما» فرحة مزدوجة: فلقد أسعدها أن إطمأنت على

سلامة بطلها، وإلى سلامته مظفراً مكللاً بالمجد.. وضاعف من سعادتها أن النبأ سرى في الطرقات يرقصون ويغنون.. إذ كان في انتصار نلسون ضمان لهم من غزو الفرنسيين، ومن بطش نابليون.

هكذا كانت «ايما» في أحزانها الماضية وعذابها وحيدة.. أما أفراحها فقد شاركها الناس جميعاً رواءها!

بل أن «هاملتون» نفسه لم تحل الشيخوخة بينه وبين الأنفعال.. فإذا هو في ابتهاجه قد تخلى عن قيود الوقار، حتى بدا كالتلميذ في يوم نجاحه..! وأعمته حاله هذه عن أن يلاحظ ما اعترى «ايما» من تغيير، جعلها تبدو كالحالمة.. بل كالمجنونة، تضحك لحظة، وتبكي أخرى!.. تشرد آنا لتناجي الأحلام وتحاول أن تغوص بنظراتها في أطواء الغيب، وتعيش آنا آخر في المناسبة الراهنة، فتأمر بالأثواب كي تعد، وتفكر في الحفلات والمآدب والسهرات التي تقيمها حين يصل «نلسون» من ميدان نصره..!

ولم ير هاملتون في ذلك ما يريب.. بل لم يلاحظ أحد حقيقة التطور الذي أصابها، اللهم ألا.. «ماريا كارولينا» ملكة نابولي، التي حدست سرها فأشفقت عليها وحنت في عطف ومواساة!

* * *

نشوة العمر!

وجاء اليوم العظيم.. اليوم الثاني والعشرون من شهر سبتمبر ١٧٩٨..

كانت نابولي بأسرها تجتاحها حمى هوجاء، صاخبة.. وكانت الجموع تحتشد على طول الشاطئ، ترقب «اللنشات»، والزوارق تنتشر على صفحة الماء، مقلة الملك والملكة وكبار أفراد الحاشية والبلاط، والسفير البريطاني و «زوجته».. وكانوا جميعاً ينطلقون إلى أطراف مياه «نابولي» ليستقبلوا البطل العائد من مياه مصر..

وكانت «ايما» على استعداد لأن تجود راضية بما بقي من عمرها، كي تنفرد بهوراشيو نلسون في اللحظة الأولى لوصوله، وكي تكون أول من يملى النظر بطلعته.. ولكن قيود الرسميات كانت تحرمها مما صبت إليه!

ولاحظ القوم كيف كانت وجنتا «ليدى هاملتون» متفرجتين أكثر من توردهما المألوف، فعزوا ذلك إلى تأثرها بنسيم البحر! وكانت سيطرتها على أعصابها، وتمالكها جأشها، يمكنها من أن تحتفظ بمظهرها كزوجة لسفير الوطن الذى ينتمى إليه البطل.. لكنها فى أعماقها كانت بعيدة عن الجلد والرزانة.. كان قلبها يخفق فى وجيب عنيف متتابع، حتى لكأنه يوشك أن يخرق جدران صدرها لينطلق فيسبق الركب إلى الرجل القادم.. الرجل الى أثار فيه تلك العاطفة التى أوحت غريزة الأنثى إلى «ايما» أنها.. الحب!

وما أشرق نلسون بطلعته، حتى تخلت عن «ايما» كل مواهبها التمثيلية، وكل قدرتها على التجلد.. ولمعت عيناها ببريق عجيب.. فهتفت وهى تندفع على الرغم منها: «يا إلهى!.. أهذه حقيقة؟!».

ولم تكن تعى ما تقول أو تفعل.. بل أنها لم تشعر بأنها تكلمت، ولا أحست بأنها اندفعت نحو البطل، فما بلغت البقعة التى كان يقف فيها على سطح بارجته، حتى كان انفعالها العاطفى قد بلغ أقصاه، فإذا بغاشية تنتابها.. وإذا بها تهوى مغمى عليها.. فتلقاها ذراع «البارون نلسون أوف نيل» - كما أصبح يدعى - وقد أبرقت عينه «الوحيدة» إذ رأت الدليل الصادق على أن العاطفة التى تحركت فى أعماقه، كانت تنعكس على فؤاد «ايما» الجميلة.. وأن الهواجس التى انتابته هو الآخر - خشية أن تكون غافلة عن اعجابه - كانت أضغاث أحلام راودته أثناء المعركة!

وكان كلاهما يتوق إلى خلوة بصاحبة، كى يطلق قلبه «يفضفض» عما يتخمه من انفعالات!.. ولكن الرسميات كانت تتطلب من كل منهما أن ينكر ذاته ورغبته.. لذلك لم تلبث «ليدى هاملتون» أن تمالكت نفسها بعد أن استردت وعيها، فوقفت إلى جانب زوجها تؤدى دورها كما كان ينبغى أن يؤدى!

لكن الرسميات كان لابد لها أن تنتهى مهما طالت اجراءاتها.. وحظى «نلسون» و «ايما» باللحظة التى كانا يتوقان إليها فى لهفة وحنين.. وبدلاً من أن يندفع كل إلى أحضان الآخر، كما كان يخال، ألفيا نفسيهما يسترسلان فى نوبة من الخشوع والرهبة.. تاركين أمر المناجاة للقلبين والروحين.. كل ما قويا على اطلاقه من شفاههما هتافات انسابا فى همس ناعم حنون! «أننى أعبدك!».. «وأنا أهواك»!

وعاد الصمت يرين عليهما.. صمت واجم.. فكأنما الهمستين الناعمتين قد أيقظتا عقلي المفتونين، فتنبها إلى حقيقة الظروف التي تحيط بحبهما، فما كانت مبادئ الأخلاق، ولا مبادئ الدين، ولا مبادئ الشرع والقانون، لتقر هذا الحب أو ترحب به.. كان كل من العاشقين مقيدا بروابط الزواج من آخر غير الرفيق الذى اختاره قلبه أخيراً.. لكن زواج كل منهما كان فى الواقع مجرد قيد لا أكثر، فقد كانت ايما «زميلة» أو صديقة لسير وليم هاملتون، أكثر منها زوجة، ولكن الاحترام والعرفان بالجميل كان يشدانها إليه.. وكان نلسون لا يحس لزوجته بأى أثر فى حياته، أكثر من أنها مجرد رمز، بل قيد يمنعه من أن يحظى بما تهفو إليه قلبه.. قيد لا سبيل إلى الفكاك منه!

غير أن غرامهما كان قوياً جامحاً، فلم يلبث أن حطم القيود واجتاح العوائق.. وأحس كل منهما خلال المدة التى بقيها نلسون فى نابولى أن لا قبل لهما بالفراق بعد هذا اللقاء، بل أن الفراق بدا أمراً مستحيلاً.. وككل عاشقين شعرا بأن غرامهما أقوى من القواعد التى اصطلح عليها المجتمع وجعلها اطاراً يحصر فى نطاقه كل علاقة بين رجل وامرأة.. ومن ثم شرعا يعدان الخطط للمستقبل، على أساس التمرد على قيود المجتمع.

وكان نلسون لا يفتأ يتمتم وكل منهما فى أحضان صاحبه: «كم أتمنى أن تكونى إلى جانبى دائماً.. يا أعز الناس»

وتجيب «ايما» نشوانه: «بل يجب.. لسوف أبقى إلى جانبك»

ـ لشد ما يحزننى أننى لا أستطيع أن أتخذك زوجة..

ـ سأقنع بأن أكون زوجتك أمام الله!!

ـ هو هذا.. أن «فرانسيس» زوجتى أمام المجتمع.. أما أنت فزوجتى أمام الله!!

ثم يستغرق فترة فى التفكير.. ويتمتم فى شرود، وكأنه فى عالم آخر.

ـ أننى أقدرها وأحترمها، ولكنى ما شعرت يوماً بأننى وهبتها قلبى!.. أنت أول من استولى على هذا القلب.

ـ أترانى أكون آخر من يستولى عليه أيضاً!

ـ بلا شك.. قطعاً.. لقد غدا ملكك، ولم يعد لى سلطان عليه..

ـ رددها مراراً، فما أمتع أن أسمعها من شفتيك!

وكانت المهرجانات والحفلات الساهرة الصاخبة التى تتابعت فى نابولى بمثابة أفراح شهر العسل لذلك الزواج غير الشرعى الذى ربط بين ايما ونلسون.. وكان القائد البحرى موضع التكريم فى كل حفلة، بينما كانت «ليدى هاملتون» النجم اللامع الذى لابد منه ليكتمل جمال الاحتفال!

وبدا كأن هذه الأفراح لا تريد أن تنتهى.. وكانت «ايما» تتفنن فى الابتكار فى كل حفلة، فظهرت فى احداها وقد ارتدت ثوباً ابتعته ونثرت على رقعته أسماء المعارك التى انتزع فيها نلسون لواء النصر والظفر.. وفى حفلة أخرى أقيمت على سفينة القيادة وكانت هى ضيفة الشرف فيها، تنكرت فى ذى «كليوباترة» الملكة التى عاشت للحب وماتت من أجله!

على أن هذه المباهج كلها، ولذائذ الغرام التى أقبل عليها العاشقان على ارتشافها فى نهم، لم تلههما عن واجباتهم الوطنية.. فقد كانت انجلترا فى تلك الأثناء منهمكة فى تكوين حلف أوربى ضد نابليون، فسعت ليدى هاملتون جاهدة لدى الملكة، لتضمن أن يكون لانجلترا مكان الصدارة فى مياه نابولى والمرافئ التابعة لها.. وكان الملك قد فرغ من حشد جيش اعتزم أن يرسله لمناوأة قوات «نابليون»، ولكن الرأى لم يستقر على الخطة التى يستغل فيها هذا الجيش، فاقترح نلسون أن يسير الجيش زاحفاً نحو الجبهة الفرنسية فى الشمال.. واستطاعت ليدى هاملتون أن تقنع الملكة، فمازالت هذه بملكها حتى وافق على الخطة.. وإذ ذاك تحرك الأسطول البريطانى ليقطع خطوط الاتصال الفرنسية.. ووفق الأسطول فى مهمته.. أما جيش نابولى فتقاعس، ثم شاعت فيه الفوضى، مما مكن الفرنسيين أن يطاردوه.

وهالت هذه الحالة معارضى الملك من أنصار الجمهورية فى نابولى فثاروا.. وغدت الأسرة المالكة مهددة بالخطر.. فانقلبت الآية.. وكما توسلت ليدى هاملتون إلى ماريا كارولينا يوماكى تساعد الأسطول البريطانى، توسلت «ماريا» إلى «ايما» اليوم كى ترد لها الجميل، فإذا سفن نلسون تنقذ الأسرة المالكة من الثورة، وتنقلها إلى بالرمو التى اتخذت عاصمة مؤقتة للحكم..

وهناك كان لنلسون وإيما النفوذ الأعلى!!.. وزاد من مكانة القائد البحرى أنه نجح فى أن يفرض - فى آن واحد - حصاراً على مالطة لمقاومة الفرنسيين، وحصاراً آخر على خليج نابولى ضد الثوار الجمهوريين.. وهكذا ركن إلى الحصار بدلاً من السعى إلى القتال.. ويقول المؤرخون أنه أراد بذلك أن يجنب أسطوله ورجاله الخسائر.. ويقول الأدباء: بل أنه رأى فى سياسة الحصار خير ما يمكنه من البقاء على البر، لينعم بحب «إيما»!.. وأيا كانت الحقيقة فإن العاشقين تحررا فى باليرمو من كل تحرج، فأوغلا فى هواهما.. غير مبقين على شئ أو مبالين بأحد.

على أن «فرديناند» و «ماريا» ملا الانتظار ورأيا أن الحصار سياسة تستغرق أمداً طويلاً، فأوفدا «كردينالا» من الموالين لهما ليستنهض همم المخلصين لهما من أعوانهما.. وألف الكردينال «فابريزيورفو» جيشاً من المتطوعين استطاع به أن يضطر الفرنسيين وأنصارهم من الثوار إلى يلوذوا بقلاع نابولى فيعتصموا بها..

ونجحت ايحاءات «ليدى هاملتون» إلى الملكة، فبدأ الملك يوجس خيفة على نفوذه من نجاح «رفو».. وازداد قلقه حين نمى إليه أن الروح المعنوية لدى متطوعى جيش الكردينال بدأت تتخاذل كلما طال أمد محاصرتهم للقلاع، مما حمل الكردينال على أن يسعى لعقد صلح مع الفرنسيين.. ومن ثم لجأ الملك إلى نلسون فسأله أن يزحف على نابولى ويستولى على مقاليد الأمور فى يديه..

وتحرك أسطول نلسون، ومعه على سفينة القيادة كل من «هاملتون» وزوجته! وفى ٢٤ يونيو ١٧٩٩ وصلوا إلى نابولى فإذا بهم يفاجأون بعلم أبيض يرفرف على القلاع.. فإن «رفو» كان قد وقع صلحاً مع كل من الثوار والفرنسيين!.. لكن نلسون أبى أن يعترف بهذا الصلح، لاسيما وأنه أدرك أن العدو كان مستعداً قبل ذلك للاستسلام..

وكان «رفو» قد أمن الجمهورين على أن يبرحوا البلد بحراً، فما كان من نلسون إلا أن فاجأ مراكبهم واعتقل عدداً كبيراً منهم، وأعدم أحد كبارهم بعد محاكمة عسكرية عقدها على ظهر بارجته!

لكن تصرفات نلسون هذه أثارت ثائرة معارضيه وحاسدية - من مواطنيه الإنجليز - فاتخذوا منها مادة لينسجوا الدسائس ضده.. وفى تلك الأثناء عين «اللورد كيث»

قائداً للأسطول البريطانى فى البحر الأبيض، ولكن نلسون لم يرتح إلى التعاون معه.. بل إنه لم يرض عن بعض خططه فعارضها، وذهب إلى حد رفض أوامره، تمسكا بأرائه فى بعض نقاط «التكتيك» البحرى!.. ومع أن الأحداث التى تلت ذلك أثبت صحة آراء نلسون إلا أن ذلك لم يكن كافياً لتبرير تمرده على قائده الأعلى.. فحصل على أجازة رأى أن يعود فيها إلى وطنه ليعمل على تصفية الجو بينه وبين رؤسائه وحكومته، ويبدد على نفسه أمام الرأى العام البريطانى ما اشاعة عنه المؤتمرون ضده.

وفى تلك الأثناء بلغ سير وليم هاملتون سن السبعين فأعفى من منصبه.. وإذا كان الرجل يحب «ايما» ويمجد نلسون، لذلك فإنه اشتق من هذا التمجيد وذلك الحب فلسفة سمحت له بأن يرضى عن سفر نلسون معه ومع زوجته برا عبر الدول الأوربية.. أو على الأصح رضى بأن يكون فى ركاب العاشقين، وأن يجعل من نفسه راعياً ومستشاراً لهما!

وكان وداع نابولى لثلاثتهم أليما، فقد شق على «ماريا كارولينا» أن تحرم من المرأة التى كانت سميرتها وصديقتها المفضلة. وكان أبسط تقدير قدمته لها أن أوحت إلى زوجها فأنعم عليها بوسام «صليب مالطة» - فكانت أول امرأة تنال هذا الوسام! - كما أنعم على نلسون بلقب «دوق برونتى»..

وكانت الرحلة سلسلة من الاستقبالات وحفلات التكريم، على طول الطريق.. فى «فيينا» و «براج» و«درسدن» و «همبورج».. وكانت من أعذب الفترات فى حياة العاشقين.. فقد كان كل منهما منصرفا فيها إلى الآخر، مستغرقاً فى هواه، لا يكاد يحس لسواه وجودا!

وفى انجلترا، ازداد العاشقان جرأة واستهتاراً.. حتى لقد عرض نلسون على زوجته «فرانسيس» أن يقيما و «هاملتون» وزوجته فى بيت واحد!.. وراح يعرض الزوجة الصابرة لاقسى مظاهر الهوان.. بل كان ينصرف عنها ليغمر «ايما» - التى كانت تشاطرهما مقصورتهما فى المسرح، ومائدتهما فى المآدب - بكل ألوان الشغف والرعاية..

وضاقت فرانسيس ذرعاً واشتدت شكواها.. وأخذ الشجار يدب بينهما، فكان نلسون يثور ويغادر البيت ليذرع الطرقات طيلة الليل.. حتى يطلع النهار فيسعى إلى

دار «هاملتون» ينشد السلوى!.. وشجع هذا «ايما» على أن تشيع فى كل مكان أن فرانسيس تقف عقبة فى طريق صعود زوجها إلى قمة المجد..

وتملك القنوط فرانسيس أخيراً، فهجرت نلسون. ولكنها ظلت تحن إليه، حتى لقد كتبت له بعد عام تقول: «..لقد أعددت لك بيتا دافئاً مريحاً، لو شئت يا زوجى العزيز أن نعيش معاً.. وثق أننى لن أشعر بالسعادة إلا يوم يتحقق هذا.. ودعنى أؤكد لك ثانية، أننى لا أملك غير أمنية واحدة فى هذه الحياة: هى أن أرضيك.. فلندفن كل ما حدث فى أعماق النسيان، فسرعان ما يصبح حلماً زائلاً..

ولكن نلسون كان يترقب هذه الفرصة، لينفصل عن زوجته نهائياً، كى يكرس كل حبه وعاطفته لايما.. وعندما أوحت «ايما» إلى زوجها أن يدعوه للإقامة معهما عقب الانفصال، لم يتردد فى الاستجابة!

* * *

ثمرة الهوى الحرام!

وأترعت كأس نلسون بالسعادة، حين أنجبت له «ايما» ثمرة غرامهما المحرم: «هوراشيا».. ابنته الوحيدة! ـ وأن كان الأدب والخوف من ألسنة المجتمع قد اضطره إلى أن يزعم أنها ليست ابنته وانما هو قد تبناها! ـ وكانت هوراشيا قد ولدت وهو فى الشمال يخوض معركة «كوبنهاجن».. وزاد انتصاره فى هذه المعركة من تقدير وطنه له.. ومن شغف ايما به، فأقامت له حفلة كبيرة غنت فيها، وعزفت، وقامت بإحدى رقصات «نابولى» الشعبية العنيفة..

وكانت «ايما» فى غيابه قد شقت طريقها فى البلاط الملكى البريطانى، واستطاعت أن تظفر بإعجاب ولى العهد.. فحاول البعض أن يتخذوا ذلك وسيلة إلى الافساد بينها وبين نلسون.. ونجحوا بالفعل فى إشعال غيرته، فقال لها يوماً: «أننى أعرف هدفه.. فهو يبغى أن يتخذك خليلة.. فليصبه الله بالعمى أن هو تطلع إليك!».. وانفثأ غضبه بهذه الكلمات فودعها موصيا اياها بأن تحذر الأمير.. ثم انطلق إلى البحر ثانية، ليشن الحملة على «بولونى» ارهاباً لنابليون.. ولكن «صلح أمين» ما لبث أن عقد، وآن لنلسون أن يعود إلى الوطن فيخلد إلى الراحة..

وكانت «ايما» فى غيابه قد ابتاعت باسمه منزلاً فى «مرتون» تحوطه ضيعة صغيرة.. فعاش فيه العاشقان فى أسعد جو لفهما منذ بدء غرامهما.. وكأنما رأى «هاملتون» أن لا مكان له فى حياتهما، وأنه قد عاش ما فيه الكفاية، فودع الحياة فى ابريل ١٨٠٢، وقد أسند رأسه إلى صدر «ايما» وأمسك بيد نلسون يوصيه خيراً بعزيزته «ايما»!!

* * *

تدفعه إلى المجد دفعاً!

وبموت هاملتون خلا الجو للعاشقين تماماً.. ولكن نابليون عاد يعلن الحرب على انجلترا، يريد أن يثأر لنفسه.. وأغرت «ليدى هاملتون» بطلها على أن ينفض عنه عزلته، ويتطوع لمنازله غريمة.. وفى ١٣ سبتمبر ١٨٠٣ غادر نلسون عش الهوى فى «ميرتون».. لآخر مرة.. وراح يكتب إليها من عرض البحر يحمد لها تشجيعها، ويصفها بأنها مصدر الهامه فى سبيل المجد..

ونشبت معركة «الطرف الأغر».. التى لقى فيها مصرعه!

وكان قبل انطلاقه قد استسلم للوهم بأن منيته حانت، حتى أنه كان قد أعد لنفسه التابوت الذى أحب أن يدفن فيه!.. حتى إذا غادر «قادش» قبيل المعركة، أحس بهاجس يؤكد له أنه لن يعود إلى «ايما»، فلما لاحت له سفن العدو، عكف عن كتابه وصية أهاب فيها بالامه أن ترعى «ايما» لما أدت فى نابولى من خدمات لوطنها.. وأن ترعى أيضاً ابنته «المتبناه!» وتسمح لها بأن تحمل اسمه..

ثم تحول يكتب رسالته الأخيرة إلى المرأة التى تعرف إليها فى نابولى منذ أحد عشر عاماً، وكان بعد ضابطاً مغموراً، فألهمته الحوافز التى جعلت المجد يدين له ويواليه.. واختتم الرسالة بهذا الدعاء المؤثر: «ليكلل آلة المعارك جهودى بالنجاح!.. اننى - على أى الأحوال - سأحرص على أن يبقى اسمى أعز ما تعتزين و «هوارشيا» به.. وأملى فى الله أن يبقى على حياتى حتى تنتهى المعركة فأتم رسالتى!»

ولكن الله لم يحقق أمله.. فأصيب قبل أن تنتهى المعركة.

وكانت آلامه فظيعة وهو يحتضر.. حتى جاد بآخر أنفاسه وهو يقول لزميله وصديقه «الكابتن هاردى» أنه يترك ليدى هاملتون وهوراشيا «أمانة فى عنق بلادى».. ثم استطرد يقول: «اعطوا شعرى وكل متاعى لعزيزتى الليدى هاملتون.. ترى ما الذى يجرى للمسكينة إذا علمت بحالى.. ارع عزيزتى الليدى هاملتون يا هاردى.. الآن أموت راضياً.. فقد أديت واجبى والحمد لله».

* * *

من القمة إلى الحضيض!

وورثت ليدى هاملتون عن عشيقها ضيعة «مرتون» ومكافأة سنوية قدرها ٥٠٠ جنيه تكريماً لذكراه، كما عهد إليها بأرباح أربعة آلاف جنيه تركها لابنته.. فضلاً عن أنها كانت قد ورثت عن زوجها هاملتون دخلاً قدره ٨٠٠ جنيه تدفع لها سنوياً حتى نهاية عمرها..

ولكن الاسراف والاغراق فى لعب الميسر لم يبقيا لها شيئاً، بل اسلماها إلى فقر مدقع، وإلى ديون أخذت تتراكم عليها.. فراحت تطرق كل باب عسى أن تقتنع الحكومة بأنها أهل للمعونة، ولكن سعيها باء بالفشل.. وراح الدائنون يطاردونها ويلاحقونها، ويسدون عليها كل طريق.. حتى انتهت بها مطالباتهم إلى السجن.. بعد أقل من عشر سنوات من وفاة نلسون!!

وهكذا قلب لها الدهر ظهر المجن.. وبعد أن كانت الأثيرة لدى ملكة نابولى غدت حطام امرأة تتعذب خلف القضبان فى غيابه السجن.. حيث قضت عاماً كاملاً، تكفيراً عن ديونها!

وفى نهاية العام خرجت من السجن.. شبحاً حائلاً باهتاً لماض متألق، مشرق!.. فلم تجد سلوى فى غير الخمر.. بل أرخص أنواع الخمر وأقواها على هدم ما بقى من حياتها..

وفى مساء ١٤ يناير ١٨١٥، كان الليل يشهد فى مدينة «كاليه» الفصل الختامى من مأساة المرأة التى بدأت حياتها بين بائعات الهوى الرخيص، ثم رفعت رأسها حتى صارت من نديمات الملوك، وحتى غدت عشيقة القائد الذى كان العالم بأسره يردد

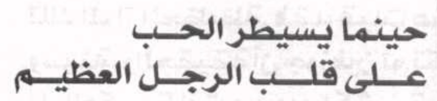
اسمه!.. بل حتى جعلت انجلترا ـ بلاطاً وحكومة وشعباً ـ تنظر فى رضى واعجاب إلى اجرأ علاقة آثمة مكشوفة فى تاريخ الهوى الحرام!

ثم انحدرت.. انحدرت حتى دخلت السجن.. وحتى غدت تتسكع على أبواب حانات «كاليه» تحاول أن تجد أعمى ينشد الهوى عند حطام مهدم.. أو ثمل يجود عليها بكأس من الشراب ولقمة من الخبز!!

وفى ذلك المساء، كانت الخمر قد اغرقت البقية الباقية من مصباح حياتها.. فماتت فى الصباح التالى، مهدمة، شريدة، جائعة.. ثملة!!!




چوزفين


حينما يسيطر الحب
على قلب الرجل العظيم



فى وسع المؤرخ الآن أن يقص حياة جوزفين، زوجة نابليون، ويستخلص منها العبر، بغير أن يتأثر بالمحيط الذى عاشت فيه تلك المرأة المحظوظة. فقد قيلت عنها أشياء كثيرة.. حسنة وسيئة، والحقيقة أن جوزفين لم تكن امرأة خالية من العيوب. بل العكس، كانت عيوبها كثيرة، كميلها إلى المرح والملذات، وطيشها، وعدم وفائها لزوجها، وتبذيرها للمال بلا حساب.. الخ. ولكنها بالرغم من ذلك كانت طيبة القلب، لا ترفض لأحد طلباً.. ولقد دفعت ثمن ضعفها وطيشها غالياً..!!

وقد تضاربت الآراء والأقوال فى وصف جوزفين وجمالها، وفى نظرنا أن أقرب الأوصاف إلى الحقيقة ما كتبه عنها «كونستان» خادم نابليون الأمين الذى عاش بالقرب منها، يقول كونستان فى مذكراته:

«كانت معتدلة القامة، متناسقة الأعضاء، خفيفة الروح، شديدة التأثر، زرقاء العينين، ساحرة النظرات، طويلة الشعر، عذبة الصوت».

ويضيف كونستان إلى هذا قوله: «إنه لم يكن فى وسع رجل أن يقاوم جاذبية هذه المرأة الحسناء الرائعة الجمال».

نبوءة!

ولدت «ماري جوزيف روز» في ٢٣ يونيو عام ١٧٦٣، في جزيرة مادانينا من جزر الأنتيل، وهي التي أطلق عليها الأوربيون اسم «مارتينيك». وكما أن اسم الجزيرة التي ولدت فيها ماري جوزيف روز قد تغير فيما بعد، فإن اسم الفتاة أيضاً تغير أكثر من مرة مع الأيام.. ماري جوزيف، ثم ماري روز، ثم جوزفين. ولكن أهل الجزيرة كانوا ينادونها «يابيت».

كان أبوها «جسبارتاشر دي لاباجري» يملك مزرعة في الجزيرة يدير شئوونها وشئون سكانها البيض والسود كأنه ملك في دولة صغيرة. وهو سليل أسرة فرنسية نبيلة، من تلك الأسر الكثيرة التي هاجرت إلى العالم الجديد سعيا وراء الرزق والثروة. وقد تزوج جسبار فتاة من أسرة نبيلة مثل أسرته، هي «روز كلير دي سانوا»، ولكنه لم يحقق لها السعادة والهناء، فإن جسبار كان غريب الأطوار، سريع الغضب، سيئ الخلق، مما جعل الحياة في المزرعة مصحوبة بالمتاعب والخلافات، وزاد الطين بلة أن هبت عاصفة هوجاء على الجزيرة فخربت المزرعة وأصيبت أسرة لاباجري بخسائر فادحة.

رزق جسبار وزوجته ابنتهما يابيت، ثم جاءت أختها كاترين ديزيريه بعدها بسنتين، ثم تبعتها الأخت الثالثة ماري فرانواز أومانيت، بعد أربعة أعوام.

ثلاث بنات! أن هذا كان كافياً لكي يفقد جسبار البقية الباقية فيه من صبر وحلم وحكمة!

عاشت الأخوات الثلاث في أحضان الطبيعة، وفي رعاية المربية الزنجية ماريون، بلا تفكير في المستقبل، وكن يقضين أوقاتهن في اللعب مع أطفال الزنوج من عمال المزرعة وفلاحيها.

وعندما بلغت يابيت الخامسة من عمرها. وقعت حادثة «النبوءة» التي اشتهرت فيما بعد ودونها المؤرخون وعلقوا عليها، ففي ذات يوم، بينما كانت يابيت تسير في الغابة مع مربيتها ماريون، وقع نظر الطفلة على امرأة زنجية ممزقة الثياب، فما كان منها إلا أن أخذت من ماريون قطعة من النقود وأعطتها لتلك المسكينة. فطلبت منها المرأة أن تريها كفها لتقرأ لها المستقبل. وبعد أن تفرست الزنجية في كف يابيت، قالت:

«الخطوط لا تكذب تتزوجين قريبا.. ولن يكون زواجك سعيدا.. وبعد أن يموت زوجك وتترملين سيتحقق لك كل ما ترغبين فيه، وستكونين يا ابنتى أكبر من ملكة!!».

أكبر من ملكة! هذه نبوءة الزنجية التى لم يكن شئ فى ذلك الوقت يبشر بامكان تحققها، ولكنها تحققت فيما بعد مع الأيام.

دخلت يايبت أحد الأديرة فى مدينة يورويال. وعندما بلغت الخامسة عشرة من العمر، ماتت أختها ديزيريه، فأخرجت يايبت من الدير إلى البيت. وأوشكت فى وقت من الأوقات أن تتزوج شاباً إنجليزياً يدعى وليم. ولو حدث هذا لسافرت إلى لندن وأصبحت زوجة ضابط بريطانى خامل. ولكن الزواج لم يتم. وتقدم طالب آخر، هو كلود ترسيه الفرنسى، فأحبته ورضيت بأن تتزوجه. ولكن هذا الزواج أيضاً لم يتم.

وأما ترسيه، فقد انخرط فى الجندية، وأصبح ضابطاً برتبه «جنرال» واشترك فى مؤامرات ضد نابليون. وعندما جلست يايبت ـ أى جوزفين ـ على عرش فرنسا، ادعى الرجل أنه كان عشيقها فى جزيرة مارتينيك!

وبعد فشل مشروعات الزواج فى الجزيرة، تقرر أن تسافر يايبت إلى فرنسا. حيث كانت تقيم عمتها مدام رنودان، التى مهدت السبيل لابنة اخيها لكى تتزوج شابا من أسرة نبيلة معروفة يعرف باسم «الكسندر دى بوهارتيه»

ففى صيف عام ١٧٧٩م، سافر جسبار مع ابنته يايبت إلى فرنسا، وفى السنة ذاتها، سافر أيضاً إلى فرنسا، من جزيرة كورسيكا، صبى فى العاشرة من العمر، يدعى نابليون بونابرت، كان يطمع فى أن يصبح ضابطاً فى الجيش الفرنسى.

وكانت يايبت فى السادسة عشرة من العمر.

* * *

زواج غير موفق!

عقد الزواج فى ١٣ ديسمبر من تلك السنة، وكان الكسندر فى التاسعة عشرة من عمره. وأصبحت يايبت «فيكونتس دى بوهارنيه» ولكن مساوئ الزوج الشاب تجلت لها بعد وقت قصير. فقد كان الكسندر طائشاً، لا يعرف الوفاء ولا يدرك واجبات

الزوج. وجعل منذ الأسبوع الأول يهمل عروسه الفاتنة. ولم تؤثر فيه نصائح أبيه الكونت، وصديقة أبيه مدام دى رنودان، عمه يابيت.

وفى ٣ سبتمبر ١٧٨١، رزق الزوجان ولدا سمياه «أوجين روز» ولكن مجئ هذا المولود الأول لم يحمل الزوج على تغيير مسلكه، فظل يتنقل من مكان إلى مكان، ومن عشيقة إلى أخرى، مما جعل يابيت تقول فى كثير من المرارة: «منذ زواجنا، لم أقم أنا وزوجى تحت سقف واحد!!»

وفى سنة ١٧٨٢، سافر الكسندر إلى جزر الانتيل، موطن زوجه ولكن برفقه احدى عشيقاته، تاركاً الزوجة المهملة فى باريس، تنتظر مولوداً جديداً.

وفى ١٧٨٣ وضعت يابيت طفلة سمتها «هورتانس أوجينى». ولكن الزوج الطائش لم يعد إليها بعد هذا الحادث السعيد.

وبدأت سلسلة جديدة من المتاعب، فقد وردت أخبار من الانتيل بأن الكسندر يستغرق فى اللهو والملذات.

ثم اختلف مع عشيقته، فتركته وعادت إلى فرنسا. وساءت حالة الزوجة المادية لانقطاع الموارد عنها. وفجأة، عاد الزوج من الجزر البعيدة، ولم يبق أمامه غير الفراق، بعد ما بلغ الجفاء بينه وبين يابيت أقصاه، واتهم الكسندر زوجة بالخيانة زوراً وبهتاناً. وانتهى الأمر بينهما بالفراق التام. ومرض جسبار دى لاباجرى فسافر عائداً إلى جزيرته، حيث ساءت أيضاً صحة مدام دى لاباجرى وابنتها الثانية مانيت. فقررت الزوجة الشابة أن تترك أوجينى فى إحدى المدارس، وتلحق بأبيها وأمها فى جزيرة مارتينيك.

وفى يوليو ١٧٨٨، سافرت الأم والفتاة ومكثتا فى الجزيرة سنتين كاملتين. وهناك بلغتهما الأخبار المقلقة عن قيام ثورة فى فرنسا. فرأت يابيت أن عودتها أصبحت ضرورية. وفى سنة ١٧٩٠ ركبت السفينة مع هورتانس.. ونزلت فى ميناء طولون!».

* * *

عادت يابيت - أى مارى روز - إلى فرنسا، وهى فى السابعة والعشرين، أى فى السن التى تكتمل فيها صفات المرأة الجميلة. وقد ألفت جميع أنواع التبرج والاغواء، وكشفت أسرار الحياة، وعرفت كيف يجب أن تسلك المرأة فى مجتمعات باريس للتأثير فى الرجال وحملهم على إجابة مطالبها. وقررت أن تشق لنفسها طريقاً فى مفترق الحياة، معتمدة على ما حباها الله من سحر وجمال. وكانت علاقاتها قد انقطعت بزوجها الكسندر، وأن كان أبوه قد ظل يعطف عليها ويوالى نصحه لها، مع العمة رنودان.

أما الكسندر، فقد ألقى بنفسه فى غمار السياسة، وانتخب عضوا فى مجلس النواب، ثم رئيسا للجمعية التأسيسية التى وضعت نصوص الدستور سنة ١٧٩١. وعاد إلى الجيش. وكان سلوكه قد زاد سوءا، ومن وقت إلى آخر، كان الرجل يزور ولديه، فيلتقى بزوجته السابقة، ولكن الصلة بينهما لم تلتئم مرة أخرى.

وتلقت مارى روز بحزن شديد خبر وفاة أبيها فى جزيرة مارتينيك، ثم وفاة أختها مانيت فى العالم التالى، وكانت أمها قد سبقتهما إلى العالم الآخر، فأصبحت مارى روز الوحيدة التى بقيت على قيد الحياة من الأسرة النبيلة الصغيرة.

ومن أظهر دلائل الطيبة عند هذه المرأة العجيبة، دفاعها عن زوجها السابق الكسندر، عندما اعتقل بتهمة التآمر على سلامة الجمهورية، فقد بذلت جهداً عظيماً لاخراجه من السجن، ولكنها فشلت، وألقى القبض عليها، هى أيضاً، بناء على وشاية دنيئة. ومن أغرب المصادفات أنها أرسلت إلى المعتقل الذى كان زوجها السابق سجيناً فيه. وفى هذا المعتقل أيضاً، عرفت مارى روز «لازار هوش» الذى أحبها وأحبته، وهناك أكثر من دليل على علاقاتهما الغرامية.

وتمكنت مارى روز من اثبات براءتها من التهمة الموجهة إليها فخرجت من المعتقل ولكن الكسندر لم يعرف التوبة فى ميدان السياسة كما أنه لم يعرف التوبة فى مضمار الزواج. وقد حوكم وحكم عليه بالإعدام فى عهد الطاغية روبسبيير، وأعدم مع ٤٥ شخصاً من شركائه فى المؤامرات، ولم تعلم مارى روز بخبر إعدامه إلا بعد أربعة

أيام، عندما سقط روبسبيير عن عرشه. وقد كتب الكسندر إلى زوجته السابقة، قبل موته، خطابا يودعها فيه ويودع ولده وابنته، ويعترف بأخطائه الفائقة!

خرجت «مدام بوهارتيه لاباجرى» كما كانت تسمى نفسها، من سجن «الكارم» فى ٦ أغسطس ١٧٩٤. وذهبت إلى الدار التى تركت فيها ابنها أوجين وابنتها هورثانس مع صديقتها مدام ديلانوا. ووجدت نفسها فى حالة من البؤس تدعو إلى اليأس. فإن أملاك زوجها قد صودرت، ومواردها من الجزر انقطعت، وليس لها أحد تعتمد عليه من الأهل. وفى هذه الظروف الحرجة، وجدت مارى روز أمامها رجلين عرضا عليها مساعدتهما المادية والأدبية: لازارهوش، الذى أحبته فى السجن، والذى عين قائداً عاماً لجيش «الفاندية». وصديقاً قديماً يدعى «ايمرى» صاحب مصرف فى مدينة دنكرك. وكانت مساعدة هذين الرجلين قيمة بالنسبة إليها، لأنها مكنتها من الانفاق على نفسها وعلى ولديها، ريثما تنجح المساعى التى بذلتها لالغاء أمر مصادره أملاك زوجها التى آلت إليها وإلى ولديها.

وعرفت مارى روز، فى صالونات باريس، معظم أولئك الذين كانوا يدبرون شئون فرنسا فى ذلك الوقت، ومن بينهم بونابرت، وتاليان وزوجته تيريزا الجميلة، وباراس، وغيرهم. وفى سنة ١٧٩٥، كانت مدام دى بوهارنية قد أصبحت عشيقة لاقوى الفرنسيين نفوذاً، وهو «باراس». وقد عاشت معه عيشة زوجية، على مرآى من الجميع، ولم يكن أحد يجهل نوع العلاقة القائمة بينهما. وقد اجتمع الذين دونوا حوادث الثورة الفرنسية الكبرى، على القول بأن مارى روز خدمت أصدقاءها ومعارفها وأهلها وجميع ذوى الحاجات الذين قصدوها لدى عشيقها باراس، وكانت كثيرة الالحاح عليه لقضاء ما تطلبه خدمة للغير!

وعاشت مدام دى بوهارتيه، بفضل باراس، عيشة بذخ وترف. ولكن هذا العهد لم يدم طويلاً.. فإن باراس - وكان قد جاوز الأربعين - جعل يميل إلى تيريزا الجميلة، زوجة صديقه تاليان!. وكانت تيريزا من أحب صديقات مارى روز إليها، وكأن الأقدار شاءت إلا أن تلقى فى طريق مدام دى بوهارتيه، فى الوقت الذى أهملها فيه باراس، رجلاً آخر يتولى العناية بها، وهو بونابرت. فقد عرفته مارى روز فى نهاية السنة التى فتر فيها شعور باراس نحوها.

ويغلب على الظن أن التعارف قد تم بين القائد الشاب والكونتيسة الجميلة، فى صالونات باراس وتاليان. ولم تعر المرأة التفاتا فى بادئ الأمر إلى الضابط بونابرت، الفقير، الذى لا يعرفه غير القليلين من المشتغلين بالشئون السياسية والحربية. ولكن حدث فيما بعد أن عهد اليه صديقه باراس، وهو حاكم فرنسا الفعلى، باعادة النظام إلى باريس، على أثر فتنة قامت بها بعض العناصر المشاغبة، فنجح القائد فى مهمته نجاحاً فائقاً، وأصبح بين يوم وليلة من أشهر قواد فرنسا على الإطلاق. فقد أنقذ الجمهورية من الانهيار، وتطلعت إليه الأنظار من جميع أنحاء فرنسا، وأدركت مارى روز أن هذا الرجل سيلعب دوراً كبيراً فى المستقبل، فعولت على مصادقته!.

وفطن باراس إلى ذلك فمهد السبيل للاثنين كى يجتمعا فى داره..

وحدث بعد إحدى السهرات، أن عرض الضابط بونابرت على مارى روز وإبنتها مرافقتهما إلى بيتهما. وعندما ودعهما عائداً فى آخر الليل، ألحت عليه مارى روز أن يزورها قريباً. فقبل ونفذ وعده. ومنذ ذلك الوقت، ارتبط مصير القائد الذى سيصبح امبراطورا، بمصير المرأة التى جاءت مثله من جزيرة نائية! فقد واصل بونابرت زياراته، وأحب تلك المرأة حبا جما، لم تبادله مارى روز بمثله. ولكنها شجعته على المضى فى مغامرته، رغبة منها فى أن يستقر بها الحال، وأملاً فى أن يصبح هذا القائد المحظوظ زوجها فى المستقبل!!

وعاشرها بونابرت معاشرة الزوج لزوجته، وهو الذى أطلق عليها اسم «جوزفين» بدلاً من مارى روز أو يابيت! ومنذ ذلك العهد يبدأ تاريخ الرسائل الغرامية الفريدة، التى كانت يكتبها إليها من باريس ومن البلدان التى غزاها بجيوشه: «.. أننى أصحو من نومى وصورتك أمام ناظرى.. أنت يا من لا مثيل لها بين النساء.. لقد تركت على شفتى أثراً من نار تحرقنى.. أن فمى، وقلبى، وكل شئ فى يلتهب!.. أبعث إليك بألف قبلة، ولكن أرجو ألا تقبلينى أنت، لأن قبلاتك تجعل دمى يغلى فى عروقى!»

* * *

مدام الجنرال بونابرت!

كان يسميها «جوزفين» فى خلوته بها.. ثم أطلق عليها هذا الاسم علنا أمام الناس. وكانت تسميه «بونابرت» باسم أسرته. وظلت تناديه بهذا الاسم حتى بعد ارتقائه العرش ووضع تاج الملك على رأسه ورأسها.

الجنرال يقيم فى دار فخمة بشارع كابوسين. وجوزفين تقيم فى بيتها المتواضع بشارع شانترين. ولكن بونابرت لا يمكث فى بيته غير الوقت اللازم لقضاء أعماله، لأن مركز قيادته هناك. ثم يفلت مسرعاً إلى بيت عشيقته. وهو غيور شديد الغيرة، لا يطيق أن يرمق أحداً من معارفه وأصدقائه تلك المرأة التى أحبها، بابتسامة أو نظرة ود. وإذا حالت أشغاله الكثيرة دون زيارة جوزفين يوماً واحداً، فأنه يبعث إليها بإحدى تلك الرسائل الملتهبة، المفعمة وجدا وهياما..

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى ادعاء أن بونابرت لم يكن يحب جوزفين حباً خالصاً من الأغراض. ولكن هذا الادعاء كاذب. فلم يكن هناك شئ واحد يدفع القائد إلى أحضان امرأة تكبره سناً، ولها ولدان من زوج سابق، ولا تتمتع بسمعة خالية من الشوائب، غير الحب الأعمى الذى لا يحسب حساباً لغير العاطفة.

تطورت العلاقات بين الرجل والمرأة تطوراً سريعاً، فجعل بونابرت يفكر فى تدعيم هذه العلاقات وربطها برباط الزوجية. وساعده باراس فى ذلك!، أملا منه فى أن يتخلص نهائياً من المرأة التى كانت من قبل عشيقته. ولكن جوزفين كانت تتردد، متسائلة: هل الحكمة تقضى عليها بأن تتخذ بونابرت زوجاً، أو تبقيه عشيقاً؟!

أنه فى السادسة والعشرين، وهى فى الثالثة والثلاثين.. أفلا يحمل بها إذن أن تفكر طويلاً قبل الأقدام على الخطوة النهائية، والارتباط بعهد لا انفصام له؟

غير أن باراس كان يبدد مخاوفها قائلاً: «لا تخشى شيئاً.. فلكل حالة من الحالات علاجها. وسنتخذ لكل احتمال عدته!»

وكانت جوزفين من ناحية أخرى تكثر من الوقوف أمام المرأة، وامعان النظر فى ملامح وجهها، فتدرك أن الوقت قد حان لوضع حد لحياتها المضطربة، فترد قائلة

لنفسها: «يجب أن أتزوج اليوم.. قبل أن يفوت الوقت!»

ولم يكن هناك غير رجل واحد من أصدقائها لا يوافق على هذا الزواج، وهو الأستاذ راجيدو كاتب العقود، الذى يرى أن الزوج رجل عسكرى لا أمل له فى الوصول إلى حالة من الثراء والوجاهة تكفل لزوجة عيشا رغداً..!!

وفى ٨ مارس ١٧٩٦، كتب عقد الزواج وانتهى الأمر، وأصبحت مارى روز دى لاباجرى، كونتس دى بوهارتيه، تدعى «مدام الجنرال بونابرت!» ودون فى العقد أن الزوجة ولدت فى ٢٣ يونيو ١٧٦٨، وأن الزوج ولد فى ٢٤ يونيو ١٧٦٧، أى أن نابليون أكبر من جوزفين بسنة واحدة، فى حين أنها فى الواقع أكبر منه بسبع سنوات.

ولم يدم «شهر العسل» غير يومين وليلة!.. فإن بونابرت ترك زوجته للانطلاق على رأس جيشه إلى إيطاليا، حيث أحرز انتصاراته الخالدة الأولى. وبدأت جوزفين تتساءل إذا كانت قد أحسنت صنعاً بعقد هذا الزواج أم أخطأت. ولم يكن فى وسعها أن تدرك، وهى العصفور الصغير الذى جاء من الجزر الأمريكية البعيدة، إلى أى طبقة من طبقات الجو يستطيع النسر أن يحلق! وكل ما شعرت به، أمام انطلاق زوجها فى طريق المجد والشهرة، هو أن الرجل الذى تزوجته قد ابتعد عنها بعد الزواج بيومين!.

وبدأت مرحلة من مراحل القلق والاضطراب، وهى مرحلة ندرك أسبابها إذ تعمقنا فى دراسة طباع المرأة وعقليتها وميلها إلى الزهو.

من ايطاليا، كتب بونابرت إلى زوجته سلسلة من تلك الرسائل الغرامية التى أشرنا إليها والتى تعد من روائع هذا النوع من المراسلة، وكان يبعث إليها رسالة كل ثلاثة أيام، مع رسول خاص، أو مع زميل من زملائه، أو جندى من جنوده العائدين إلى الوطن. أما هى، فلم تكن ترد على رسائله بانتظام، بل أنها لم ترد عليها إلا نادراً، وبكلمات مقتضبة عادية. وكان بعد كل معركة، وبعد كل نصر، يزداد شوقاً إليها ويعدها بأنه سيرسل فى طلبها لكى توافيه إلى ايطاليا. غير أن هذه الفكرة لم تعجبها، بل بعثت الخوف إلى نفسها.. فالسفر بعيد شاق، وما الداعى إلى اللحاق ببونابرت؟ ألا أنه زوجها؟

كتب إليها عشرات الرسائل.. وهذا ما جاء فى بعضها:

«كل لحظة تطيل الشقة بيني وبينك، وكل لحظة تفقدني بعض القوة على احتمال البعاد..

«لم يمر بي يوم واحد لم أشعر فيه بأنني أحبك.. ولم تمر ليلة واحدة لم أضمك فيها بين ذراعي..

«أن رسالتك الأخيرة باردة كالصداقة. فإنني لم أجد فيها النار التي تشعل النظرات، والتي خيل إلى في وقت من الأوقات أنني رأيتها في عينيك..

«تعالى.. تعالى.. أن مجرد التفكير في أنك ستجيئين إلى يملأني فرحاً.. أن حبي يزداد مع الأيام، وإذا كان الفراق يشفي الإنسان من الحب الضعيف، فإنه يزيد الحب القوي لشتعالاً».

ولكن، أين كانت جوزفين، وماذا كانت تصنع، بينما كانت زوجها يخوض غمار المعارك ويكتب إليها هذه الرسائل الغرامية، ويلح عليها باللحاق به إلى ميلانو!

كانت تنتقل من ناد إلى ناد، ومن مجتمع إلى مجتمع، وتصغى بارتياح وسرور إلى ما يغدقه عليها الناس من آيات المديح والثناء. فهي زوجة البطل الذي رفع سمعه فرنسا واعاد إلى الجيش تقاليده المجيدة. وهي المرأة التي بدأ الناس يتزلفون إليها لأنها زوجة ذلك القائد العظيم..

وتتابعت الرسائل:

«ستصلين قريباً إلى هنا.. سأضمك إلى قلبي.. سأقبلك.. تعالى! طيري في الحال!

«إنه يوم سعيد، ذلك اليوم الذي تجتازين فيه جبال الألب في طريقك إلي. أن مجيئك هو أعظم مكافأة أتمناها لما أحرزته من انتصارات وتحملته من متاعب!»

لكنها لا تريد أن تسافر.. لا تريد أن تلحق به. ولكي تضع حداً لالحاحه، وتنتحل عذراً لترددها وامتناعها، عمدت إلى حيلة فيها ما فيها من مكر وكذب وخداع. فقد ادعت أنها تنتظر حادثاً سعيداً، وأن السفر يتعبها.. وكيف تسافر وهي تحمل في أحشائها ثمرة حب الرجل الذي يلح عليها بالسفر؟

صدق نابليون أن زوجته حامل، وطار فرحاً لهذا النبأ السار، فقد كانت أمنيته أن يكون له ولد يشبه أمه جوزفين!

فكتب يقول:

«أصحيح ما قيل لى؟ أصحيح هذا؟ إذن، اعمدى إلى الراحة.. ستلدين ولداً جميلاً مثل أمه، يحبك مثل أبيه!»

لم تكن جوزفين حاملاً، بل كانت منغمسة فى حب أثيم، مع ضابط يدعى شارل هيبوليت، لم يكن فيه شئ من الصفات التى يمتاز بها بونابرت. وكل ما يعرف عنه، إنه يغشى التجمعات ويروى النوادر والنكات للنساء الجميلات.

غير أنها لم تستطع تجنب السفر إلى النهاية، وعلى الخصوص بعد أن علمت أن بونابرت أدرك أنها ليست حاملاً، وبعد ما بلغها من أنباء غضبه وثورته. وقد تدخل باراس، صديقها السابق فى الأمر، وأقنعها بوجوب الرحيل للحاق بزوجها، فسافرت فى ٢٥ يونيو ١٧٩٦ ومعها جوزيف بونابرت، أخو نابليون، وجونو، وخادمها، وكلبها، وعشيقها شارل هيبوليت!.

نزلت فى قصر سربيلونى بميلانو، وكان زوجها يقاتل فى مانتوا فغادر الميدان للقاء زوجته وقضاء ساعات معها. ورفضت أن تذهب إلى أبعد من ميلانو، فتركها نابليون فى قصرها وعاد إلى جيشه، حيث قاده إلى معارك جديدة وانتصارات جديدة.

وليس هناك ما يثبت أن بونابرت علم بعلاقة شارل هيبوليت بزوجته. ولكنه تضايق من تردد هذا الضابط عليها، ومن الحاحها المستمر بوجوب مساعدته وتسهيل أعماله. وأخيراً، أقدم شارل على ارتكاب سرقة فى إدارة تموين الجيش!، فقبض عليه. وكل ما استطاعت جوزفين أن تصنعه هو أن تنقذه من الاعدام وتعيده إلى باريس.

وبعد قضاء أسابيع فى مدن ايطاليا، عادت جوزفين إلى العاصمة، وعاد إليها بونابرت أيضاً ولكن من طريق آخر. والتقى الزوجان فى باريس، حيث اقاما فى بيت جوزفين بشارع شانترين.

***

المرأة كثيرة الحيلة!!

بدأ نابليون يظهر عدم ارتياحه لسلوك زوجته، ويؤنبها على عدم الاصغاء إلى نصائحه، وارشاداته، والخضوع لأوامره، ولكن الظروف لم تترك له الوقت الكافى لمحاولة اصلاح العيوب التى لمسها فيها.. ففى شهر مايو سنة ١٧٩٨، سافر على رأس حملة فرنسية إلى مصر تاركاً جوزفين مرة أخرى، وحدها فريسة لميولها وغرئزها..

وعادت المرأة إلى سابق سيرتها، وعاد إليها شارل هيبوليت مسترحما قائلاً أن معاملة بونابرت له ألقته فى أحضان البؤس والفاقة. فساعدته جوزفين، وحملت باراس على التدخل لاعادته إلى الجيش، ثم جعل الشاب يتردد عليها فى قصر مالميزون الذى أشترته وأقامت فيه، وما مرت أسابيع حتى كانت علاقتها قد عادت إلى ما كانت عليه من قبل، مع الضابط المهرج!

أما بونابرت، فإنه لم يكثر من الكتابة إليها من مصر، كما كان يفعل وهو فى ايطاليا. ولم تكن الرسائل القليلة التى كتبها إليها مفعمة بعبارات الحب وعواطف الهيام كسابقاتها. ذلك لأن القائد لم يعد فى وفائه وإخلاصه ذلك الزوج المتيم الذى عرفته جوزفين. فقد أدرك أن عيوب زوجته لا سبيل إى اصلاحها، وأنها لا تقابل حبه بمثله ـ علاوة على أنه وجد فى مصر من ينسيه البعاد! فقد علق بونابرت بحب «بولين» زوجة الضابط فوريس، المعروفة باسم «بليلوت» ونقلها إلى قصره بالأزبكية، حيث عاش معها على مرأى من رجال الجيش.

ثم أن الأنباء التى وصلته من فرنسا عن سلوك زوجته، وانغماسها فى الضلال، وعدم وفائها له، جعلته يفكر فى طلاقها وهو فى مصر، ومن غرائب المصادفات، أن بعض أصدقاء جوزفين فى فرنسا، أشاروا عليها أيضاً بأن تطلب الطلاق، لأن زوجها يخونها فى مصر. وقد راقت لها الفكرة فى بادئ الأمر، وأوشكت أن تعقد اتفاقاً مع شارل هيبوليت على أن تتزوجه بعد طلاقها! أما بونابرت، فقد فكر فى اتخاذ بولين فوريس زوجة له، بعد طلاقها من زوجها!

غير أن هذه المشروعات كلها لم تنفذ، لا من هذا الجانب ولا من ذاك، ولو نفذت، لا صبحت بولين فوريس امبراطورة فرنسا، ولا صبحت جوزفين مدام هيبوليت!

ولكن، كيف يمكن أن يتم هذا، والزنجية الأمريكية قد تنبأت للفتاة الصغيرة يايبت فى جزيرة المارتينيك بأنها ستصبح «أكبر من ملكة!».

***

فى إحدى ليالى أكتوبر ١٧٩٩، دعيت جوزفين لتناول العشاء عند باراس، وشكت إليه انقطاع الأخبار عن زوجها، وأنه لم يكتب لها منذ سبعة أشهر، فقال باراس:

ـ تريدين أخباراً عن زوجك؟ لقد تلقينا منذ لحظة نبأ عودته إلى فرنسا. فقد وصل إلى ميناء فريجوس أمس الأول.. وبعد يومين سيصل إلى باريس!

واستولى القلق على جوزفين.. أنها تجهل الأسباب الحقيقية التى حملت نابليون على العودة فجأة إلى فرنسا، ولم تدرك أن انهزام الجيوش الفرنسية فى المانيا، وتعقد الأزمة الداخلية، وعدم استقرار الحكم فى باريس، كل ذلك يثير اهتمام القائد، ويستحثه على العودة إلى العاصمة لمعالجة الحالة. ولهذا فقد اعتقدت أن زوجها لم يترك مصر خلسة، ولم يرجع مسرعاً إلى فرنسا، إلا لكى يقتص منها ويعاقبها على طيشها وعدم وفائها!

وأرادت أن تقطع عليه الطريق وأن تسرع إلى لقائه قبل أن يصل إلى باريس. فأصطحبت معها ابنتها هورثانس وانطلقا إلى فريجوس. ولكنها، عندما وصلت إلى ليون، علمت أن نابليون سلك إلى باريس طريقاً غير الذى سلكته. فعادت على أعقابها ووصلت إلى باريس بعد أن كان نابليون قد وصل إليها!

أما نابليون، فإنه اعتقد عندما نزل من مركبته ولم يجد زوجته فى انتظاره، أنها غائبة فى مكان ما مع أحد عشاقها، لأنه كان قد استوثق من صحة الأخبار التى وردت إليه عنها وعن علاقاتها الأثيمة بغيره من الرجال، ولأنه بدأ يشعر بأنه لم يعد يحبها.

ورفض أن يقابلها، وأعرب لأصدقائه عن رغبته فى طلب الطلاق. ولكن هورثانس وأوجينى بكيا أمامه. وكولو، أحد أصدقائه الأوفياء، قاوم فكرة الطلاق قائلاً: أن الوقت غير مناسب لتنفيذها، وأن الرجل الذى يرى المستقبل الباهر الذى

ينتظره، والذى جاء من مصر ليقطف فى باريس ثمرة انتصاره فى الحروب، لا يقدم على عمل قد يؤثر فى سمعته..

لكن بونابرت كان عنيداً.. فقد رضى بأن يؤجل طلب الطلاق، على شرط أن تظل زوجته بعيدة عنه لأنه لا يريد أن يراها. غير أن المرأة كثيرة الحيلة.. فقد أخذت جوزفين ابنها وابنتها إلى بونابرت، وظلت تطرق بابه وتبكى مع وليدها، حتى رق قلب الرجل وفتح الباب!

عفا بونابرت عن جوزفين!

حصر فكرة فى الأهداف السياسية التى جاء يسعى إليها. وراح يمهد السبيل لأحداث الانقلاب المعروف بانقلاب «١٨ بروميير». ونجحت خطته وخطة أعوانه، وعلى رأسهم أخوه لوسيان بونابرت.

وأصبح القائد الشاب «القنصل الأول» مع زميليه سيايس ودوكو.

وقال لزوجته وهو ينبئها بما حدث:

غداً سننام فى قصر لكسمبورج!

قصر لكسمبورج؟ أن جوزفين تعرفه، لأن صديقها باراس كان يدعوها إليه. والإقامة فى قصر لكسمبورج معناهاالظهور بمظهر الملكات!

أنها الخطوات الأخيرة نحو العرش!

* * *

جوزفين نجم السعادة!!

فى ١٩ فبراير سنة ١٨٠٠، انتقل بونابرت، القنصل الأول، إلى قصر لكسمبورج مع زوجته جوزفين وولديها. ومنذ ذلك اليوم جعل بونابرت يقسو عليها ويضايقها، ويراقبها، لكى تنفذ بدقة وامعان كل ما يمليه عليها. وطرأ على جوزفين تغيير تام، كأن الانقلاب السياسى قد أحدث فى نفسها أيضاً انقلاباً خلقياً وعاطفياً. فقد حرصت منذ انتقالها إلى لكسمبورج على تحقيق رغبات زوجها بلا تردد. وأحاطت نفسها بالحاشية

التى اختارتها، وانصرفت إلى أعمال الاحسان، وإلى العناية بالشئون الخاصة والعامة على الوجه الذى أشار به نابليون. وحسنت علاقاتها باسرة زوجها التى لم تكن تحبها، وفكرت فى أن تجد بين أخوة نابليون زوجاً لابنتها هورثانس، وقد بلغت السابعة عشرة من العمر.

وأشرفت جوزفين على اعداد ردهات القصر للإقامة. كما أعدت قصر تويلرى، مقر ملوك فرنسا، للانتقال إليه مع نابليون والقنصلين سيايس ودوكو.

ولعبت جوزفين الدور الذى أملاه عليها زوجها على أحسن وجه. وعادت العلاقات الودية بينهما، شيئاً فشيئاً، إلى ما كانت عليه من قبل، ونسى نابليون أو تناسى لأغراض سياسية، أخطاء زوجته الماضية.

وفى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٠٠، وقع حادث الاعتداء على نابليون، المعروف بحادث «الجهاز الجهنمى» والذى نجا منه القنصل الأول بأعجوبة. وعندما جلس مع زوجته فى مقصورته الخاصة، بدار الأوبرا، بعد وقوع الحادث بدقائق، مال على جوزفين، وهمس فى أذنها: «أنت نجمى السعيد!»

كان نابليون يعتقد أن جوزفين جلبت له الحظ وظل على اعتقاده هذا، حتى بعد أن طلقها وتزوج مارى لويز النمساوية.

وفى ٢٤ يناير ١٨٠٢، احتفل بزواج هورثانس دى هارتيه، ابنة جوزفين من زوجها الأول، والكولونيل لويس نابونابرت، شقيق نابليون. ولم يكن هذا الزواج موفقاً.. فقد عاش لويس وهورثانس فى شقاق دائم. ولكن الأقدار شاءت أن يصبح أحد أبنائهما، لويس نابليون، امبراطوراً على فرنسا باسم نابليون الثالث سنة ١٨٥٩.

ومما جعل نابليون يسدل نهائياً ستار النسيان على الماضى، عودة السلام إلى فرنسا، فقد انتهت الحروب جميعها فى عهد القنصلية، وانصرف نابليون إلى انجاز أعمال الاصلاح الداخلى التى كان يفكر فيها، وكان يقول: «أن هذا كله بفضل جوزفين نجم السعادة».

* * *

أراد نابليون أن يكون له «بيت ريفى» يقضى فيه ساعات الراحة والهدوء. فوقع اختيار جوزفين على قصر ماليزون، وابتاعه نابليون نزولا على رغبتها، فانصرفت على أعداده بكل ما أوتيت من ذوق سليم، وكان القنصل الأول وزوجته يقضيان جزءاً من الأسبوع فى ذلك المقر الهادئ، بين أحضان الطبيعة، ووسط الأشجار والأزهار، ويدعوان أصدقاءهما لينزلوا ضيوفاً عليهما فى ماليزون.

وطلب سكان «سان كلو» من القنصل الأول أن يقيم من وقت إلى آخر فى القصر المعروف باسم بلدتهم، والذى كان من قبل مقراً لملوك فرنسا، فأجابهم نابليون إلى طلبهم، وعهد إلى جوزفين أيضاً بأعداد هذا القصر كما أعدت قصر ماليزون.

وفى القصرين، كان القنصل وزوجته جوزفين يعيشان عيشة عائلية، وحولهما الأصدقاء الأوفياء. غير أن قصر سان كلو، كان مخصصاً لمعظم الحفلات الرسمية، والمآدب التى يحييها القنصل عملاً بالتقاليد ومقتضيات المنصب. أما ماليزون فإنه كان يعد فى نظر نابليون وجوزفين «البيت» الذى يعيشان فيه بوصفهما زوجين، لا قنصلا وزوجة قنصل.

وقد انفقت جوزفين أموالاً طائلة لتوسيع أملاكها حول قصر ماليزون.. وقد أعدت فيها الحدائق الغناء، وجلبت الأزهار النادرة مع جميع أنحاء العالم، والطيور المغردة من الشرق والغرب، فحولت القصر إلى جنة يكتنفها جو من الجمال والسحر.

وكان نابليون يدعو أصدقاءه إلى الصيد فى غابات ماليزون..

ولكن عاطفة الحب لم ترجع فى صدره إلى سابق عنفها، فى حين أن هذه العاطفة، التى كانت ضعيفة عند جوزفين، جعلت تتحول شيئاً فشيئاً إلى أتون متأجج..

هذه أحكام القدر.. حب يموت فى صدر، وحب يحيا فى صدر آخر..

كان نابليون عاشقاً، وكانت جوزفين صديقه له. وها هو ذا نابليون يتحول إلى صديق، وجوزفين تنقلب عاشقة مغرمة!

وفى تلك الفترة من الزمن، لم يكتب نابليون لزوجته رسائل غرامية كالتى كان يبعث بها من قبل، عندما يبتعد عنها أياماً أو شهوراً.

ولكن جوزفين أرسلت إليه، فى نوفمبر ١٨٠٣، خطاباً يعد كخطابات نابليون، آية من آيات المراسلة الغرامية بين حبيبين!

وإذا دل هذا الخطاب على شئ، فإنما يدل على أن الخوف قد خالج قلب المرأة، وإنها أدركت أخطاءها السابقة، وخشيت أن تكون توبتها قد جاءت بعد الأوان!

لقد عرفت جوزفين العذاب، والبكاء.. وكان عذابها وبكاؤها يغذيان فيها خوفها من المستقبل: أنها لم تحسن الاحتفاظ بقلب زوجها المفعم حباً، فهل تستطيع الآن أن تحتفظ بهذا القلب وقد أصبح خالياً من الحب؟!

***

واحدة بواحدة!!

كانت جوزفين تتألم لأنها شعرت بالغيرة، كما تألم زوجها من قبل عندما عضته الغيرة بأنيابها. ولكن الزوجة الغيور لم يكن فى وسعها أن تثور فى وجه الزوج، ذلك لأن اتفاقا تم بين الاثنين على أن يمنحها عفوه، وينسى ما فات، على شرط ألا تحاسبه هى فى المستقبل، على ما يبدو منه فى مضمار الوفاء الزوجى «واحدة بواحدة!». على هذا الأساس نسى نابليون الماضى. ولكنه أراد أن يحتفظ لنفسه بالحرية التامة فى علاقاته مع النساء!

أنها لشروط قاسية. وقد تحتملها الزوجة فى بادئ الأمر صاغرة. ولكنها تثور مع الأيام إذا ما توالت الخيانات من الزوج.

ولم تكن خيانات نابليون القنصل، ثم نابليون الإمبراطور قليلة تافهة!

فقد أحب بولين فوريس فى مصر، وأحب جيوزيبا جراسينى فى ايطاليا، وأحب لورجونو، زوجة صديقه الجنرال جونو، فى مالميزون، واحب مدام دى ريموزا، وصيفة زوجته، فى بلجيكا، وأحب الممثلة مدموازيل جورج فى باريس. وبعد هذه الممثلة أحب اثنتين من زميلاتها. مدموازيل بورجوان، ومدموازيل دوشنوا. ولم يهمل نساء القصر من وصيفات وغيرهن، كمدام دوشاتل، ومدام دى فورى، ومدموازيل لونجروا، ومدموازيل لاكوست، والينونور دونويل، التى رزق منها ابنا عرف فيما بعد باسم

«الكونت ليون»، وجاء بعد اليونور رهط آخر من النساء الجميلات: كارلوتا جازين، ومدموازيل جيبو، ومدام بالابرا، الذى رزق منها ابنا آخر، ومدام بارال، ومدام مارتيس، وأخيراً مارى فالفسكا البولونية، وهى أشهر عشيقاته، وأم ابنه الثالث غير الشرعى..

هؤلاء هن عشيقات نابليون، وهنك غيرهن ممن لم نذكرهن لقلة شأنهن. وهذه العلاقات الأثيمة بين الرجل السائر فى طريق المجد، ونساء تناولهن فى طريقه حسب الظروف والأحوال، جعلته يفكر فى أمر كان ومازال يشغل باله.. أن جوزفين لم تلد. وليس الذنب ذنبه هو، ما دام قد رزق ابناء من عشيقاته. فالذنب إذن ذنبها.

يجب أن تلد له جوزفين ابنا يحمل اسمه بلا وجل ولا عيب، ويرث مجده من بعده..

وشعرت جوزفين بما يخامر صدر زوجها من سلوك ومخاوف ومشاعر. وتضاعفت فى صدرها الغيرة القاتلة، وراحت تتساءل إذا كان نابليون سيعود إلى فكرته السابقة، فيطلقها ليتزوج غيرها من النساء اللواتى حملن منه وولدن ابناء!

وشعرت أيضاً بأنه يسعى إلى الملك، ويطمع فى أن يرث ملوك فرنسا ويضع تاجهم على رأسه. وأدركت أن هذا - إذا تم - سيكون الضربة القاضية عليها، لأن زوجها الملك سيسلك جميع الطرق لحصر وراثة العرش فى سلالته، أى فى أبنائه.. وهى لم تنجب له أبناء!..

وعندما اتضح لها من أعماله أنه منصرف إلى تحقيق هذا المطمع، وبلوغ هذا الهدف، بكت بكاء مراً، وألقت بنفسها على قدميه صائحة: «بونابرت! أرجوك! لا تجلس على العرش! لا تجعل نفسك ملكاً!».

فالملك إذن كان يخيفها. والعرش كان يبعث الرعب فى نفسها، ولكن، إلا يجب أن تتحقق نبوءة الزنجية فى جزيرة مارتينيك، فتصبح جوزفين «أكثر من ملكة؟».

ففى ١٨ مايو ١٨٠٤، عقد مجلس الشيوخ جلسته التاريخية، ونادى بنالوليون بونابرت امبراطورا على الفرنسيين باسم نابليون الأول..

وتحققت النبوءة..!

وفى مساء ذلك اليوم، اختلت الأم بولديها، وراح الثلاثة يفكرون فيما وصلوا إليه: جوزفين امبراطورة فرنسا، وهوثانس صاحبة سمو، وأوجين أمير امبراطورى بلقب فارس عظيم!!

***

الإمبراطورة المتوجة!!

بعد أن قضى الأمر، خشيت جوزفين أن يقرر نابليون، قبل الاحتفال بتتويجه، أبعادها عن العرش واتخاذ زوجة أخرى تتوج معه امبراطورة. ولكن مخاوفها تبددت عندما قال لها زوجها:

سيجئ البابا بيوس السابع إلى باريس، ليتوجنى وليتوجك. فاستعدى لهذه الحفلة!

وعندما وصل البابا إلى العاصمة، كشفت له جوزفين عن سر كتمته فى صدرها، وهو أن زواجها بنابليون لم يكن زواجاً دينياً، وإنما ما رضيت بالارتباط فقط بعقد مدنى، إلا لأن الظروف قد ارغمتها على ذلك، فهدأ بيوس السابع روعها، وعهد إلى الكردينال فيش، عم نابليون، بأن يبارك الزواج ويربطه بالرابطة الدينية، فتم ذلك فى حفلة عائلية لم يحضرها غير بضعة أشخاص من أقارب الزوجين.

واطمأنت جوزفين! فإن نابليون لن يطلقها بعد الآن، ما دام الزواج المدنى قد أصبح دينياً، غير قابل للنقض!

واحتفل بتتويج الامبراطور والإمبراطورة فى كنيسة نوتردام، وأراد نابليون فى تلك الحفلة، أن يثبت للعالم أنه لم يرث التاج عن أحد، ولم يأخذه من يد أحد، بل اكتسبه بحد السيف، فلم يوافق على أن يتوجه البابا ويتوج معه الامبراطورة، بل تناول التاج بيده، ووضعه على رأسه، ثم تناول التاج الثانى، المعد لجوزفين، ووضعه بيده على رأس زوجته. وكان البابا يرأس الاحتفال بوصفة شاهدا فقط. ثم نهض وألقى كلمة بارك بها التتويج والتاجين والمتوجين!

وتوالت الحفلات والاستقبالات فى جميع أنحاء فرنسا..

وبعد شهرين، سافر نابليون إلى ايطاليا، ليتوج نفسه ملكا عليها، ويضع على رأسه تاجاً ثانياً، هو تاج ملوك لومبارديا التاريخى. ولم تتوج جوزفين معه فى يلانو. ولكنها بكت عندما أعلن نابليون تعيين ابنها أوجين نائباً للملك فى ايطاليا، وحاكما عاما لهذه البلاد باسم الامبراطور الملك.

وعاد الزوجان المتوجان إلى فرنسا.

وعاد نابليون إلى إهمال جوزفين الزوجة، والتلهى بالنساء الحائمات حوله. ولكن جوزفين، بعد أن اطمأنت على ارتباط زوجها بالعقد الدينى، كانت تقول: : ليذهب إلى حيث يريد، ما دمت واثقة أنه سيعود إلى!».

* * *

جلست جوزفين التى أصبحت «أكثر من ملكة» خمس سنوات على العرش. ولكن هذه السنوات الخمس كانت كافية لجعل اسم الامبراطورة الجميلة يتلألأ بين ألمع أسماء الملكات. فقد رفع نابليون مجد فرنسا إلى أوجه. وكانت جوزفين جديرة بالمنصب الذى شغلته والذى ملأته بصورة تدعو إلى الإعجاب..

كانت عمرها عندما توجت ٤١ سنة. وعندما طلقها نابليون ٤٦ سنة!

إحاطها زوجها بجميع مظاهر الأبهة والعظمة، ومقتضيات الملك وبذخه. وفتح لها اعتمادات مالية كبيرة لشراء كل ما ترغب فيه من ثياب وحلى وغير ذلك مما تحتاج إليه امرأة، بل امبراطورة متوجة!..

كانت نفقاتها ٣٦٠ ألف فرنك فى السنة، فرفعها الإمبراطور إلى ٤٥٠ ألفا فى السنة التالية. ولكن هذا المبلغ لم يكفها. فقد كانت مسرفة إلى أبعد حدود الاسراف. وإذا كانت جوزفين لم تحسب للمال حسابا وهى فقيرة، هل تتعب نفسها فى حساب مثل هذا وهى امبراطورة فرنسا؟

قابلت جوزفين ملوكا وملكات، وأمراء وأميرات. ولم تخل يوما واحد بواجب المكانة السامية التى رفعها زوجها إليها. ولم يأخذ عليها نابليون خروجها قيد أنملة عن الخطة التى رسمها لها والطريق التى فتحه أمامها. ولكنه ظل يأخذ عليها عقمها. فهو

يريد وارثا للعرش من بعده. فهل تعطيه جوزفين ما يريد؟

خمس سنوات انقضت، وجوزفين لم تشعر فيها يوماً واحداً براحة البال التامة. فالمجد، والإكرام، والثناء، وحرق البخور أمامها كل ذلك لم يبدد مخاوفها، ولم يهدئ روعها.

ووقع فى النهاية ما كان مرتقباً، فقد أوفد إليها الامبراطور ثعلبا من ثعالب السياسة فى عهده، وهو جوزيف فوشيه مدير البوليس، ليعرض عليها التنازل من تلقاء نفسها عن رابطة الزواج، وقضاء بقية حياتها فى قصر مالميزون، وترك الحرية للامبراطور فى أن يتخذ زوجة غيرها، تنجب له ولدا يرث عرشه، لأن الأمة الفرنسية بأسرها ترغب فى ألا يظل العرش بلا ولى عهد!

لكن جوزيف رفضت اجابة هذا الطلب. وافهمت الامبراطور أنها لن تطلب الطلاق من تلقاء نفسها، لأن فى هذا شؤما عليه وعليها. وأنها تخضع لإرادته إذا أراد هو أن يطلقها وينزع التاج عن رأسها.

وجاء عام ١٨٠٩ ونابليون فى أوج مجده بعد معركة واجرام.. وجوزفين تودع التاج الوداع الأخير!

***

الطلاق!!

فى أكتوبر ١٨٠٩، تلقت جوزفين من الامبراطور الرسالة المقتضبة الآتية:

«صدقينى.. أنا مسافر بعد ساعة. سأصل إلى فونتينبلو فى ٢٦ أو ٢٧، يمكنك أن تذهبى إلى هناك مع بعض وصيفاتك».

وصل الامبراطور إلى القصر فى صباح يوم ٢٦ أكتوبر. فلم يجد جوزفين التى وصلت عند الساعة السادسة مساء.

كان نابليون مقطب الجبين، فعاتبها على تأخيرها.. ثم سكت. وعلى المائدة لم يفه بكلمة واحدة. ومكث فى فونتينبلو خمسة عشر يوما تجنب خلالها الاجتماع بزوجته، وكان يخرج مع اخته بولين. ثم عادت الأسرة المالكة إلى باريس، فركب نابليون

حصانه، كيلا يجلس مع زوجته فى مركبة واحدة. وأدرك الجميع أنه وطد العزم على الطلاق.

وفجأة قال لها بلهجة عنيفة قاسية أنه يريد قطع كل صلة بها..

فأجابت جوزفين أنها طوع أمره!

وبكت. ولكن الامبراطور قال لها بصوت ثابت:

لا تحاولى التأثير فى بدموعك. أنى أحبك. ولكن السياسة لا قلب لها، السياسة لها رأس تفكر به فقط!

وأرسل نابليون فى طلب أوجين من ايطاليا ليكون بالقرب من أمه فى هذا الظرف العصيب.

وفى إحدى الليالى اختلى الامبراطور بزوجته، ولم يعلم أحد ما دار بينهما من حديث. ولكن نابليون فتح فجأة باب الحجرة التى تمت الخلوة فيها، ونادى بوسيه، من رجال القصر، الذى دخل الحجرة فوجد جوزفين مستلقية على سريرها، تجهش بالبكاء وتتمتم قائلة: «لن أعيش بعد هذا اليوم!».

وقال نابليون لبوسيه:

لقد ضغطت قلبى.. وأصبح الطلاق أمراً لا مفر منه!

وطلب إليه أن يعنى بها.

وعاد أوجين من ايطاليا، وأسرع مع أخته إلى حيث كانت جوزفين تنتظر رجوع ابنها. وامتزجت دموع الثلاثة مرة أخرى، ولكنها كانت فى هذه المرة دموع حزن لا دموع فرح!

وفى ١٥ ديسمبر، أعلن الطلاق المدنى فى الساعة التاسعة مساء، فى قاعة العرش بقصر التويلرى، أمام أعضاء الأسرة جميعا، ورجال القصر والحاشية المدنية والعسكرية.

وخطب نابليون قائلاً أنه يقدم على هذا العمل مضطراً وبالرغم منه. وخطبت

جوزفين قائلة أنها تخضع لإرادة الامبراطور وتحرص على سعادته وهنائه.

وذهبت جوزفين للإقامة فى قصر ماليزون «البيت الريفى» كما كانت تسميه، والذى عرفت فيه، من ناحيتها، ذلك الهناء وتلك السعادة.

وبالرغم من كل ما حدث، لم ينقطع نابليون عن زيارة زوجته السابقة، ولم تنقطع جوزيف عن الذهاب إلى قصور الامبراطور الأخرى، إجابة لدعوته!

ولكنها لزمت العزلة التامة فى ماليزون عندما علمت أن امبراطور النمسا قد وافق على اعطاء ابنته مارى لويز زوجة لنابليون الأول!

***

سقوط باريس وانهيار العرش!!

فى ٢٧ فبراير ١٨١٠، اعلن نابليون فى مجلس الشيوخ عزمه على الزواج بمارى لويز ابنة امبراطور النمسا فابتعدت جوزفين ولجأت إلى قصر نافاز الذى وضعه الامبراطور تحت تصرفها.

وفى ٢ ابريل، سمعت الامبراطورة السابقة قصف المدافع، وعلمت أن نابليون يحتفل فى تلك الساعة بزواجه، فى كنيسة نوتردام بباريس.. فلم تستطع أن تمنع نفسها من البكاء..

ولكنها تذرعت بالصبر، وراحت تنتقل من مكان إلى مكان، محاولة أن تجد السلوى والعزاء..

وفى السنة التالية، قصفت المدافع أيضاً معلنه مولد ولى العهد، الذى منحه أبوه لقب ملك روما، نكاية بالبابا الذى رفض الموافقة على طلاقه.

وفى ابريل ١٨١٣، حمل نابليون ابنه الصغير إلى جوزفين لكى تراه!

فأخذته على ركبتيها، وقبلته بلهفة، وقالت والدموع تنهمر من عينها.

أيها الطفل العزيز! سوف تعلم يوماً من الأيام كم كلفتنى من عذاب!

وقالت للامبراطور:

يا صاحب الجلالة، أنني سعيدة جداً!

ودارت الأيام دورتها، ودارت معها عجلة الحظ!.. فهل أفل نجم نابليون لأنه افترق عن «نجمه السعيد» كما كان يسمى زوجته؟

عاد الجيش الفرنسي في سنة ١٨١٢ من روسيا، وتوالت عليه الهزائم في المانيا، ودخلت جيوش الحلفاء أرض فرنسا سنة ١٨١٤، وعندما عادت جوزفين من رحلاتها، ومن قصر نافاز البعيد، إلى ماليزون «البيت الريفي» كانت الامبراطورية تتمايل وكان العرش ينهار!

وقالت الامبراطورة السابقة، عندما بلغتها أخبار الهزيمة وسقوط باريس وفرار الامبراطور:

«لماذا رضيت بتركه؟ لو بقيت معه لشاركته الآن عذاب المنفى!»

سقطت باريس في ٢١ مارس ١٨١٤. وفي ١٣ ابريل حاول الامبراطور أن ينتحر بالسم، وقال للجنرال كولنكور: «قل لجوزفين أنني فكرت فيها قبل أن أفارق الحياة!»

وعندما لجأ نابليون إلى جزيرة البا، كتبت إليه جوزفين تشجعه، وتأسف لأن القوة القاهرة تمنعها من اللحاق به في منفاه.

أما زوجته الثانية، ماري لويز، فقد تخلت عنه وعادت إلى أهلها! ولكن نابليون لم يكن قد علم بعد بما فعلت الامبراطورة الثانية، وكان لايزال يعتقد أنها وفية له أمينة على عهده!

وبعد دخول الحلفاء إلى باريس، اتصل اسكندر امبراطور روسيا بالامبراطورة المطلقة في ماليزون، وعرض عليها خدماته بالحاح. فطلبت منه جوزفين السماح لها بالبقاء في قصرها، ومعاملة ابنها وابنتها معاملة مشبعة بروح التسامح، فوافقها الامبراطور على ما طلبت. وقد عاب بعض المؤرخين على جوزفين اتصالها بالذين هزموا نابليون، ولكن، ألم يكن هذا خيراً لها وأوفى من الارتماء في أحضان أسرة بوربون، التي عادت فيما بعد إلى فرنسا، واسترجعت عرشها الذي اغتصبه نابليون؟

لقد أدركت جوزفين أن زوجها خسر كل شئ، فأرادت أن تضمن البقاء لولديها،

وأن تمنع عنهما انتقام البوربون وأنصار الملكية!

ومن سخريات القدر، ألا تعيش جوزفين، لترى بعينيها عودة نابليون من جزيرة البا، ومحاولته استرجاع عرشه، وهزيمته فى واترلو، واستسلامه للانجليز، وارساله سجيناً إلى جزيرة سانت ايلين..

فقد ماتت قبل أن يغادر الامبراطور جزيرة البا، وعندما بلغه الخبر حزن وبكى..!

وبعد عودته إلى فرنسا، فى خلال «الأيام المائة» التى انتهت بهزيمة واترلو، كان يسأل جميع الذين أحاطوا بها يوم وفاتها، عن المرض الذى شكت منه، وعن ساعاتها الأخيرة.

وقد سأل مرة الطبيب الذى عالجها:

ـ هل بقيت بجانبها طول مرضها؟

ـ نعم يا صاحب الجلالة!

ـ وما هو سبب موتها؟

ـ الحزن وخيبة الأمل يا صاحب الجلالة!

ـ أى حزن، وأية خيبة؟

ـ الحزن مما حدث.. من حالتك أنت يا صاحب الجلالة!

ـ آه!.. كانت إذن تتحدث عنى؟

ـ كثيراً، كثيراً جداً..

ـ يا للمرأة الطيبة!.. لقد كانت تحبنى!

وبعد أن فقد الإمبراطور كل شئ، ذهب إلى مالميزون للمرة الأخيرة، وودع ذكرى زوجته، ثم ابتعد إلى حيث ينتظره النفى والموت..

وقبل أن يسلم نفسه للانجليز، قال لرفاقه:

لو كانت جوزفين باقية على قيد الحياة، لتألمت كثيراً.. لم نتشاجر فى حياتنا إلا على مسألة واحدة: ديونها الكثيرة!.. أن قلب جوزفين أطيب قلب عرفته!

بولين بونابرت

فتنة الجمال والغواية!!



«إذا كان هذا هو التقليد.. فكيف كان الأصل يا ترى؟!»

عبارة يقولها كل من وقف مبهوراً أمام تمثال الفاتنة «بولين بونابرت» شقيقة نابليون الصغرى المدللة فى متحف «بورجيزى» فى العاصمة الإيطالية روما..

كانت بولين بونابرت.. أو بولين بورجيزى زوجة الأمير «كميل بورجيزى» وهو الشريف الإيطالى أحد أقطاب الأسرة الرومانية الشهيرة بهذا الاسم.. وقد حكم ولاية «جاستالا» ثم ولاية «بيمونتى».. ولذلك تعددت أسماء الفاتنة بولين.. فتقرأ أسماءها تحت صورها العديدة التى أبدعها لها فنانو التاريخ الكبار بهذه التعريفات: بولين بونابرت ـ أميرة بورجيز ـ دوقة جاستالا ـ أميرة بيمونتى..

أما تمثالها الرائع المثير.. فهو تحفة رخامية من آيات الفن الرفيع، من أعمال المثال الشهير «كانوفا». ففى موسوعة «هيستوار دى فرانس» نجد وصفا دقيقا لحياة بولين الحسناء، كما نقرأ الكثير والمثير عن التمثال وصانعه وعن كميل بورجيزى.. الزوج الولهان الغيور.. لقد وصلت غيرته على زوجته إلى حد أنه نظر إلى التمثال بعد أن اكتمل بين أنامل الفنان.. ثم جثا على ركبتيه أمامه، ونهض يغمره بالقبلات.. بل ولم يطق أن ينظر إليه أحد غيره ولو بمجرد نظرة عابرة، فأصدر أوامره على الفور لحراس قصره بأن يخفوا التمثال عن الأعين فى أحد المخازن المغلقة!! وبلغت الغيرة ذروتها، فمنع الفنان أيضاً من رؤية تمثاله الذى صنعه بيديه!!

* * *

ولدت بولين فى ٢٠ أكتوبر من عام ١٧٨٠، وكانت المولود العاشر لأبويهاشارل بونابرت وليتسيارا مولينو. أما شقيقها نابليون فكان الرابع فى ترتيب المواليدالعشرة، وكانت بولين أجمل بنات الأسرة وأكثرهن إخلاصاً ووفاء وحبا لنابليون، ولهذا أحبها أكثر من جميع أشقائه وشقيقاته، ولم تكن الفتاة الجميلة معروفة بهذا الاسم.. إذ أن اسمها الأصلى هو «ماريا باوليتا» ونابليون نفسه هو الذى اختار لها اسم بولين بونابرت، ولقربها منه وحبها له أحاطها روح الأمل والثقة بالنفس والتفاؤل بمستقبل عظيم، وقال لها يوماً: «أنا فخور بك يا بولين، ولكنى أخاف عليك من جمالك المفرط وجاذبيتك التى لا تقاوم»!

وصعد نابليون مدارج المجد والشهرة وبالتالى، تزايد عدد المقربين والمنتفعين والمعجبين والمتزلفين من حوله، وكثرت عروض الزواج من شقيقاته، ولا سيما من الفاتنة بولين، فاختار نابليون أحد مساعديه الأكفاء زوجا لها هو «الجنرال لوكلير»، وبمواهبها

الأنثوية والعقلية الفائقة، اتخذت لنفسها مكانة مرموقة فى المجتمعات الباريسية الصاخبة. وفى تلك الفترة النابضة بالحيوية والمتفجرات والمتغيرات الثورية المتلاحقة، تدانت طبقات وارتفعت طبقات أخرى، وتتابعت حكومات واستحدثت أنظمة وتكتلات.. قادت فرنسا إلى سلسلة من التحولات التى أدت إلى إعلان الإمبراطورية.. وحدث كل ذلك فى سرعة جنونية لاهثة لا تزيد عن عشر سنوات..

وفى سنة ١٨٠١، كان نابليون يشغل منصب «القنصل الأول» عندما نشبت ثورة الزنوج على فرنسا فى جزيرة، «سان دومنيك» بأمريكا.. فعهد نابليون إلى صهره الجنرال «لوكلير» بقيادة الحملة التى أعدها لاخماد الثورة فى تلك المستعمرة النائية، ولما كان نابليون قد لاحظ على شقيقته أنها بدأت تنغمس فى السهرات ومجتمعات اللهو الأرستقراطى بنزواته الحمراء الماضية.. وأن هناك خطراً يتهددها وينزلق بها إلى ما لا يليق بسمعتها وسمعة آل بونابرت، أرغمها على أن تذهب مع زوجها، فسافرت على غير رغبتها إلى سان دومنيك تاركة أضواء الشهرة والليالى الباريسية الساهرة الساحرة، ودارت المعارك الطاحنة، وتعرض الجيش للكوارث والأوبئة والأمراض المعدية، وفتكت الحمى الصفراء بالجنود، وعلى غير ما كان متوقعاً أظهرت بولين زوجة القائد العام لوكلير شجاعة وتفانيا وجلدا على النهوض بواجباتها خير قيام، وتحدث الجميع فى عجب وإعجاب كيف يحدث كل ذلك من الفاتنة الرقيقة الناعمة!

***

الهدوء الذى يسبق العاصفة!

وإنهالت التقارير من أرض المعارك على الحكومة الفرنسية تشيد بالجهد المثالى الذى أبدته زوجة القائد.. فكانت الساهرة على رعاية زوجها، الخطيبة المحدثة اللبقة لنشر الأمل والوعى والحماس بين الجنود.. كما كانت لمسة الحنان وبلسم الشفاء للمرضى والجرحى تقوم بخدمتهم وتمريضهم فى ميدان المعركة..!

وأراد المسئولين فى باريس أن يقنعوها بسرعة العودة خشية عليها من تلك المخاطر.. ولكنها رفضت بشجاعة وإباء.. إذ قالت فى ردها:

«إذا كنتم تخافون عليّ من المرض أو الموت.. فمن أنا.. أننى لا أرقى إلى عطاء القادة أو إلى تضحيات وشجاعة أحد جنودنا على أرض القتال.. أننى أتعلم منهم كل يوم.. بل كل لحظة.. كيف تهون الدماء والأرواح فى سبيل مجد الوطن.. ولا تنسوا يا سادة أننى شقيقة نابليون!»

واستمرت بولين فى أداء واجبها الوطنى على أرض الجزيرة النائية.. غير عابئة بالأوبئة والأمراض المعدية، حتى كان أول يوم من شهر نوفمبر عام ١٨٠٢، حينما فتكت الحمى الصفراء بزوجها الجنرال لوكلير، فروعت الزوجة المخلصة، وقصت شعرها الحريرى الطويل، ووضعت خصلاته على جثمان زوجها الذى راح ضحية الواجب المقدس، ورافقت رفاته إلى أرض الوطن تبكيه بحرارة حتى مثواه الأخير!

كانت آنذاك فى الثانية والعشرين من عمرها.. وقد عكفت فى قصرها المطل على ميدان الكونكورد حزينة ساهمة ساكنة ترتدى ثوب الحداد.. ومرت عدة شهور وهى فى انزوائها وصمتها المهيب.. وأراد نابليون أن يخرجها من هذه الكآبة الرهيبة.. فقرر أن يختار لها زوجاً جديداً من خارج فرنسا.. حتى يبعدها عن أرض الذكريات.. ووقع اختياره على نبيل إيطالى من أسرة عريقة وهى أسرة بورجيزى، صاحبة المركز الرفيع فى روما.

وكان كميل بورجيزى - الزوج المختار - شابا يمتاز بعلمه وثقافته وكرمه واستقامته، وسرعان ما تم الزواج فى ٢٨ من شهر أغسطس عام ١٨٠٣.. وأقيم حفل القران فى باريس، ثم انتقل العروسان بعد شهور قليلة إلى روما.. وبدأت حياة جديدة لبطلتنا بولين بورجيزى تختلف تماما عن حياتها السابقة كزوجة للقائد لوكلير.. كما كانت الظروف تختلف كذلك بالنسبة لنابليون بونابرت.. فهو يرتقى سلم المجد والشهرة يوماً بعد يوم، وأصبح الحكم والعرش وكرسى الإمبراطورية تسعى إليه فى أفقه القريب.. أما الزوج المحب المبهور بجمال زوجته، فقد طار صوابه بامتلاكه لهذه الفاتنة.. وأخذ ينفق بكرم وسخاء ويقيم الحفلات الأسطورية الباذخة فى روما احتفاء بعروسه الحسناء.. غير أن كل هذه المظاهر المترفة لم تنسها أجواء باريس ولياليها الشاعرية الحالمة.. لقد عصرتها فترة الكفاح فى سان دومنيك.. وصهرتها شهور الحداد.. وها هى ذى لا تطيق أيام الغربة بعيدة عن الأهل والأصدقاء ومرتع الصبا

والشباب.. لقد هفا وجدانها إلى الإستمتاع بملذات الحياة بعد أن أرهقت أعصابها الأحداث الماضية.. وقد ألفت هذا الإستمتاع فى منتديات مدينة النور على ضفاف السين.. ومهما وجدت من حفاوة أهل روما وكرم زوجها الذى يبذل قصارى جهده لإسعادها.. إلا أنها تحس بالغربة يوماً بعد يوم.. فأخذت تجمع حولها أصدقاء مقربين من القادة والسفراء وشخصيات المجتمع.. ولاحظ الجميع أن الفاتنة على وشك جولة جديدة من التمرد الناعم والنزوات الساخنة.. وصبر الزوج المحب الولهان.

* * *

وذات صباح.. فوجئ النبيل الإيطالى بزوجته تعد حقائبها استعداداً للعودة إلى باريس.. فجن جنونه.. ورفض الرجل المهذب أن يقر ذلك إلا بالرجوع إلى نابليون!.

وبعد أيام.. جاء الرد العاقل من نابليون فى صورة رسالة رقيقة كالنسمة الحانية.. حاسمة كحد السيف.. وكانت موجهة إلى شقيقته بولين يقول فيها:

«... قيل لى أنك تتناسين من وقت لآخر أنك شقيقتى التى أحبها.. وأحب فيك ـ بصفة خاصة ـ وفاءك وإخلاصك.. كما تنسين أن لك زوجا له عليك حقوق. ويؤلمنى أشد الألم أن ينال سمعتك أى سوء وأن محافظتك على جمالك وصحتك، فالجمال زائل، والشباب لا يدوم، وكما أن لنا حقوقاً على الآخرين، فلهم واجبات يجب أن تكون محل اعتبارنا، والعظماء هم الذين يتفانون فى الإخلاص والعطاء، وبقدر ما نعطى بكل التجرد والحب والوفاء بقدر ما نكسب احترام الآخرين.»!.. وسكنت الزوجة فى هدوء.. ولكنه كان الهدوء الذى يسبق العاصفة..

وبعد نحو عشرة أشهر من زواج بولين والنبيل الإيطالى.. اعتلى نابليون عرش الإمبراطورية فى فرنسا، وأصبحت الفاتنة المتمردة تحمل اللقب الكبير: صاحبة السمو الإمبراطورى بولين بورجيزى!

والمجد عندما يأتى بهذا السخاء فى مواكب الرفاهية والترف والسرف بغير حساب.. لا شك أنه يدير الرءوس ويقلب الموازين ويحول الثقة بالنفس إلى غرور وخيلاء!!

وفاتنتنا بولين يبدو أنها على وشك أن تترنح وقد وجدت نفسها فوق قمة شاهقة على مقعدها الوثير بين بريق اللآلى ومظاهر الترف وتفجر الأنوثة وجموح الشباب.

* * *

ليالى الانس فى باريس!

كان ذلك فى شهر مايو من عام ١٨٠٤، وقد حولت قصر بورجيزى إلى منتدى لا ينام من الحفلات الأسطورية الباذخة إحتفالاً بهذا الحدث الأسطورى العظيم.. واعتقدت صاحبة السمو أنها اعتلت قمة النفوذ والسلطان.. وكان سلطان جمالها الطاغى هو ذروة هذه القمة.. ولكن - وهكذا تدور الأيام - ما أن انتهت الفاتنة من حفلاتها حتى عبست لها الأقدار فجأة.. فلم يمضى شهران، إلا وقد فجعت فى أعز ما لديها.. وهو ابنها «دراميد» من زوجها السابق «الجنرال لوكلير» وكان فى عمر الزهور اليانعة فى السابعة من عمره! وتحولت أفراحها إلى أحزان من الأعماق، وتبدلت الألوان الوردية فى ابهاء القصر الإيطالى الكبير إلى ألوان القتامة والكآبة والصمت والحداد! وركنت الفاتنة إلى العزلة والإنطواء من جديد.. وزهدت فى متع الحياة.. وحتى فى الحياة ذاتها! وظن الكثيرون أن بولين بونابرت، بكل ما حباها الله من جمال ورقة وشاعرية، لن تقوى على تحمل هذا الحدث المروع.

وانشغل بال الإمبراطور نابليون إشفاقا على شقيقته التى يخصها بحبه ورعايته.. فعمل كل ما فى وسعه لكى يخفف عنها، فاستدعاها إلى باريس مع زوجها كميل بورجيزى ليقيما فى العاصمة الفرنسية بعض الوقت، وخصص لهما أحد القصور الملكية الفخمة. وبالغ نابليون فى إقامة السهرات الأرستقراطية الباذخة للترفيه عن صاحبة السمو الإمبراطورى.. كما أحاطها بسيل من الدعوات هنا وهناك لقضاء الأمسيات والرحلات والندوات وحضور المعارض الفنية والحفلات الموسيقية.. وكان الإمبراطور يطلب تقريرا يوميا عن حالة أخته النفسية، ومدى إستجابتها لاضفاء روح المرح والسعادة على حياتها الجديدة.. ومن عجب، أن النتائج كانت بأسرع مما تصور.. فقد طوت بولين أحزانها، وانغمست فى صخب الحياة الباريسية ولياليها التى لا تنام.. ويوماً بعد يوم، ألفت بولين حياة اللهو والسهر والسمر.. وأقامت - بدورها - سلسلة من

الحفلات التى فاقت ما عرفته باريس من قبل!! واستمرأت هذه الحياة الناعمة المبهجة.. فجعلت من قصرها صالونا للتألق والتأنق والجمال وكأنه معرض دائم لفاتنات باريس وسيدات القصور ومحظيات المشاهير من رجال الفن والفكر والسياسة! وخصصت مرسماً فنياً فى إحدى قاعات القصر، حيث تبارى كبار المبدعين فى استلهام جمالها فى روائعهم الخالدة التى مازالت تنبض بالفتنة والحياة حتى اليوم.

وكانت هذه الصحوة الإجتماعية، بمثابة عودة الرومانسية إلى العاصمة الثائرة التى تموج بالأحداث التحولية وتتلاطم فيها التيارات السياسية الجارفة..

واصطبغت باريس بألوان متألقة تشجيها الأنغام الموسيقية الدافئة.. وبذلك، أعادت بولين روح الأستقراطية الملكية المترفة من جديد، وأضحت مثاراً للحسد فى نفوس حسان باريس وفتيات عائلاتها العريقة.. وكان لابد من أن تتناثر التقولات، بل وتثار حولها الشبهات وتلوك سيرتها الألسن.. فقد أصبحت أسيرة لنزواتها التى لا تحدها حدود دون مراعاة لمركز شقيقها الإمبراطور، أو زوجها الشريف الإيطالى صاحب الاسم النبيل والأصل العريق! وانتشرت الاتهامات بأنها قد اتخذت من مساعديها وحراسها عشاقا لها، وأن صاحبة السمو الإمبراطورى قد بلغ بها الاستهتار إلى حد أنها سقطت أسيرة لنزواتها، وخرجت عن نطاق واجباتها الزوجية علانية دون أن تحاول أن تدفع عن نفسها هذه الشائعات التى وصلت إلى درجة الاتهام الصريح من الفرنسيين، بل وفى أوربا كلها!

***

المساءلة.. والمرافعة!!

وعلت اصداء الهمس حتى أصبحت ضجيجاً يصم الآذان، بل وطرقت مسامع نابليون وهو يعتلى كرسى الإمبراطورية التى تقود العالم كله إلى نفوذه وسلطانه، وانزعج القائد لهذه الاتهامات.. إنها شقيقته التى يعتز بها اعتزازاً خاصاً، ويعتبرها مثالاً للوداعة والوفاء، وأن كان قد حذرها من قبل مرات عديدة من سطوة جمالها وفتنتها على قلوب الرجال!

وأمر باستدعائها ليستوضح منها الأمر، فانبرت تدافع عن نفسها بثقة واعتزاز وخيلاء قالت لنابليون:

«لقد وضعت ثقتك فى، وأنى لجديرة بهذه الثقة، ولكنك يا أعز الأحباب منغمس فى مهامك الكبرى، ولا يسعفك وقتك لدراسة ميول البشر من رجالات القصر وذوى النفوذ والتحزبات التى أفرزتها ثورتك الشجاعة، وقيادتك العبقرية.. وكان لزاماً علىّ أن أعمل على جمع الشمل بأن استميل أكبر عدد من هؤلاء وهؤلاء إلى زعامتك حتى لا تجابهك مشاكل التفرقة والتمرد.. أنهم جميعاً يسلمون قيادهم إلى أثر مجاملة أو ابتسامة عابرة.. وحرى بى أن أحرص على استرضائهم جميعاً لكى نكسب ولاءهم، وكما علمتنى: فكلما كانت أشجارنا مثمرة، ازداد عدد الذين يقذفونها بالحجارة.. ولكل شئ ثمن.. وللأهداف الكبرى تضحيات.. فانتشرت الهمزات واللمزات، وأنا أدرى بها، ولكننى وضعت نفسى ومواهبى فى خدمة الإمبراطور، وليس معنى ذلك أن السبل والوسائل تحط من قدرى وقدرك.. بل أستطيع أن أؤكد لشقيقى وإمبراطورى الحبيب أن سلوكى شريف بمعنى الكلمة فى وسائله وغاياته!

أن أحداً من الرجال لم يحظ منى بأكثر من عبارات لطيفة وابتسامات ودودة أوزعها هنا وهناك.. لا تخفى وراءها أى معنى خاص أو أسرار ذات مغزى، أنهم يتقولون بوازع الغيرة والأحقاد النسائية.

ويعلم أخى قبل أى إنسان آخر أننى عاطفية شاعرية حالمة.. وقد قلتها لى مراراً بأننى خفيفة.. هذا صحيح، ولكننى شريفة.. وهذا صحيح أيضاً!»

استمع إليها نابليون باهتمام وتعاطف شديدين، وكلما أفاضت فى الشرح والتفصيل، انفرج عبوس وجهه.. وما أن إنتهت من مرافعاتها الواثقة حتى تهللت أساريره فربت على رأسها بكل العطف والأعجاب.. وودعها بعباراته الحنونة: هذه أنت يا بولين، وثقتى فيك ليس لها حدود!

وسواء أكانت على صواب فى دفاعها عن نفسها، أم أن نزواتها قد غلبتها على أمرها.. إلا أنها لم تكف يوماً عن استقطاب الأضواء وإجتذاب أنظار الرجال إلى مفاتنها فى حفلاتها الأسطورية الباذخة..

* * *

وذابت الحروف على الشفاة!!

.... وتمر السنوات بأمجادها وطفراتها وعثراتها.. وتموج فرنسا وأوربا كلها بالبراكين والصواعق الثورية الدامية.. وتدور الدائرة لتهوى بالأسد الرابض على كرسى الإمبراطورية إلى قاع الحياة.. ففى يوم ١٥ من شهر إبريل من عام ١٨١٤، تنازل نابليون عن العرش طواعية لانقاذ البلاد من التطاحن والفتن.. ونفى نفسه إلى جزيرة «ألبا».. وتخلى عنه الجميع هربا بحياتهم وتحسبا للإنتقام منهم إلا بولين.. أخلص الخلصاء، وأوفى الأوفياء للإمبراطور وهو فى محنته القاسية.. فقد رحلت لتعيش معه فى منفاه على هذه الجزيرة الصغيرة، وقالت عبارتها الشهيرة:

«أريد أن أبقى بجانبه حتى النهاية، فما أحببته لأنه الإمبراطور صاحب النفوذ والسلطان.. ولكنى أحببته لأنه شقيقى الإنسان الحنون»!!

ولما عاد من المنفى كانت أيضاً بجانبه لم تفارقه لحظة واحدة، وشعرت بأنه يحتاج إلى المال ليجابه المسئولية الكبرى من جديد، فألقت بين يديه كل مدخراتها ومجوهراتها قائلة له:

«أنها من فيض عطائك.. فهى منك وإليك».

... ولكن النهاية كانت أسرع من دقات قلبها المتعلق بشقيقها.. فقد تنازل عن العرش للمرة الثانية والأخيرة.. واقتاده الإنجليز منفيا إلى جزيرة «سانت هيلانة».. وحرموه من أهله وأتباعه.. وحتى من رؤية ولده.. ولم تجد بولين بدا من أن ترحل حزينة حسيرة وحيدة إلى إيطاليا.. وكان زوجها النبيل الإيطالى كميل بورجيزى قد ابتعد عنها عندما وجد أن نجم نابليون فى طريقه إلى الأفول!

فأقامت الفاتنة المقهورة مع أمها تندبان الحظ وتتحرقان شوقاً إلى لحظات من الأمجاد الغابرة.. وتوالت عليها الأيام كئيبة خاوية خالية إلا من آلام مبرحة تعتصر قلبها ووجدانها..

وأورثتها هذه الهموم الثقال أمراضاً جسدية ونفسية مريرة، وعاشت سنواتها الأخيرة تترقب الموت وتنتظر الخلاص.. حتى لفظت آخر أنفاسها فى عام ١٩٢٥.

وفى لحظاتها الأخيرة، جلس الكاهن بجوارها يدعوها إلى التوبة وطلب الغفران عن ذنوبها.. فرمقته بنظرة ذابلة وهى تغالب سكرات الموت وقالت له:

«لست فى حاجة إلى التوبة يا سيدى.. فقد كنت أعرف تماماً كل ما أقدم عليه من قول وعمل..

ولو عشت مرة أخرى لما فعلت غير ما فعلت، ولما سلكت طريقاً غير الذى سلكته..»!! وذابت بقية الحروف على شفتيها الساحرتين..!!



سـارة برنـار

الفاتنـة الأسطـورة!!



حامت حولها الشبهات.. وطوقتها الريب.. بأنها استطاعت أن تفتن ألباب الكثيرين من عظماء الرجال فى عصرها، وتستهوى قلوبهم.. وكان من بينهم قيصر روسيا ونابليون الثالث، والبابا بيوس التاسع. وأن كثيرين ممن أعرضت عنهم أثروا الموت انتحاراً وفضلوه على الحياة بعيداً عنها - معرضة عنهم.

وقد تألفت طوائف من النساء فى شبه جماعات فى كل مكان كانت تحل به سارة برنار لحماية الأزواج والأبناء والأخوة من عبث هذه المرأة الطاغية اللعوب، ومن فتنتها وسحرها الآسر!!

ومن المرجح أن لا تتكشف حقيقة المبررات لكل هذه الاتهامات التى انصبت على رأس هذه المرأة من كل صوب، ولكن الذى لا ريب فيه ولا جدال ألبتة أن سارة برنار الممثلة الفرنسية التى تألق فنها وازدهر خلال خمسة وسبعين عاماً على المسارح الفرنسية كانت حقيقة وبلا أدنى شك امرأة ذات حسن خلاب، وفتنة طاغية، وجاذبية قاهرة، وجمال ساحر، إلى جانب عبقريتها الطبيعية.

وسيظل اسم سارة برنار مقرونا على مر الدهور بعبقرية التمثيل، وبهجة المسارح لدى رواد المسارح فى جميع أنحاء العالم.

فمن هى تلك المرأة التى يعدونها كليوباترة الفرنسية؟!

وأى العناصر استطاعت أن تتألف وتندمج وتتفاعل، ثم تخرج فى النهاية مثل هذه المرأة العجيبة؟

ليس من السهل الرجوع إلى ماضى سارة برنار، فإنها كانت تحف نفسها بما تخترعه مخيلتها، وقد قال أحد مديرى المسارح الباريسية فى هذا الشأن قولته المشهورة: «أن سارة برنار تغير أسلافها كما تغير ثيابها، أو كما تغير أرواحها التى تبدو فيها خلال أدوارها»!!!

من هى سارة برنار؟!

كثيراً ما دار فى أندية باريس، وفى صحف أوربا، جدل طويل حول المكان الذى ولدت فيه سارة برنار، فهناك من يقول أنها فرنسية أو ألمانية أو هولندية أو مجرية أو أمريكية، أو حتى مغربية من بلاد الجزائر! وكانت سبع مدن أو ثمان منتشرة فى أرجاء أوربا، تدعى كل منها لنفسها شرف انجاب هذه الممثلة! مثلها مثل شاعر الإغريق هوميروس، الذى تنازعت شرف مولده فيها مدن كثيرة من مدن اليونان، وعندما زارت أمريكا أول مرة فى سنة ١٨٨٠ ذهب عدد من الأمريكيين ممن يحملون اسم برنارد

يدعى كل منهم أنه أبوها، وأصر أحدهم، وكان من سكان فيلادلفيا، على دعواه وطالب بضمها إليه!

فكيف اختلف الناس وتجادلوا، ثلاثين عاماً طوالاً حول مولد سارة برنار، بل حول أبوتها، مع أن سجلات الحكومة تثبت أنها «ولدت فى باريس فى ٢٣ أكتوبر سنة ١٨٤٤ لوالد فرنسى، اسمه ادوارد برنارد»؟ ذلك أن أبويها لم يكونا زوجين، بل كانا عشيقين، التقيا فى زاوية من زوايا الحى اللاتينى، ولبثا معاً أمداً قصيراً!

كانت أمها، جولى فان هارد، امرأة هولندية لا دين لها، لأن أباها كان مسيحيا وأمها يهودية، فاختلف أينصران ابناءهما أم يهودانهم، فحلا الخلاف بتركهم يشبون بغير دين.. ومات الوالد عن ست بنات فقيرات، فسعت جولى تكسب رزقها بيديها، وهاجرت وهى فى الرابعة عشرة من هولندا إلى ألمانيا، تعمل فى متاجر أزياء النساء، وهناك تعرفت بقنصل فرنسى أخذها معه فى عودته إلى باريس، فلما رغب عنها تركها فتاة فقيرة وحيدة، لا تكاد تتكلم الفرنسية، ولا تجد عملا يعصمها من التشرد فى طرقات باريس، فآوت إلى الحى اللاتينى، ترقص فى ملاهيه وحاناته، ثم تنصرف آخر الليل مع أحد هؤلاء الطلاب الذين جاءوا إلى باريس يطلبون العلم حينا، ويلتمسون العبث حينا.. ثم توثقت العلاقات بينها وبين واحد منهم، اسمه «ادوارد برنارد» جاء من ريف فرنسا يدرس الحقوق فى جامعة باريس، فأقامت معه أكثر مما أقامت مع سواه، ثم افترقا، فعاد هو إلى الريف يزاول المحاماة، وبقيت هى فى باريس، مع طفلة وضعتها، واتخذت لها اسم سارة برنارد.. وأقر ادوارد برنارد هذه التسمية، وأخذ يمد الطفلة وأمها بشئ من المال، ولما مات أوصى لسارة ببعض ثروته، ومع هذا فقد ظلت الأم تقول فى سخرية واستهتار، أنها هى نفسها لا تدرى من هو برنارد الذى نسبت إليه إبنتها: أهو هذا الشاب الريفى الذى كان يدرس الحقوق فى باريس؟ أم هو بحار فرنسى عرفته بضع ليالى خاطفة لاهية؟!

وكان مولد سارة فاتحة حظ أقبل على أمها، فأتخذها الجراح الفرنسى «البارون لارى» خليلة يغدق عليها المال والهدايا، ونقلها من غرف الطلبة، وفنادق البحارة، إلى بيت مؤثث أنيق، وأخذ يصطحبها فى رحلاته إلى أرجاء أوربا، حيث يدعى لإجراء العمليات الجراحية الخطيرة، ولم تستطع الأم فى هذه الحياة المترفة اللذيذة أن تحتمل

ابنتها طويلاً، فألقت بها إلى خادمة فى الريف تكفلها وتربيها، لقاء أجر واظبت على دفعة حينا، ثم تزوجت الخادمة وانتقلت إلى باريس ومعها الطفلة فى سنتها الرابعة، وأقامت مع زوجها فى غرفة واحدة، جعلت فى ركن منها فراش الطفلة، وفصلته بستار عن فراشهما، ولم تطق الطفلة البقاء فى هذه الغرفة الضيقة المعتمة، فى حضانة خادمة تعيش من غسل ملابس الناس، فألقت بنفسها من النافذة فهوت على الأرض جريحة، وأعيدت إلى بيت أمها حيث بقيت عليلة هزيلة سنتين متصلتين.

ولم تستطع الأم، وهى فى حياتها المبتذلة هذه، أن تحيا وابنتها فى بيت واحد، فألقت بها إلى دير من أديرة الراهبات.. وبين الضحكات الصاخبة، والكؤوس المترعة التى تتبادلها الأم مع عشاقها، كانت تقول لهم:

- تصوروا أننى سأكون أما لراهبة تقية ورعة؟!

فيرد عليها عشاقها:

- إذن فافعلى ما تشائين.. فستكفر ابنتك عن كل ما تأتين من الخطايا والآثام!

ولكن.. أيمكن أن تكون سارة راهبة؟ كلا! فقد عجزت راهبات الدير عن اصلاح هذه الطفلة اللاهية اللعوب، وغسلنها بالماء المقدس ليخرجن الشيطان من قلبها، فلم يجد هذا نفعاً، فهى تغرى بنات الدير بأن يتسلقن أسواره، ويهبطن إلى المزارع المجاورة، يعبثن مع صبيان الفلاحين، وهى تستلقى أحياناً على الأرض، وتسبل جفنيها وتجمد أطرافها، كأنها قد فارقت الحياة، فإذا أسرعت إليها الراهبات فتحت عينيها، وهى تضحك منهن هازئة، وإذا وضعوا عليها رقابة شديدة، انتظرت حتى يقترب الظلام، فتصعد إلى سطح الدير، حيث تتبادل القبلات عن بعد مع أحد الشبان، فلم يكد بد من أن تعيد راهبات الدير هذه البنت إلى أمها، حتى لا تفسد أخلاق من فى الدير من فتيات ناشئات.

عادت البنت إلى أمها بعد ثلاث سنوات، فوجدتها إمرأة ناضجة فى السادسة والثلاثين، تقيم فى مسكن فاخر بأرقى إحياء باريس، ويتردد عليها نفر من عليه المجتمع الفرنسى، فهذا الجنرال «دى بوله» الذى استولدها بنتا أخرى، وهذا الموسيقى «روسينى» مؤلف «أوبرا حلاق اشبيليه» وهذا الدوق «دى مورنى» أخو الإمبراطور

نابليون الثالث، الذى أمضى السنوات الأخيرة من حياته فى رفقتها.. فكيف توفق الأم بين حياتها وسط هؤلاء العشاق والرفاق المتازين، وبين أمومتها لهذه البنت التى بلغت خمسة عشر عاماً؟ وماذا تفعل بها وهى لا تملك شيئاً يغرى أحداً بزواجها ولا تدرى شيئاً تكسب منه رزقها، وهى تسعل سعالاً حاداً كأنها مصابة بداء الرئة، وقد اسود ما حول عينيها لشدة ما تعانى من فقر الدم وهزال البدن؟

وأراد الدوق دى مورنى أن يخلو له بيت عشيقته، فأقترح عليها أن ترسل ابنتها إلى معهد من معاهد التمثيل، ولعله كان يبدو عليها، وماتزال فى هذه السن، أنها تصلح لفن التمثيل، ففى عينيها بريق لامع وضاء، وعلى شفتيها تعبير حى بليغ، وبين سمات الوجه وأعطاف القوام تجاوب واتساق، يبدو فيها ما يضطرم فى نفسها من خلجات الشعور.. وفوق هذا كله فإن فى صوتها نبرة واضحة منغمة، تستلفت الإذن إلى أدائها الواضح الرقيق.

وعلى كره من الفتاه ذهب بها الدوق إلى «الكونسرفتوار» الذى يعد خريجاته للإنضمام إلى «الكوميدى فرانسيز» أكبر المسارح الفرنسية جميعاً، ولم يكن دخول هذا المعهد يسيرا، لولا وساطة الدوق شقيق الإمبراطور، فاكتفوا بقصيدة ألقتها بصوتها المتهدج الرنان، وإذا كان كل فنان موهوب ينجذب إلى فنه منذ طفولته بشعور خفى وقوة قاهرة، فإن سارة برنار تشذ عن هذه القاعدة، فإنها أقبلت على معهد التمثيل مكرهة مرغمة، وأخذت تدرس فن التمثيل فى ضيق ومشقة، ولم تبد منها أول الأمر براعة ملحوظة، ولولا رعاية الدوق، عشيق أمها - لما أتمت دراستها، ولأوصد فى وجهها باب «الكوميدى فرانسيز».

دخلت سارة هذا المسرح العظيم، وكل ممثل فرنسى يعتقد أنه إذا دخل «الكوميدى فرانسيز» فقد قطع نصف الطريق إلى المجد والشهرة، فكان حريا بسارة أن تزهى بهذا النجاح الذى لا تستأهله، وأن تحرص أشد الحرص على وظيفتها فى هذا المسرح، ولكن سارة لم تفعل، وفى نزوة من نزوات غضبها وشراستها، ألقت بنفسها إلى عرض الطريق.

ففى كل سنة يحتفل «الكوميدى فرانسيز» بذكرى ميلاد «موليير» فيوضع

تمثال الشاعر وسط المسرح، ويدخل الممثلون والممثلات مثنى، فيضعون عليه سعف النخيل، ثم يصطفون جميعاً حوله ويستمعون إلى قصيدة من شعر موليير يلقيها أحد أفراد الفرقة البارزين، وجاءت سارة تشترك فى هذه الحفلة ومعها أختها الصغيرة «ريجينا» التى لم تتجاوز تسع سنوات، وبينما كانتا تنزلات درج المسرح، وأمامهما مدام «ناتالى» إحدى الممثلات المشهورات، داست الطفلة على زيل ثوبها الفضفاض.. فألتفتت إليها الممثلة ودفعتها بيدها دفعة قوية إلى الحائط، فلم يلبث الدم أن سال على جبهتها.

لم تتمالك سارة نفسها، فصاحت فى وجه الممثلة الكبيرة، ووصفتها بأنها وحش قذر، وفى سورة غضبها صفعتها مرتين على وجهها!!

وساد المسرح ضجيج وإضطراب، وتأخر بدء الحفل بضع دقائق، وفى اليوم التالى أرسل مدير المسرح إلى سارة يطلب إليها أن تعتذر إلى الممثلة الكبيرة أمام زملائها، على أن ينظر فى أمرها بعد ذلك، فأما أن تدفع غرماً معيناً، وأما أن تقدم استقالتها، ولكن سارة، حتى عندما كانت فتاة فقيرة مبتدئة، لم تكن تفهم معنى الإعتذار، فذهبت إلى مدير المسرح وقالت له: أننى سأعفيك من إختيار العقوبة التى توقعها علىّ، فقد قررت أن أترك مسرحك، وأظنك ستطلب منى العقد الذى بينى وبينك، فدونك هو..» وأخرجته من حقيبتها ومزقته، وألقت بقصاصاته فى وجهه.. ثم تركته فى دهشته وذهوله، وولت خارجة!

***

وعادت سارة إلى حيث بدأت، فتاة فقيرة تحيا على حساب أمها، شرسة لا يقبل أي مسرح استخدامها، ولكنها قد بلغت التاسعة عشرة، وبدا فيها نضج الأنوثة والفتنة، ثم هى تعيش فى بيت تحرر من الأخلاق والتقاليد، فلماذا لا تسير سيرة أمها، ولماذا لا يكون حظها من الحياة كحظ أمها؟ ووجدت من أمها رضى وتحبيذا، فكانت تدفع لها عن سخاء ما تنفقه على زينتها وملابسها، وكانت تهش لها كلما ظفرت بصيد جديد سمين!..

وهكذا بدأت سيرتها الغرامية فأعرضت عن حياة المسارح، وأقبلت على حياة الرجال، وكأنما كانت تقول لنفسها: لقد أخفقت سارة «الممثلة» ولكن ستنجح سارة «المرأة».. وأقبل عليها الرجال ففتحت لهم صدرها، ولكنها كانت تستقبلهم فى غير فرح وبهجة، ثم تودعهم فى غير أسف وندم، فقد تبينتهم رجالاً بلا عاطفة ولا إحساس، فلم يعنها من أمرهم إلا ليال لاهية تمضيها، وهدايا سخية تتلقاها.

وفى ذات يوم أنبأت أمها أنها حامل، فما كان من الأم التى حملت ثلاث مرات سفاحاً إلا أن استشاطت غضباً، وطردت ابنتها من بيتها!! واتخذت سارة لنفسها مسكنا مستقلا، استقبلت فيه أسعد حادث فى حياتها، وهو مولد ابنها «موريس».

ابن من «موريس» هذا؟ أهو ابن واحد من هؤلاء العشاق الذين كانت تبذل لهم نفسها بلا تحفظ أو اهتمام؟ لا، إنه سليل أمير من أعرق الأسر المالكة فى أوربا، ارتبط بسارة بصلة أقرب إلى الزواج منها إلى الهوى..

***

أقام الإمبراطور نابليون الثالث حفلة فى قصر «التويلرى» تحية لأمير أجنبى كان يزور فرنسا، وكانت سارة برنار - قبل أن تترك الكوميدى فرانسيز - إحدى الممثلات اللاتى دعين لاحياء هذه الحفلة، وكان عليها أن تلقى قصيدة من الشعر، فإن صوتها المتهدج الرنان، وأداءها الفنى المتدفق، كان يكسبان الشعر من المعانى أكثر مما فيه..

وظهرت سارة على المسرح، وانحنت أمام الإمبراطور والإمبراطورة، ثم بدأت تلقى القصيدة فإذا بها قصيدة «الأشعة والظلال» لفيكتور هوجو، وهى تبدأ هكذا.

«كم من بحارة وكم من جنود.

«قد أبعدوهم، فرحين، إلى أقصى الأرجاء.

«ثم اختفوا في الآفاق المجدية الرهيبة».

واهتز نابليون الثالث فى مقعده غاضباً، وأدرك الضيوف ما جاش به صدر الإمبراطور، وأخذ بعضهم ينظر إلى البعض، مندهشين متحيرين، فقد كان فيكتور هوجو خصماً لدوداً للإمبراطور، وكتب عنه رسالة لاذعة مريرة، اسمها «نابليون الصغير». ومنذ تولى نابليون العرش فى سنة ١٨٥٢ ترك هوجو أرض فرنسا، واعتصم بالمنفى، حيث أقام ثمانية عشر عاماً، ولم يعد إلى وطنه إلا بعد أن نزل نابليون عن العرش، وأعلنت الجمهورية الفرنسية فى سنة ١٨٧٠، فالقاء إحدى قصائده فى قصر التويلرى، أمام الإمبراطور وضيوفه، كان جرماً، يبلغ حد العيب والإهانة!

فلما انتهت سارة من القاء القصيدة لم يصفق الإمبراطور، وكذلك لم يصفق أحد من الضيوف، فظنت سارة - وهى عندئذ دون العشرين من عمرها، ولا تكاد تعرف شيئاً من أمور السياسة - أن هذا لأنها اختارت قصيدة حزينة، فأرادت أن تختم الحفل بقصيدة مرحة بهيجة.. وبدأ صوتها العذب الرنان ينشد:

«عندما بدأ الطفل الجميل...»

مطلع قصيدة «أوراق الخريف» لفيكتور هوجو أيضاً، وعندئذ اعتقد الإمبراطور أن هذه الفتاة، تريد عن قصد منها، أو عن إيعاذ إليها، أن تعرض به أمام ضيفه وحاشيته، فهب واقفاً وأخذ الإمبراطورة فى ذراعه، وغادرا المسرح ومن ورائهما الضيوف، بينما وقفت سارة مشدوهة الذهن، معقودة اللسان تواجه مسرحاً خالياً!!

وأسرع مدير الفرقة إليها يسبها ويشتمها، فبادلته سارة السب، وهم بها يريد أن يؤذيها، فصاحت غاضبة متألمة، وعندئذ انطلق من أقصى القاعة صوت حازم يقول:

- دع الصبية يا هذا.

ونظرت سارة إلى الصائح، فإذا هو شاب وسيم وجيه، كان آخر من انصرف وراء الإمبراطور، وصاح به مدير الفرقة:

ـ ما شأنك وهذه؟.. ومن أنت؟

ـ أنا الأمير هنرى دى لين.. ولن أسمح بأن تهان امرأة أمامى.. ولا سيما إذا كانت فتاة جميلة وديعة، كهذه الفتاة.

وأوقف لقب «دى لين» مدير الفرقة عند حده، فهو لقب أسرة من أعرق أسر بلجيكا، وصحب الأمير سارة عند انصرافها حتى بيتها، والتقيا فى اليوم التالى وفى اليوم الذى تلاه، وفى كل يوم وكل ليلة، شهوراً تلو شهور، ونشأ بين القلبين الشابين حب خالص عنيف، كانت ثمرته هذا الطفل الجميل «موريس».

كانت سارة تحب «دى لين» حبا خالصاً جارفاً، وكان هو يبادلها مثل حبها وهواها، فقر رأيه على أن يتزوجها، وكان قراراً خطيراً، إذ كيف يتزوج أمير من امراء أسرة «دى لين» العريقة المجيدة، من فتاة ذات ماض حافل بالنقاط السوداء، وتعمل ممثلة مغمورة لا اسم لها ولا مال، وتنحدر من أسرة مجهولة بعضها يهودى وبعضها بغير دين؟ ولكنه يحبها وتحبه، فليمض ما يريد، على شرط أن تترك التمثيل، وكان شرطاً يسيرا، فهى لا تحب التمثيل، ولم تصب فيه نجاحاً ما.

وسافر الأمير إلى بلجيكا وفاتح أسرته فيما أراد.. ولو أن سرباً من الطائرات، قبل أن تخترع الطائرة بخمسين سنة، ألقى أثقال القنابل على بلجيكا فى تلك الليلة، لكان أهون على أسرة «دى لين» من هذا الأمر الذى اعتزمه ابنها الأمير هنرى!!

وخف ابن عمه «الجنرال دى لين» إلى باريس، وذهب إلى سارة برنارد، وقد حسب أنه سيلقى امرأة لعوباً هلوكاً، تفتن الرجال عن رشدهم وتغشى بصائرهم، فإذا به يلقى فتاة صغيرة غريرة، وادعة هزيلة، فتحدث إليها فى رفق وهدوء، وأبان لها ما وراء هذا الزواج من ضرر يصيب الشاب الذى تحبه، فسيفقد لقبه، ومنصبه، وميراثه..

ولم تشأ سارة ان يطول الصراع بين عاطفتها وضميرها، فهرعت الى مسرح «الاوديون» تطلب عملا بأى أجر واى شرط، وبذلك تتحلل من وعدها للامير «دى لين».. فلما عاد الى باريس وجدها قد عادت الى التمثيل، وأبت ان تبوح له بانها فعلت ذلك مؤثرة ان تضحى بقلبها وعاطفتها على ان يضحى هو باسرته ولقبه.. وتركته يتهمها كيف يشاء، ويقطع مابينه وبينها من الصلات، محتفظة له فى قلبها،

وفى ابنها موريس، بأخلص الحب وأجمل الذكريات!

وطوت سارة بهذا صفحة المرأة العاشقة، وفتحت من جديد صفحة الممثلة الموهوبة.

نحن الآن فى مسرح «الأوديون» ثانى مسارح فرنسا بعد «الكوميدى فرانسيز» والشعب الفرنسى لا يريد أن يسمع شيئاً إلا شعر فيكتور هوجو، ولا أن يرى شيئاً إلا مسرحيات فيكتور هوجو، الإمبراطور نابليون، عدو هوجو اللدود، مايزال على عرشه، ولكن الحزب الجمهورى قد خضد كثيراً من شوكته وأرغمه على أن يسمح بتمثيل قصص هوجو على مسارح باريس، فالكوميدى فرانسيز يقدم قصة «هيرتانى»، أما الأوديون فيقدم قصة لالكسندر دوماس والأديبان هما عبقريتا الأدب الفرنسى فى القرن التاسع عشر، إلا أن نفى هوجو أظهره فى مظهر الوطنى الشهيد، فمكانته لدى الشعب الفرنسى من مكانه دوماس.

ويرفع الستار فى مسرح الأوديون، ويبدأ الممثلون يؤدون قصة «دوماس» فتنطلق الأصوات المدوية من أرجاء المسرح: نريد هوجو.. نريد هوجو.

ويرفع الممثلون أصواتهم قدر ما يستطيعون، لعلها تغطى على هذه الضجة الصاخبة، ولكن الجمهور مايزال يهتف باسم هوجو.. ودوماس حاضر يتمشى جيئة وذهاباً، والعرق يتصبب من جبينه، والدهشة تتملك أعصابه ـ أنه يحب هوجو ويجله، ويتمنى عودته إلى فرنسا، ولكن الأمر ليس بيده، وهو يحب أن يسمع الناس تهتف باسم زميله هوجو، ولكنه يكره أن ينقلب هذا الهتاف إلى هتاف بسقوط دوماس البرئ!

وتشفق سارة برنارد على الأديب الكبير فى هذه الساعة الحرجة، فتقول له: هون عليك يا استاذى.. فسألقى عليهم درساً قاسياً.

ويسدل الستار، وتصعد سارة إلى المسرح، ويتعالى الهتاف بحياة هوجو وسقوط دوماس، فتبتسم، ثم تقول فى نبراتها القوية الواضحة:

«إنكم تريدون أن تدفعوا عن العدالة، هل لى أن أسألكم: أين عدالتكم أنتم، حين تلقون على الكسندر دوماس مسئولية نفى فيكتور هوجو؟»

ونفذت العبارة البسيطة، المنطقية، إلى أذهان الناس، فلم تلبث أن انطلقت أكفهم تصفق لسارة، واستقروا فى أماكنهم هادئين، ورفع الستار مرة أخرى عن قصة دوماس..

وأقبل دوماس يقبل سارة ويقول: «سأكتب لك يا بنيتى قصة خاصة.. فإنى مدين لك دينا لا أنساه».

***

ذكرى عظيمة من رجل عظيم

وانتهت الحرب بين فرنسا والمانيا سنة ١٨٧٠ وعادت فرنسا تضمد جراحها، وتقيم ما تهدم من بنائها، وحشد كل فرنسى وكل فرنسية قواه، كل فى ناحية، ليستعيد وطنه مجده الغابر، فآلت سارة برنارد على نفسها، أن تجعل المسرح الفرنسى سيد مسارح الدنيا، وأن تتبوأ هى عرش هذا المسرح الرفيع، وقد عاد إلى فرنسا بعد أن زال عرش نابليون الثالث وأعلنت الجمهورية - شاعرها العظيم فيكتور هوجو، فأشار عليه صحبه أن يعهد بتمثيل مسرحياته الي هذه الفنانة الموهوبة، التى «تنشد الشعر كما يغرد البلبل، أو كما تصفر الريح، أو كما يهدر الموج أو كما يكتب هوجو شعره!»

وكان نصراً لسارة أن تظفر بثقة شاعر فرنسا الكبير، وأعظم شخصية فى فرنسا فى تلك الأيام، ولكنه كان نصراً تستأهله، فبعد أن شهدها هوجو على المسرح تلقت منه فى اليوم التالى هذه الرسالة:

«سيدتى..

«كنت عظيمة وكنت فاتنة. لقد حركتنى أنا نفسى - أنا المجاهد القديم العجوز وفى إحدى اللحظات، عندما كان الشعب الذى أثرت كمين نفسه، يصفق لك تحية وإجلالاً. والدمعة التى اسلتيها من عينى هى دمعتك أنت. فاسمحى لى أن أقدمها لك..»

(فيكتور هوجو)

وكان مع الرسالة علبه فيها سلسلة من الذهب تعلقت بها قطعة من الماس على شكل دمعه، واحتفظت سارة بهذه الماسة حتى يوم مماتها، ذكرى عظيمة، من رجل عظيم، وبعد أربع وخمسين عاماً، عندما كانت تمثل وهى فى السابعة والسبعين، كانت تضع على صدرها هذه الماسة التى تمثل دمعة من دموع أحد الخالدين، سارة برنارد، وفيكتور هوجو..

* * *

سارة برنارد الآن فى قمة مجدها، لا تستقر فى فرنسا إلا ريثما تتأهب لرحلة تطوف فيها أرجاء أوربا وأنحاء أمريكا، تشهد الجماهير، وتجمع الأموال، وتتلقى الأوسمة والهدايا.. ولكن ما من امرأة بلغت مبلغ سارة من المجد والصيت إلا تعرضت فى حياتها للمحن والمآسى. وكأن القدر يريد أن يسلبها من الرضى والسعادة بقدر ما منحها من المجد والاسم..

وكانت مأساة سارة برنارد نزوة حب طائش مجنون.

كان يقيم فى باريس دون جوان يونانى، اسمه جاك دالاما، يعمل موظفاً فى المفوضة اليونانية، وكان شاباً فى الثالثة والثلاثين، جميلاً كأنه أبولو إله الإغريق، شرقى السمات، خمرى اللون، طويل الأهداب، أسود العينين، وكان من هذا الطراز الذى تنفذ نظراته وكلماته إلى أعماق المرأة أول ما يلقاها. حتى إذا صرعها بحرارته الدافقة، انصرف عنها فى أعراض وازدراء!.. كان دون جوان مثالياً، فطلق سيدتان من سيدات المجتمع الفرنسى إذ وقعتا فى هواه، وانتحرت سيدة ثالثة إذ هجرها وسلاها! فلما استفاضت أنباء مغامراته وغرامياته، طلبت الحكومة الفرنسية إلى حكومة اليونان، أن تبعده عن باريس، فنقلته إلى روسيا.

ولقيته سارة برنارد، ودار بينهما حديث قصير، سألته: ألا يحب أحداً؟ قال: لا!.. سألته: ألم تحب من قبل؟ قال: لا!.. ثم سألها: ألا تودين أن تحبى مرة فى حياتك.. لتعلمى ما إذا كان الحب ممتعاً أم مؤلماً؟

وأدرك «دالاما» بغريزته، أنه قد نفذ إلى قلب سيدة المسرح الفرنسى، بل سيدة فرنسا الأولى، فقال:

- كنت أود أن أبقى فى باريس، ولكنى ذاهب إلى سبورج وانت تطوفين أرجاء الدنيا، فلماذا لا تأتين إلى هناك؟

أنه أول رجل يقول لها «تعالى إلى».. أما جميع الرجال فقد جاءوا هم إليها، إنه طراز جديد من الرجال لم تلق مثله من قبل، وأنه الطراز الذى يصرع قلب المرأة أحياناً!

وما هى إلا أسابيع حتى كانت سارة برنارد تشد رحالها إلى روسيا فى أثر هذا الشاب اليونانى الفاتن.. وفى بطرسبورج يعتزل دالاما وظيفته فى السلك السياسى، ويعمل مع سارة ممثلاً وعاشقاً، ثم تعقد عليه زواجها.

لا شك فى أن سارة لم تتبين نقيضه «دالاما» الكبرى إلا بعد أن نفذ سهم الحب إلى قلبها، وعندئذ عرفت أنه مدمن مورفين لا يكاد يفيق إلا إذا سرى هذا السم فى دمه. وقد حاولت سارة أن تنقذه من هذا الوبال، فأبرزته فى مسرحها وهيأت له الأدوار الكبرى، رغم اعتراض مؤلفيها أحياناً وسخرية ممثليها أحياناً، لم يجد هذا نفعاً، فقد بلغ منه الداء لا شفاء معه، إذ كان يحقن نفسه بنفسه سبع مرات فى اليوم، وكان يهب من نومه فى غسق الليل، ويدخل مخدع زوجته يهينها ويهددها حيناً، ويتوسل إليها ويبكى عند قدميها حيناً.. ومرت بسارة ليال رهيبة مخيفة، فلم تر بداً من أن تقبر حبها وقلبها، وتفصل ما بينها وبين زوجها العشيق!

وبعد سبع سنوات خر دالاما مريضاً، فقيراً، وحيداً، شأنه شأن هذا الطراز من الرجال الذى يعيش على قلوب النساء، ولم يجد حوله واحدة من هؤلاء اللاتى ترامين عند قدميه أيام فتوته وشبابه.. فأرسل إلى سارة برنارد، فأقبلت تراه وآلمها أن يقضى حياته هكذا.. فذهبت به إلى مصحة يستشفى، وأخذت تزوره كل يوم، حتى إذا استعاد صحته قليلاً، لم تبال كلام الناس شيئاً، فأظهرته أمامها فى إحدى مسرحياتها.

وظلت تتعهده وترعاه بعطفها ومالها، حتى قضى نحبه صريع هذا المخدر السام!!

وفى ذات يوم من أيام سنة ١٨٨٧ جاء يزورها فى المسرح زائر غريب، واستقبلته فعرفته، إنه الأمير هنرى دى لين! الذى لم تشهده منذ عشرين سنة، والذى بلغ الآن

خمسين سنة أرسلت فى شعره خيوطاً بيضاء ورسمت على وجهه تجاعيد حزينة..

جاء يقول لها: أنها كانت على حق حين آثرت التمثيل على الزواج، فما كان فى وسعه أن يهيئ لها فى بيته من المجد ما حققته على المسرح!

وأرادت أن تذكر له الحقيقة، ولكن كبرياءها منعها من أن تمن عليه بتضحيتها، ولما رأى فى اليوم التالى ابنهما موريس، صارحه بحقيقة صلته به، وعرض عليه أن يتبناه، ويورثه لقبه وماله، فأبى الابن قائلاً: أن أمى وحدها لها الفضل علىّ، سهرت على فى أيام فقرها، وأسعدتنى فى أيام مجدها، فلن انتسب إلا إليها.

ولما أراد الأمير أن يعود إلى بلجيكا ذهب موريس يودعه، وكانت المحطة مزدحمة بالناس فطلب إلى بعض موظفيها أن يهيئوا له مكانا يستريح فيه، فسألوه من أنت، فقال: أنا الأمير هنرى دى لين، فقالوا: عليك أن تنتظر هنا كما ينتظر سائر الناس! فقال لهم موريس: أرجوكم أن تهيئوا لنا محلاً، فأنا ابن سارة برنارد!..

وعندئذ قاموا جميعاً يفسحون له الطريق ويهيئون له المكان!

فقال الأمير: الآن عرفت أنك على حق فى أن تفخر باسم أمك لا باسم أبيك!





الإمبـراطـورة اللعــوب!!



لقد أصاب روشفوكول فى قوله: «كل شئ ممكن فى فرنسا»!!

والحقيقة أنك لن تجد بلدا حدث فيه من المتناقضات كالذى حدث فى فرنسا: الملكية والإمبراطورية والجمهورية، وهى تتخبط بين هوان مذل أو ثورة دامية، سواء أكانت فى حكم الفالوى أو البوربون أو بونابرت. من فرساى ولويس الرابع عشر إلى ماليزون وكامبينى فى الإمبراطورية الأولى والثانية، الأفكار ذاتها والآراء ذاتها والأخلاق هى تحت أردية مختلفة!

بلغت أسرة البوربون سنة ١٦٨٥ قمة مجدها. وكانت فرنسا تئن تحت نير الاستبداد. مائة وخمسون ألف ثرى ينعمون بثروة البلاد بين المرح واللهو، وخمسة وعشرون مليوناً يكدون لإشباع جوعهم، يطلب الشعب القوت فلا يجده ويجيبهم الأشراف: «كلوا عشباً!» والملك يقول: «الدولة أنا»!!

جاء ميرابو فقال: «أن المملكة على أسوأ حال ولا يصلحها سوى هزة عنيفة» ولكن الفرنسيين لا يقفون عند حد. جاءت الهزة العنيفة فأطاحت بالعرش وعملت المقصلة عملها الفظيع فى ساحة الكونكورد!

كانت الإمبراطورية، وكان المجد مطمح أنظار الجميع: ريفولى، استرلتز، وترلو.

ثم جاءت الإمبراطورية الأولى بمجدها وانتصاراتها وتاجها وصولجانها، ثم اختفت وكأنها حلم. عاد أل البوربون إلى منازلهم وهبت العاصفة فانكشفت عن الجمهورية فى مجد جديد وانتصارات جديدة. ثم انقلبت الجمهورية إلى الإمبراطورية ثانية، فاتجهت الأنظار إلى مجد سلمى. تولاها نابليون الثالث وعمل على افتتاح عصر جديد وبناء إمبراطورية قوامها السلام.

رأى الباريسيون فى ما ازدانت به شوارع مدينتهم من معالم الزينة ومظاهر السرور ما شرح صدورهم. رأوا إمبراطورهم وإلى جانبه فتاة حسناء، فتساءل الناس من تكون هذه التى تجلس جلسة جلال، وتركب ركوب الفارس فى غير خوف ولا وجل؟!

تلك أوجينى دى مونتيو كونتة «تيبا». ولدت فى أسبانيا سنة ١٨٢٦ فى إقليم غرناطة. كان والدها من كبار أعيان أسبانيا ورثت عنه كرم المحتد ونبالة الطبع. هناك عرفها الكاتب الأمريكى الشهير واشنطن أرفنج وكتب عنها الفصول الطوال منذ كانت فتاة إلى أن بهرت العالم بزخرفها وأبهتها حين أصبحت إمبراطورية فرنسا.

تلقت أوجينى علومها فى تولون ثم فى بريستول، وتخرجت تجيد الحديث بالأسبانية والإنجليزية والفرنسية. بارعة الجمال، شديدة الذكاء، سريعة الخاطر، فلا غرابة أن أصبحت زهرة الربيع فى لندن وباريس ومدريد.

* * *

سيدة القصر!!

فى أحد أيام شهر نوفمبر من عام ١٨٥٢، دعيت العائلة إلى حفل مدينة فوتينبلو يحضره الإمبراطور نابليون الثالث ورجال الدولة ووجهاؤها.

وفوجئ الحاضرون بفارسه رائعة الجمال تتهادى فوق جوادها الرشيق بمهارة استولت على أنظار الحضور واستحوذت على اعجابهم. ومن مقصورته الذهبية همس الإمبراطور إلى مستشاريه بأن يأتوه بمعلومات ضافية عن هذه الفارسة الحسناء.

ولاحظت الحاشية أن اهتمام نابليون بهذه الفارسة الفاتنة أخذ يزداد يوماً بعد يوم.. وتحول التفكير فيها إلى تعارف بينهما.. ثم إلى لقاءات سامرة وحفلات ساهمة.. ثم اشتعلت جذوة الحب فى قلبيهما، فتم زواجهما التاريخى فى شهر يناير من عام ١٨٥٣..!! فى حفل أسطورى رائع لم تشهد فرنسا مثيلاً له من قبل..

وأصبحت أوجينى إمبراطورية تتربع على عرش فرنسا وتقيم فى قصر الحكم وهو «قصر التويلرى» الشهير!

وها هى ذى سيدة القصر الجديدة تحيط نفسها بمظاهر الأرستقراطية المترفة التى عرف بها البلاط الفرنسى، وتحولت مراسم الفنانين العظام إلى خلايا دائبة النشاط والتفاعل والإنفعال تستلهم سحر الفتنة فى شخصية الإمبراطورة الحسناء..

.... وأفاق الشعب الفرنسى من هذه المفاجأة المبهرة المتعجلة..

وتضاربت المشاعر نحو الإمبراطورة فالبعض يحبذ هذا الزواج لأن الإمبراطور قد تزوج إمرأة أحبها.. وهذا يكفى. أما البعض الآخر - وهم العقلانيون وفلاسفة السياسة - يرى أن الواجب كان يفرض على الإمبراطور أن يختار زواجاً سياسياً يقوى به مركز فرنسا بين جيرانها.

وتنبهت أوجينى إلى ضعف مكانتها بين بيوت الحكم العريقة فى أوربا.. وكان عليها أن تتصرف.. وهى لا تملك إلا أسلحتها الأنثوية وشراكها الناعمة.

* * *

ومهما اختلفت الآراء حول بطلتنا الحسناء، فقد تربعت على عرش الإمبراطورية

إلى جانب نابليون الثالث.. وأثبتت الأيام أنها جديرة بأن تحيل المعارضين والحاسدين إلى مسحورين بجمالها يهتفون بجاذبيتها وشخصيتها الفذة الرائعة..

ونظرت الفاتنة أوجينى حولها.. فأحست بالأعاصير والغيوم تملأ أفق الحياة السياسية وتكاد أن تعم أوربا كلها.. فأعدت نفسها لمجابهة كل ما توقعته من متاعب وعقبات.. وكما نعلم فقد كان العداء مستحكماً بين فرنسا وإنجلترا، فأقدمت أوجينى على خطوة جريئة وجعلت نابليون يمحو كل أثر لهذا العداء التقليدى القديم، بل ويذهب إلى أبعد من ذلك فيقيم تحالفاً بين الدولتين..!! وبذلك تغيرت موازين القوى فى أوربا كلها.. ولكى توطد عرى الصداقة بينهما، قامت عام ١٨٥٥ بزيارة انجلترا مع الإمبراطور، ضيوفاً على الملكة فيكتوريا التى بالغت وزوجها «ألبرت» فى الاحتفاء بهما.. وأقاما لهما احتفالات أسطورية تحدث عنها العالم أجمع آنذاك.. ولم تمض مدة وجيزة، حتى ردت فيكتوريا لهما الزيارة فى باريس.. لتزداد الصداقة رسوخاً عند الشعبين الإنجليزى والفرنسى.. وبالفعل، كان العالم وقتها لا حديث له إلا عن أعداء الأمس الألداء وكيف أصبحوا اليوم أوفى الأصدقاء!! ويشاء القدر أن تكون هذه الصداقة المتينة بين الإمبراطورة أوجينى والملكة فيكتوريا بمثابة حصن الأمان لأوجينى عندما دارت الدائرة عليها كما سنرى بعد قليل..!!

نعود إلى فاتنة النصر الفرنسى.. فنرى أنها قد ثبتت قدميها راسخة على عرش الإمبراطورية فى يوم ١٦ مارس ١٨٥٦، إذ وضعت ابنا أطلق عليه لقب «الأمير الإمبراطورى»، كما لقب كذلك «ابن فرنسا». وبالرغم من الشعبية التى حظيت بها فى المجتمع الفرنسى، إلا أن جمالها وهيمنتها قد جعلاها موضع حسد، فصارت نهباً للطامعين فى الحكم والحاقدين على القصر والمتربصين بالأسرة الحاكمة!

وأتت هذه الحقاد ثمارها المسمومة.. فقامت فى البلاد حركات مناهضة للإمبراطورة الحسناء وزوجها المفتون بجمالها..

***

السطوة.. والنفوذ!!

وحدث أن كانا يستقلان عربتهما الإمبراطورية فى طريقهما إلى دار الأوبرا فى ليلة من ليالى شهر يناير من عام ١٨٥٨، ففوجئا بهجوم عليها بالمفرقعات الحارقة.. إذ ألقيت على عربتهما ثلاث قنابل بقصد اغتيالهما، ولكنها انفجرت تحت عجلات المركبة وذهبت بأرواح عدد من الحراس وأفراد الحاشية.. وقد وقف الإمبراطور فى البرلمان فى اليوم التالى يقول: «أشكر الله الذى منح الإمبراطورة ومنحنى حمايته ورعايته، وإن كنت فى حزن شديد لأن المؤامرة التى قصد بها اغتيال اثنين، انتهت بازهاق أرواح كثيرة من الأبرياء!!

أن هذه الوسائل الوضيعة تدل على ضعف وحقارة مدبريها، ولو راجعوا التاريخ لوجدوا أن الجريمة لا تفيد مرتكبيها، فلا من قتلوا قيصر، ولا من ذبحوا هنرى الرابع أفادوا شيئاً.. أن الله يميت العادلين والصالحين.. ولكنه لا ينصر الأشرار والظالمين.. لذلك أرى فى هذه الاعتداءات شيئاً خفياً يزعج حاضرنا ومستقبلنا.. أن سلامتى هى سلامة الشعب والإمبراطورية.. فلنواجه المستقبل بالثقة والاتحاد لما فيه مصلحة الوطن وهيبة فرنسا بين شعوب أوربا والعالم المتحضر».

.... ومرت الأيام، وقد صهرت التجارب والأزمات وجدان الفاتنة الرقيقة الصامدة.. ولكنها قوت من جلدها وعزيمتها، وفتحت عينيها على خفايا القصور وخبايا مراكز القوى المتصارعة من وراء الستار! فزادت أوجينى من سطوتها ونفوذها.. واستأثرت بالأمر والنهى فى كل ما يتعلق بشئون البلاد.. وبالتالى، ضعف شأن الإمبراطور.. وكان من الواضح أنه أسلم لزوجته القياد والقيادة وصار ينفذ ما تمليه عليه مسلوب الإرادة!!

وتألقت الفاتنة.. وأعادت إلى الأذهان شهرة مدام دى بومبادور فى عهد لويس الخامس عشر، ومارى انطوانيت فى عهد لويس السادس عشر، وجوزفين فى عهد نابليون بونابرت.. وها هى ذى تفوق الجميع سلطة وسلطانا.. وأصبحت مصدر الإلهام العبقرى لكل المبتكرات والمستحدثات الباريسية فى عالم الجمال والأناقة!!

... وأعادت اللعبة القديمة: الترف والبذخ والسفه والاستمتاع بمباهج الحياة حتى سكرت وفاض الكأس..

***

ولندع الأمواج الهادرة فى بحار السياسة واشتعال الحروب.. لنعيش أياماً هادئة هانئة وادعة هائمة ولنسهر مع الساهرين والسامرين على شاطئ قناة السويس.. وعلى ضفاف النيل الخالد!

قناة السويس.. إسماعيل باشا خديوى مصر، قصور البذاخة المترفة.. حفلات القنال الأسطورية.. الإغراق فى الهيام بالتظاهر والتحضر والتجمل.. والغرق فى الديون وإرهاق الشعب المصرى الصابر الكادح الصامد الذى يعيش فى ظلمات القاع.. ولا يدرى ماذا يدور فى ليالى التأنق والتبرج والسهرات السكرى والمتع الحمراء العابثة!

هكذا كانت الاحتفالات.. احتفاء بافتتاح قناة السويس فى ١٦ نوفمبر فى عام ١٨٦٩، عندما دعى نابليون الثالث وزوجته الفاتنة الإمبراطورة أوجينى إلى هذه الاحتفالات التى تحدثت عنها كتب التاريخ، ووصفتها بأنها فاقت فى بذخها ليالى ألف ليلة وليلة الشهيرة.. ولبت الإمبراطورة دعوة الخديوى.. وتخلف الإمبراطور فلم يحضر الاحتفال لانشغاله بالأزمات والتقلبات والزلازل السياسية المروعة..

وقبل أن نوالى مسيرتنا فى ركب حسناء باريس ومضيفها الخديوى الذى كان يحكم مصر ويحلم بأن تكون عاصمتها قطعة من باريس، أقول أن حفر قناة السويس ما هو إلا قصة طويلة ذات شئون وشجون وعثرات وطفرات.. أما كيف حصل «دى ليسبس» على امتياز شق القناة بين البحرين الأبيض والأحمر، فذلك يرجع إلى العلاقة الخاصة بين مصر وفرنسا، والصداقة الخاصة جداً بين سعيد باشا والمسيو دى ليسبس.. وليس هذا مجالاً لسرد الوقائع والتفاصيل.. ولكن أريد بذلك أن أصل إلى أن أوجينى عندما تعد العدة لحضور افتتاح القناة، فإنما تأتى إلى أرض لها فيها أوثق الروابط وأرسخ الوشائج، فكأنها تحضر لتبارك أحد الانجازات الفرنسية على أرض صديقة.. وها هو ذا إسماعيل باشا يجنى ثمار العلاقات الخاصة لوالده سعيد باشا.. وفى غمرة التعاطف والعلاقات الحميمة والانبهار الهائم بالجمال الذى يحرك الوجدان ويطلق الغرائز.. بالغ إسماعيل فى الكرم والحفاوة التى جاوزت كل الحدود حتى فاقت الخيال!!

وكأن حسناء فرنسا قد بدأت بنصب شباكها حول صيدها قبل أن تلقاه.. أنها

فاتنة فرنسا.. بل وأوربا كلها.. وستكون رئيسة للحفل المرتقب.. نجمة القمة بين جميع الملوك والأمراء والنبلاء والفنانين والمفكرين وأقطاب الأرستقراطية والرومانسية.. ولشئ فى نفسها.. عزمت على أن تجعل من الحفل مهرجاناً للعواطف الدافئة.

من أجل ذلك، نراها وقد أتت قبل موعد الاحتفال بثلاثة أسابيع.. وحدها بدون زوجها الذى أرهقته وأنهكت قواه وإحاطته بكل ألوان العقد والمشاغل والمشاكل والهموم..

فكان موعد الاحتفال - كما ذكرنا - يوم ١٦ نوفمبر ١٨٦٩.. ولكنها حضرت لزيارة خاصة جداً فى الأسبوع الثالث من شهر أكتوبر.. فالوقت كاف لأن يحلق العصفور كما يهوى فى أجواء الشاعرية بين الأستار الوردية فى قاعات المرمر بقصر الجزيرة الفخم الذى خصصه لها إسماعيل، وكل يغنى على ليلاه ويهدف إلى غاياته ومرماه! لنرقب تتمه الحديث - على استحياء - وكيف ينصهر الوجدان وتشتعل العواطف بين حرارة الترحيب واللقاءات الساخنة على أرض مصر السمحة الطيبة!

إنها أوجينى «غادة باريس» وفاتنة أوربا كلها.. أتت إلى مصر وهى فى قمة جمالها وجاذبيتها وسلطانها.. كانت فى الثالثة والأربعين.. ولكنها تبدو فتاة حسناء فى ذروة شبابها وأناقتها وكأنها لم تبلغ الثلاثين من عمرها! أتت فى هذه الزيارة الخاصة قبل موعد مهرجان القناة، وقبل أن يتوالى حضور الضيوف الكبار وينشغل عنها إسماعيل المحب الولهان الباحث عن اللهو والمتعة، الحالم دائماً بأجواء الرومانسية والأرستقراطية الفرنسية.. أن إرضاء الإمبراطورية يعنى رضاها عنه.. وهذا الرضا الإمبراطورى من غادة فرنسا يعنى بالنسبة لحاكم مصر الشئ الكثير، وهو الذى عرف فى التاريخ بأنه أراد أن يجعل مصر قطعة من فرنسا، وأن يجعل من القاهرة جزءاً من باريس..!

وهكذا التقت الرغبات والنزوات: هى الباحثة عن دائرة الضوء والتألق.. ليشع بريق اللآلئ من تاج الإمبراطورية فوق جبينها.. وهو المطبوع على حب التظاهر والبذخ والتأنق والتجمل والمغامرات العابثة، وقد وجد كل منهما فى الآخر مجالاً مناسباً لطموحاته وأهدافه ونزواته..!

***

ليالى ألف ليلة!!

بين أسباب الترف والبذخ وأجواء الشاعرية. عاشت أوجينى برفقة الخديوى المتيم أياماً وليالى أسطورية لا تنسى ولا تمحى من ذاكرة التاريخ.. فكانت رغبات الإمبراطورة بمثابة أوامر يسهر حاكم مصر والشعب كله فى العمل على تحقيقها دون ابطاء.

وشهد الشعب المصرى كيف استعاد الخديوى سهرات ألف ليلة من جديد عام ١٨٦٩ على ضفاف النيل وهضبة الأهرام وقصر الجزيرة المترف الحالم.. كما أن أبا الهول الصامت الصامد القابع فى شموخ منذ آلاف السنين، قد ارتسمت على شفتيه ابتسامة صخرية ساخرة.

واستبد بها الشوق لاحياء أمجاد كليوباترة.. فأشارت على إسماعيل أن يقضيا بعضا من لياليهما الشاعرية بين الآثار الفرعونية فى الأقصر.. وحرصت الإمبراطورة فى هذه المرة على أن يصحبها رسامو البلاط الفرنسى، ليسجلوا لها اللوحات المتحفية وهى بين أمجاد الفراعنة.. وأقام لها رفيقها الولهان مجلساً من المخمل والحرير والأرائك الذهبية وسط معبد الأقصر.. وكم حلمت بأطياف حتشبسوت ونفرتيتى وكليوباترة.. وهى ترنو نشوانه إلى آثار التاريخ السحيق.. سكرى برحيق التدليل والكرم الملكى المثير!!

عادت الإمبراطورة من رحلة الجنوب وقد أصبح إسماعيل من أقرب الأقربين إليها، وبذلك تحقق حلمه الكبير.. لقد حان يوم المهرجان، فرحل الخديوى إلى الإسكندرية، واستقل يخته الملكى «المحروسة» إلى مدينة بور سعيد ليكون فى استقبال الملوك والأمراء والقادة والنبلاء.. ضيوف الحفل المنتظر، وتوالى قدوم الوفود رفيعة المستوى من أنحاء العالم.. وكانت عينا اسماعيل تتركز على سفينة مقبلة تتهادى لترسو على الشاطئ فى أبهة وخيلاء.. أنها اليخت الإمبراطورى الفخم «إيجل» يقل رئيسة الاحتفال.. فاتنة المهرجان.. الإمبراطورة أوجينى، يحف بها حرس الشرف والحاشية والوصيفات فى أبهى حلل وأجمل مظهر وأكمل زينة!

وشهد شاطئ القناة حفلاً أسطورياً لم يشهد التاريخ ـ آنذاك ـ مثيلاً له.. ولا

يتسع مجالنا على هذه الصفحات لسرد وقائعه التى فاقت كل ما يتخيله الحالمون والشعراء والرومانسيون!

ولم يسع أوجينى إلا أن هتفت بين الجموع: «بالله!. لم أر فى حياتى أجمل ولا أروع من هذا الحفل الشرقى العظيم!».

***

وتزلزل القصر الفرنسى!!

انتهى الحفل الذى بهر أنظار الضيوف وأعاد إلى مخيلتهم أجواء البذخ فى قصور ألف ليلة وحُسن شهر زاد وسفه شهريار.. ولكن أوجينى أبحرت فى القناة جنوباً إلى مدينة الاسماعيلية، حيث القصر الذى خصصه اسماعيل ليقضى فيه بقية الزيارة الخاصة جداً.. تلك التى بدأتها قبل الاحتفال بثلاثة أسابيع!

وبذلك أسدل الستار على ليالى الدفء والجمال فى الإسماعيلية.. وعادت الإمبراطورة بعد أن فاضت كئوسها بخمر السحر الشرقى الذى اغترفت منه بغير حساب! عادت إلى معمعة الأحداث والمؤامرات والثورات الأوربية المستعرة.. فلم يمر عام، حتى كانت الحرب السبعينية بين بروسيا وفرنسا قد أغرقت زوجها الإمبراطور نابليون الثالث فى بحر من الصراعات الدامية والهزائم المتوالية، وكانت أصابع الإتهام من جموع الشعب الفرنسى تشير إلى الإمبراطورة العابثة المتسلطة وتدمغها بأنها أصل البلاء!. وقبعت ساهمة مكتئبة فى قصر التويلرى، حيث تفجع بين ساعة وأخرى بأنباء الهزائم المتلاحقة.. لقد انقلبت الموازين الأوربية.. وتزلزل القصر الفرنسى من روع الفواجع فى الخارج ومن غضبة الشعب الثائر الهادر من حولها.. واكتظت ساحات القصر بالآلاف من جماعات الشعب المتحفز للانقضاض والانتقام. وفكرت أوجينى فى أن تنزل إليهم لاسترضائهم وتطلب إليهم الثبات والصمود، فأمرت بإحضار جوادها.. وهمت بارتداء ملابس الفروسية التى اعتادت على ارتدائها خارج القصر.. وكانت المفاجأة الكبرى: لقد انتهز الخدم والعاملون فى القصر فرصة الهرج والمرج الذى ساد باريس وأطبق على القصر، وفروا هاربين وقد سرقوا كل ملابسها، ونهبوا كل المحتويات التى كانت فى متناول أيديهم!! ونظرت حولها مذهولة من هول ما يحدث.. وتهاوت كسيرة القلب مسلوبة العزيمة مشلولة التفكير..

وأفاقت من ذهولها.. وتمالكت.. وعزمت على أن تخرج إلى قاعة الاستقبال الكبرى وقد اكتظت بالمستشارين وبعض السفراء والمخلصين..

وما أن رآها «السنيور نيجر» سفير إيطاليا فى باريس، حتى أسرع إليها يستحثها على أن تتعجل وتخرج فوراً من أبواب القصر الخلفية.. حيث أعدوا لها مركبة خاصة لتوصيلها إلى الشاطئ حيث تستقل اليخت الذى ينتظرها لتهرب به إلى انجلترا.

وذهبت أوجينى إلى لندن.. فى حماية صديقتها فيكتوريا ملكة انجلترا، التى أكرمت وفادتها وأنزلتها فى أحد القصور الملكية، حيث لحق بها زوجها وابنها لويس نابليون بعد ذلك.. وتوالت عليها الكوارث، فقد لقى لويس حتفه بعد سنوات كئيبة وهو فى ريعان الشباب!! فقبعت فى منفاها تجتر آلامها دون أن تتدخل فى أمور السياسة من قريب أو بعيد!

... ومرت السنوات ثقيلة متباطئة تطبع بصماتها على الحياة.. وتشعل الرؤوس شيباً.. إلى أن أتى عام ١٩٠٥، فتحن الإمبراطورة العجوز إلى أرض الذكريات.. إلى أمجاد السويس.. إلى ليالى ألف ليلة وقصور الترف والبذخ والرفاهية.. وتأتى إلى مصر متنكرة.. وتنزل لعدة أيام فى فندق «سافورى» فى بور سعيد.. وما أن علم شعراء مصر بهذا الحديث الدرامى المثير.. حتى تباروا فى التعبير اللاذع عن مفارقات الأمس واليوم.

... وفى عام ١٩٢٠ كانت قد بلغت الرابعة والتسعين من عمرها.. ففكرت أن تنهى حياتها بزيارة أسبانيا مسقط رأسها، وكانت تربطها بملكتها أواصر صداقة قديمة فذهبت إليها.. وما أن وصلت إلى مدريد حتى اشتد عليها المرض وثقلت على كاهلها وطأة الضعف والشيخوخة. فقضت نحبها فى ١١ يوليو من نفس العام.. وهكذا رحلت إحدى فاتنات التاريخ!

... وفى المتاحف العالمية الكبرى، عندما تطالعنا صورها الرائعة التى أبدعتها العبقريات الفنية الملهمة.. لنتمثل فى خاطرنا.. غادة باريس التى تربعت على عرش الإمبراطورية الفرنسية وعلى قلوب الأباطرة والملوك فى عصرها.. وكم حدثنا التاريخ عن ملهماته الحسان عبر أحداثه الجسام..!!

***

هــذا الكتــاب

الكتـاب الذى بين أيدينا والذى اختـار له مـؤلفه اسم «فـاتنات الدنيـا وأفـاعى الزمـان» يتناول نسـاء شـهيـرات لعبن أدوارا حاسـمـة فى تاريخ بلادهن، بـل فى تاريخ العالم كله، وجرت أقلام الأدباء والمؤرخين بسيرتهم فى مؤلفات كثيرة، أولها فى بداية التاريخ وآخرها فى هذا الزمن الأخير.

ومـؤلف هذا الكتـاب هو الكاتب الصـحـفى أحـمد الشنوانى الذى بحث بصـبـر وذكاء ودقة عن خفايا حياة كل من هؤلاء النساء ليستخلص منها أسرار حياتها فى التاريخ أو أسرار التاريخ فى حياتها، ولم يترك واحدة منهن إلا بعد أن استصفى كل ما عندها من أسرار الحياة وأسرار التاريخ، وأخرجه للناس فى هذا المؤلف الذى يجمع بين العلم والقصة، ويأخذ من التاريخ كما يأخذ من الخيال؛ جادا ومسليا فى الوقت نفسه.

وهؤلاء الفاتنات الشهيرات المتربعات على صفحات هذا الكتاب دون سواهن من الشهيرات اللاتى عرفهن التـاريخ قديما وحديثا، إنما اختارهن الكاتب عندما وجد فيهن التاريخ ممثلا بأقوى لمحاته وأضوأ توهجاته وأقوى ضرباته وصيحاته!!.. ففى حياتهن ملامح التاريخ كلها، بجمالها وقبحها، وبإنسانيتها ووحشيتها، وبأحلامها الجميلة وفواجعها الرهيبة.

وهذا ما يجعل صور هؤلاء النساء الشهيرات باعثة على الخوف فيمن يطالعها؛ فيراهن أشبه بالأفاعى القاتلة، ومن هنا جاءت تسمية الكتاب الذى يرى فيه القارئ ملامح وجوهن الجميلة فى صفحات التاريخ فإذا فتنة الدنيا الطاغية الظاهرة من تلك الوجوه الجميلة تخفى بداخلها سموم الأفاعى الناقعات!!

ومن هذه الرؤية التاريخية الأدبية والفنية جاء هذا الكتاب.

فاتنات وأفاع

بروح الأديب الصـحـفى، والقـاص البـارع، وبفكر الدارس الدءوب، والبـاحث المجتهد، يقدم لنا الزميل الأستاذ أحمد الشنوانى كتابه الجديد «فاتنات الدنيا وأفاعى الزمان» ملخصا فى أسلوب قصصى تاريخى حياة ست عشرة أمرأة، جاء اختياره لهن غـاية فى التـوفـيق، إذ أن كل واحدة منهن كـان لهـا دورها الفـاعل والمؤثر فى تاريخ بلادها بل إن حيـاتهن جميعا هى التى شكلت بالفعل ملامح العصور التاريخية التى عشن فيها، بكل ما تتميز به من أحلام وفواجع، وإنسانية ووحشية، ورومانسية ودراما.

ولم يشأ المؤلف أن يقف عند حدود فترة زمنية واحدة أو فترات متقاربة، ولكنه بين قديم التاريخ وأوسطه وحديثه، جال بفكره، وأعمل عقله وقلمه ليؤكد على مضمون عنوان الكتاب وهو أن المرأة هى المرأة - فى أى زمان ومكان - تملك القدرة وتعرف كيف توظف جمالها وأنوثتها وذكاءها فى أن تثير من حولها وتجذب انتباه الآخرين إليها، وتتخذ من هذا طريقا للسيطرة والتفوق بل والزعامة حسب أحلامها وأهدافها وغاياتها.

استهل المؤلف كتابه بقصة «هيلين» فاتنة طروادة ابنة ملك اسبرطة، والتى كانت مثالا أعلى للجمال فى صورة إنسان، حتى أن اليونانيين زعموا - فى خرافاتهم - أن أمها حملت فيها من كبير آلهتهم «زوسر» لقد عشقها كل أمراء بلاد الاغريق، وحلم بها كل واحد منهم زوجة له، ومن أجلها قامت أول حرب بين الشرق والغرب.

ويقف بنا الكتاب عند «كليوباترا» فاتنة الدنيا التى سحرت قلوب القياصرة وعقول الأباطرة.. وعرفت كيف تأسر قلوب الرجال الذين يتقربون إليها وكيف تبقيهم فى أسر جمالها، محددة أهدافها العليا بدقة بالغة، وباعت نفسها من أجل السلطة والجاه وانتحرت فى النهاية لتبقى أسطورة يتغنى بها التاريخ.

ويعرج بنا المؤلف أمام شخصيات أخرى عديدة مثل كاترين الثانية التى اعتلت عرش روسيا، والليدى هاملتون، وجوزفين زوجة نابليون، وسارة برنار، وأوجينا الأمبراطورة اللعوب، ومدام بومبادور وغيرهن ممن تعدت تأثيراتهن حدود الذات والتجارب الشخصية وقفزت إلى أحداث مهمة غيرت مصائر الأمم والشعوب.

إن الكتاب لا يقوم على سرد مجموعة من القصص الغرامية ولكنه قائم على حقائق تاريخية ثابتة ممزوجاً بقدر من الخيال فى سرده القصصى ليعطى التشويق والإثارة، والمتعة والتسلية وبإمكاننا أن نعتبره بحثا تاريخيا، فى الوقت نفسه نعتبره عملاً أدبياً رفيع المستوى.

* ثم..

إذا كان البعض يعول أزمة السينما المصرية على ندرة النصوص الجيدة، فإن فى استطاعة السينمائيين عندنا أن يقدموا ستة عشر فيلما، أعتقد أنها ستكون من أعظم ما يرى المتفرج، لو أن المخرجين والمنتجين وكتاب السيناريو عكفوا على هذا الكتاب وقرأوه جيدا ففى كل قصة من قصصه ما يصلح لأن يكون فيلما جيدا بكل المقاييس.

فؤاد المنصورى

فاتنات وأفاع

كتاب

جديد للزميل الشنوانى

صدر هذا الشهر كتاب جديد للزميل الكاتب الصحفى أحمد الشنوانى. الكتاب بعنوان «فاتنان الدنيا وأفاعى الزمان» والذى صدر فى سلسلة كتاب الهلال.

وهذا الكتاب يتناول نساء شهيرات لعبن أدوارا حاسمة فى تاريخ بلادهن، بل فى تاريخ العالم كله، وجرت أقلام الأدباء والمؤرخين بسيرتهن فى مؤلفات كثيرة، أولها فى بداية التاريخ وآخرها فى هذا الزمن الأخير.

ومؤلف هذا الكتاب هو الزميل أحمد الشنوانى الكاتب الصحفى بدار الهلال الذى بحث بصبر وذكاء ودقة عن خفايا حياة كل من هؤلاء النساء ليستخلص منها أسرار حياتها فى التاريخ أو أسرار التاريخ فى حياتها، ولم يترك واحدة منهن إلا بعد أن أخذ كل ما عندها من أسرار الحياة وأسرار التاريخ. وأخرجه للناس فى هذا المؤلف الذى يجمع بين العلم والقصة، ويأخذ من التاريخ كما يأخذ من الخيال، جادا ومسليا فى الوقت نفسه.

وهؤلاء الفاتنات الشهيرات المتربعات على صفحات هذا الكتاب دون سواهن من الشهيرات اللاتى عرفهن التاريخ قديما وحديثا، انما اختارهن المؤلف عندما وجد فيهن التاريخ ممثلا بأقوى لمحاته وأضواء توهجاته وأقوى ضرباته وصيحاته!! ففى حياتهن ملامح التاريخ كلها، بجمالها وقبحها وبإنسانيتها ووحشيتها، وبأحلامها الجميلة وفواجعها الرهيبة.

وهذا ما يجعل صور هؤلاء النساء الشهيرات باعثة على الخوف فيمن يطالعها فيراهن أشبه بالأفاعى القاتلة، ومن هنا جاءت تسمية الكتاب الذى يرى فيه القارئ ملامح وجوههن الجميلة فى صفحات التاريخ فإذا فتنة الدنيا الطاغية الظاهرة من تلك الوجوه الجميلة تخفى بداخلها سموم الأفاعى القاتلة!!

ومن هذه الرؤية التاريخية الأدبية والفنية جاء هذا الكتاب.

والجدير بالعلم أن الزميل أحمد الشنوانى قد صدرت له موسوعة بعنوان «كتب غيرت الفكر الإنسانى» فى عشرة أجزاء ويعكف المؤلف حاليا فى استكمال باقى أجزاء الموسوعة.

رجاء النقاش

رئيس تحرير مجلة الكواكب

الكلمات

أين يمكن أن نجد المرأة فى أوراق التاريخ؟

من المؤكد أننا سوف نجدها جميلة، ذكية، طموحا. وسوف نتأكد من أنها كانت فى بعض الحالات وراء الرجل، كما كانت فى حالات أخرى أمامه. وفى الحالتين فأنها قد استطاعت أن تفرض وجودها على مشاهير الرجال، وبالتالى تجد لنفسها مكانا تحت شمس التاريخ.

وهناك ألف وألف امرأة قد فعلت ذلك، منذ بداية التاريخ وحتى الآن وإلى الأبد، فالشهرة لها مجالات كثيرة، والمرأة موجودة فى كل مجال تغرى الرجل أو تقف إلى جانبه أو تأخذ منه ما تريد ثم تلقى به بعيدا وكأنها لم تكن معه فى يوم من الأيام.

وعن نوعية معينة من هؤلاء النساء، كان كتاب الزميل والصديق الصحفى أحمد الشنوانى الذى يحمل عنوان «فاتنات وأفاعى» والذى صدر عن كتاب الهلال، وتناول فيه بالتحليل والدراسة تاريخ اثنتى عشرة امرأة من شهيرات التاريخ. ولأن الكاتب كان يعرف جيدا منذ البداية أن هذا التاريخ مكتوب، فانه قد اختار أن يمزج فى كتابه بين التاريخ والحكاية، ليخلص هذا التاريخ من جموده، وليعطيه نبض الحياة بحيث نشعر بخلاجات النفس الإنسانية، والأسباب التى أدت إلى هذا الموقف أو ذاك. وكما يقول أستاذنا الراحل الكاتب كمال النجمى، فان الكاتب قد جلس الى كل سيدة منهن فى احتشام واحترام، ليعرف منها أسرار حياتها فى التاريخ، أو أسرارالتاريخ فى حياتها. ولم يترك واحدة منهن إلا بعد أن استصفى كل ما عندها من أسرار الحياة وأسرار التاريخ، وسجل كل ما حصل عليه منهن، وأخرجه للناس فى مؤلفه هذا الحافل الذى يجمع بين العلم والقصة، ويأخذ من التاريخ كما يأخذ من الخيال، جادا ومسليا فى وقت معا.

وربما كانت العناوين الطويلة التى اختارها المؤلف لبطلات قصصه قادرة على الكشف عن صورة كل امرأة من هؤلاء النساء. فهذه هى هيلين فاتنة طروادة التى لأجلها قامت أول حرب بين الشرق والغرب، وهذه تيودورا الممثلة المتوجه التى حكمت أعظم امبراطورية عرفها العالم فى عصرها. وهذه مارى أنطوانيت التى تعرضت لحادث احتيال كان سببا فى أن يذهب بها إلى المشنقة. وهذه جوزفين صاحبة نبوءة الحظ السعيد التى تخلى عنها نابليون، فذهب كل حظه بافتراقه عنها، والتى أحبته بصدق واخلاص وبخاصة بعد أن أصبح امبراطورا. وقد رأى أن يبحث عن ابن شرعى يرثه ويرث مجده. فكان أن فقد كل شئ وانتهى به الأمر منفيا.

إن هذه القصص وغيرها جديرة بأن نتعرف عليها من خلال الكتاب، فلا يمكن إيجاز التاريخ فى بضعة أسطر، ثم أن كل حكاية لها بريق خاص.

أحمد زكى عبدالحليم

مدير عام التحرير بدار الهلال

تكريم الزميل أحمد الشنوانى

أهدت السيدة سوزان مبارك شهادة تقدير والميدالية الذهبية للزميل أحمد الشنوانى الكاتب الصحفى بدار الهلال وذلك تقديرا لمساهمته فى مهرجان القراءة للجميع فى مجال الأعمال الفكرية عن موسوعته «كتب غيرت الفكر الإنسانى».

والجدير بالعلم أن الزميل أحمد الشنوانى قد قدم فى موسوعته والتى تقع فى سبعة أجزاء عرضا شاملا لمائة من الكتب الرائدة التى كان لها أعظم الأثر وأعمقه على الفكر الانسانى منذ أقدم العصور وإلى يومنا هذا

المصور

٥ ديسمبر ١٩٩٧

تكريم الشنوانى

أهدت السيدة سوزان مبارك حرم رئيس الجمهورية شهادة تقدير والميدالية الذهبية للزميل أحمد الشنوانى الكاتب الصحفى بدار الهلال وذلك تقديرا لمساهمته فى مهرجان القراءة للجميع فى مجال الأعمال الفكرية عن موسوعته «كتب غيرت الفكر الإنسانى»

الكواكب

ديسمبر ١٩٩٧

جائزة سوزان مبارك للزميل أحمد الشنوانى

الزميل والصديق أحمد الشنوانى حصل على أحلى هدية فى حياته.. وهى هدية يتمنى كل إنسان منا الحصول عليها. الهدية عبارة عن شهادة تقدير وميدالية ذهبية من السيدة سوزان مبارك لمشاركته فى مهرجان القراءة للجميع لمؤلفه «كتب غيرت وجه الفكر الإنسانى» والذى أختيرت شخصياته من بين مائة شخصية فى التاريخ القديم والحديث كان لها أثرها وتأثيرها فى الفكر الإنسانى.

وطبيبك الخاص تهنئ الزميل وتتمنى له دوام التفوق.

طبيبك الخاص يناير ١٩٩٨

قرأت لك: كليوباترا المصرية.
وكليوباترا الفرنسية
ونساء أخريات فاتنات وأفاع

** «فاتنات وأفاع» عنوان فيه تضاد وفيه رمز. وهذا العنوان هو الذى صدر به الكاتب أحمد الشنوانى مؤلفه الجديد بعد أن كتب سلسلة من الكتب التى غيرت الفكر الإنسانى بلغت حتى الآن ثمانين. ومازال يواصل الكتابة والتأليف. والكتاب فريد فى بابه. فكله عن نساء شهيرات لعبن أدوارا فى تاريخ بلادهن، بل فى تاريخ العالم كله، وجرت أقلام الأدباء والمؤرخين بسيرتهن فى مؤلفات كثيرة أولها فى بداية التاريخ وآخرها فى زمننا الحديث.

لقد بحث المؤلف بصبر وذكاء عن هؤلاء النساء الشهيرات فى الكتب والمراجع، وجلس إلى كل سيدة منهن فى احترام ليعرف منها أسرار حياتها فى التاريخ أو أسرار التاريخ فى حياتها. ولم يترك منهن واحدة إلا بعد أن استصفى كل ما عندها من أسرار الحياة وأسرار التاريخ، وسجل كل ما حصل منهن وأخرجه للناس، وهو مزيج بين العلم والقصة، يأخذ من التاريخ كما يأخذ من الخيال**

بدأ بهيلين طروادة التى لأجلها قامت حرب ضروس هى أول حرب بين الشرق والغرب، وانتهى بأوجينى زوجة الامبراطور نابليون الثالث.. ويتحدث بينهما عن هيلين فاتنة طروادة، وكليوباترا الملكة التى انتهت على يديها دولة البطالمة فى مصر، ثم يتحدث عن شجرة الدر، قاهرة الصليبيين التى كانت أول وآخر امرأة توجت نفسها ملكة على مصر الإسلامية، ثم اسقطها الخليفة العباسى المستعصم لمجرد كونها امرأة. لكن هذه المرأة انتصرت فى معركتها ضد الملك لويس التاسع ملك فرنسا الصليبى، أما الخليفة المستعصم فإنه انهزم فى معركته ضد هولاكو التترى.

وفى قائمة الشهيرات اللاتى احتواهن الكتاب، نجد أسماء كثيرة أخرى مثل كاترين الأولى الملكة الروسية وحكاية الحب الأعمى، ومارى أنطوانيت الملكة الفرنسية زوجة لويس السادس عشر والتى جعلت من إسرافها طريقا لقيام الثورة الفرنسية، وكاترين الثانية قيصرة الروس الكبرى الجميلة، والليدى هاملتون ساحرة الأميرال نلسون قائد الأسطول البريطانى الذى قهر الجنرال بونابرت. ثم جوزفين التى استولت على قلب بونابرت وشهدت صعوده وهبوطه.. وأسماء أخرى من ملكات وفاتنات ومغامرات..

احدى عشر امرأة من قديم التاريخ ووسيلة وحديثه اختارهن مؤلف الكتاب دون سواهن من الشهيرات اللاتى يعرفهم التاريخ قديما وحديثا، لأنه وجد فيهن التاريخ ممثلا بأقوى لمحاته، وأقوى صيحاته، فى حياتهن ملامح التاريخ بجمالها وقبحها، وبانسانيتها ووحشيتها وأحلامها الجميلة وقواها الرهيبة، كل امرأة منهن ذات جمال أسر وسحر. وكل منهن وراء رجل أو رجال. صور هؤلاء النساء تبعث على الخوف فمن يطالعهن، فيراهن أشبه بالأفاعى القاتلة.. وهذا ربما الذى دفع المؤلف ليطلق على كتابه عنوان «فاتنات وأفاع» فقد طالع وجوههن الجميلة فى صفحات التاريخ، فإذا هى فتنة الدنيا، ولكن تلك الوجوه الجميلة كانت تخفى سموم الأفاعى. جمال وفتن الدنيا، تركت آثارها القاتلة فى التاريخ كله.

***

والواقع أن المرأة تطورت فى مراحل التاريخ صعودا وهبوطا، كما تطورت مكانتها وسيطرتها أو تبعيتها، لكنها لم تفقد أبدا الهاماتها وتأثيرها على الرجل فى يوم من الأيام.

فالمرأة لا تعتز بشئ فى حياتها قدر ما تعتز بأنوثتها، وما وهبها الله من جمال وجاذبية، وتعتبرها أثمن كنوزها على الإطلاق، وتعتبر أن هذه الودائع الثمنية هى وسيلتها فى التأثير وجذب الانتباه، بل وفى التفوق والسيطرة بلا حدود حسب الظروف والأهداف والغايات التى تنشرها فى حياتها، وعلى قدر مواهبها فى الذكاء والدهاء لاستثمار هذه المقومات الأنثوية.

وفاتنات الدنيا اللاتى ضمهن هذا الكتاب لم يتسلحن فى حياتهن بفتنة الجمال وحده، بل فتنة الذكاء وقوة الشخصية العبقرية والدهاء والألمعية. ففى قصص هؤلاء الفاتنات من اشتهرت بالجمال الرائع الذى فتن الممالك والشعوب فى السلم وحرب مثل هيلين طروادة، ولذلك قامت من أجلها أول حرب فى التاريخ بين الشرق والغرب. وهناك من سحرت بذكائها ودهائها وقوة شخصيتها قلوب الأباطرة والملوك مثل كليوباترا. وهناك من فتنت الأبطال وقادة الرجال وخاضت المعارك وبهرت الممالك كشجرة الدر. كما أن هناك من فيها من سحر ذاتى وشخصية خلابة جعلت الملوك والرجال تنقاد لأهوائها وآرائها حتى أضاعت العرش منهم مثل أوجينى. وقد كان لعبقرية جمالها تأثير عميق على الملوك والأمراء والقادة مثل مدام دى بومبادور وليدى هاملتون.. وهكذا.

***

يبدأ المؤلف أحمد الشنوانى كتابه بالحديث عن هيلين طروادة، حدث ملحمى مثير خلده الشاعر الرومانى هوميروس فى الالياذة فصار انشودة شعر وأغنية حب وصرخة حرب، وآهة غرام واشتياق، ولمسة فنية ملهمة فى لوحات الفنانين العظام. حسناء فاتنة اقتتل من أجلها ملوك العصر القديم، وتصادمت فى سبيلها الجيوش والأساطيل لمدة ١٠ سنوات كاملة.

كانت هيلين هى بنت ملك اسبرطة من زوجته الحسناء ليديا. زعموا أن أمها حملتها من كبير آلهة اليونان حين زارها وجاءها على شكل طائر.

ذاعت شهرة جمال «هيلين» فى أنحاء بلاد الاغريق كل أمير يتطلع إلى الزواج بها، منهم الغنى والشجاع والثرى والوسيم. وكان الأب ملك اسبرطة يماطلهم حتى ضاق صدرهم وسرى التذمر بينهم. وقد تنبه «عوليس» ملك جزيرة أناكا إلى خطورة الموقف ونصح عاهل اسبرطة بإعلان زواج ابنته لأن الخاطبين ازداد قلقهم وهم كثيرون.

لكن عاهل اسبرطة كان يعتذر بأنه ليس فى خطاب ابنته من هو جدير بها وأخيراً أشار عليه عوليس أن يدعو الأمراء ليتخذ قراره فى شأن زواج هيلين. فدعاهم إلى قصره لإعلانهم بالقرار، وجعلهم يقسمون على احترام من ترضاه هيلين زوجا لها.

وفعلا اختارت هيلين منلاوس. لكن مظاهر الاستياء ظهرت على باقى الخطاب الذين حلفوا اليمين. واحتفلت اسبرطة بزواج هيلين، وصار منلاوس ملكا متوجا على اسبرطة.

ثم زار باريس ابن ملك طروادة اسبرطة وأعجب بهيلين وأعجبت هى به. وذهبت إلى طروادة، فاندلع الشرار، بين اسبرطة وطروادة وهنا وقع الصدام الذى تغنى بأحداثه الشاعر هوميروس، ووقعت طروادة فى يد اليونان.

***

وهكذا تمضى أحداث الكتاب حول كليوباترا فاتنة الدنيا وحسناء الزمان التى غيرت وجه التاريخ وهددت الامبراطورية الرومانية العفية بفتنتها ودهائها وأحلامها العريقة والتى التقت بمارك انطونى وقبله قيصر الذى انجبت منه نيصرون.

ثم «تيودورا» العاهرة والخادمة التى حكمت أعظم إمبراطورية عرفها العالم فى عصرها، وهى الامبراطورية الرومانية الشرقية، وهى امرأة عجيبة ومواهبها فذة وغريبة، وتزوجها الامبراطور جوستنيان الذى اعترف بالمسيحية كدين سماوى، رغم أنها نشأت عاهرة وخادمة فى سيرك.. وصارت تيودورا قديسة تقيم الكنائس والأديرة.

ويتحدث المؤلف أيضاً عن شجرة الدر، وكانت جارية اشتراها الصالح نجم الدين أيوب ثم ما لبثت أن صارت ملكة مرهوبة الجانب عظيمة الشأن. وتزوجها الصالح نجم الدين وعمره ٣٥ بينما عمرها كان ٢٥ سنة، وأنجبت له ابنة خليل. وفى عهد الصالح وشجرة الدر هدد لويس التاسع مصر، ومات الصالح وأخفت خبر موته حتى لا يفت فى عضد الجنود. هزمت الصليبيين وأسرت لويس التاسع فى معارك حاسمة. رسمت خطط بل اشتركت فيها فى معركة المنصورة واحتفل بجلوسها على العرش. وكانت أول ملكة فى الإسلام.

ثم تأتى إلى كاترين الأولى، وكانت وضيعة الأصل وليست على شئ من الجمال، ولكنها بدهائها اصطاد بشراك غرامها حاكم أكبر امبراطورية فى ذلك الزمان، ولدت فى بولندا عام ١٦٨٥ من أبوين فقيرين، عملت خادمة عند راعى كنيسة. كان اسمها مارتا، وغادرت بولندا حينما تهددت بالحرق، ودخلت فى حب القائد الروسى وجميع رجال الجيش يتسابقون إلى اكتساب مرضاتها لدمائة أخلاقها وشدة دهائها.

وبدأ نجمها يصعد. ثم دخلت فى خدمة صديق الامبراطور الحميم بصفتها وصيفة له. وزاره الأمير بطرس فى منزله، فدهش من دلائل التنظيم والنظافة فى بيته وسأله عن سر ذلك.. فقدم له مارتا وطلب الإمبراطور من صديقه أن يعرفه بمارتا. وأخذها الامبراطور لتكون وصيفة فى قصره. وتزوجها الامبراطور سرا وأنجبت للامبراطور قبل أن يعلن زواجه بها علنا، وهو الذى ولى العرش وأرثا للعرش، ووضع بطرس تاج الامبراطورية على رأسها.

ومع أنها خانت الامبراطور مع أحدهم وغضب منها، إلا أنه عفا عنها وغفر لها ما مضى إلى أن توفى بطرس الأكبر فانفردت باللهو والملك.

***

مارى أنطوانيت هى التى أدت إلى التعجيل بالثورة الفرنسية الكبرى، وانهيار عرش لويس السادس عشر. هى ابنة الامبراطورة مارى تريز النمساوية وهو ابن لويس الخامس عشر. تزوجت لويس السادس عشر فى فيينا عاصمة النمسا وكان العريس فى باريس فتم عقد الزواج بالتوكيل. كانت مارى أنطوانيت فى الخامسة عشرة. تزوجت أسرتا مارى تريز النمساوية، وأسرة بوربون المالكة فى فرنسا.

كانت مارى أنطوانيت مبذرة.. ولكن اقلقها وأقلق قصة العقد الذى اشترى باسمها ولم تكن تعرف عنه شيئا. وانفضحت اللعبة... وأدى ذلك إلى الثورة الفرنسية

باعتبار أن الملك لويس السادس عشر لا يحترم إرادة الشعب، وأن مارى ملكة غريبة عن فرنسا ومبذرة ومسرفة جنونيا.

من فرنسا أيضا ملكة غير متوجة هى مدام دى بومبادور.

استولت على قلب لويس الخامس عشر، وحكمت فرنسا من غرفة مخدعها لمدة عشرين عاما، وكانت أنوثتها الصارخة وشهوة التسلط والتملك هى التى عبدت لها الطريق. وكانت تقول «الحياة معركة، فى سبيل الطموح». كان اسمها الحقيقى «أنطوانيت بواسون» ولدت عام ١٧٢١. كانت تعتبر نفسها باريسية أكثر من الباريسيات. أسرت لويس الخامس عشر وكان تحت أمرتها فملأت فراغ حياته. وكانت تجيد التمثيل والغناء والرقص ورواية النوادر والنصائح كأنها شهر زاد جديدة.

ثم أقامت مدام دى بومبادور مسرحا فى القصر كان رجال الحاشية والوصيفات هم الممثلين، وتقوم هى بالدور الرئيسى فى المسرحيات.

ولتخرج لويس الخامس عشر من الملل جعلته يترك قصر فرساى إلى عدة قصور صغيرة بنتها فى أنحاء فرنسا، وتدخلت فى السياسة وصار لها شأن وتأثير على لويس. وهى التى بنت الارميتاج أو الصومعة ليكون عش غرام وليس صومعة.

ثم كاترين الثانية الجميلة التى حكمت روسيا بعد بطرس الأكبر حيث تنفست روسيا الصعداء. كانت كاترين شابة جميلة ساحرة تزوجت ولى العهد، فشلت فى الزواج، ولكنها حصلت على المجد والعز والسلطان، وصارت سيدة روسيا المطاعة والقيصرة التى يخضع لها الجميع.

ونأتى إلى الليدى هاميلتون التى أسرت بطل البحار عشيقة نيلسون قائد البحرية البريطانية، وهازم نابليون فى موقعة أبو قير البحرية. والليدى هاميلتون تزوجت السير وليم هاملتون الذى كان سفيرا لبريطانيا فى نابولس بإيطاليا، والثمن أن يسدد هاميلتون ديون ابن أخت هاملتون. ونلسون هو القائد الذى تعقب نابليون فى البحر المتوسط حتى أدركه عند الاسكندرية وقضى على أسطول نابليون وعلى آمال الفرنسيين فى أن يكونوا سادة البحار وينزعوا اللقب من البريطانيين.

ثم جوزفين زوجة نابليون. كانت كما وصفت جميلة متناسقة الأعضاء، خفيفة الروح، شديدة التأثير، ساحرة النظرات، طويلة الشعر، عذبة الصوت، ولم يكن فى وسع رجل أن يقاوم جاذبية هذه المرأة الحسناء الرائعة الجمال.

كانت جوزفين نجم نابليون السعيد، فظلت معه عندما كان قنصلا أول فى

باريس، وظلت مساعدة فى الكفاح حتى وضع التاج على رأسه ورأسها.

وسارة برنار الفتاة الأسطورة، والمرأة الطاغية اللعوب والفاتنة الساحرة الآسر. تألفت طوائف النساء فى كل مكان كانت تحل به سارة برنار لحماية الأزواج والأبناء من عبث هذه المرأة الطاغية اللعوب.

اسمها سيظل مقرونا بعبقرية التمثيل وبهجة المسارح لدى رواد المسارح فى جميع أنحاء العالم قديما وحديثا، هى كليوباترا الفرنسية.

ثم أوجينى الإمبراطورة اللعوب وحضورها حفل افتتاح قناة السويس هى وزوجها، وعشق الخديو إسماعيل لها.

***

رغم كل هذا الجهد، ورغم البحث والتنقيب فى حياة هؤلاء الفاتنات.. فإن المؤلف ترك نساء أخرى كثيرات قديمات وحديثات.. ليكتمل العقد ـ لكن كما قال فإن مساحة الصفحات كانت الفاصلة. أنه أعد الكتاب عن ٣٠ فاتنة، لكنه لم ينشر منها سوى ١١ فقط. وأنه سيلقى بهذا الكتاب إلى المطبعة قريبا ليكتمل العقد.

أحمد أبو كف

السيرة الذاتية للمؤلف

* صحفى بمؤسسة دار الهلال الصحفية.

* عضو بنقابة الصحفيين.

* عضو اتحاد الكتاب.

* مؤلف موسوعة الفكر الإنسانى فى عشرة مجلدات.. صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب فى سلسلة «الألف كتاب».

* مؤلف كتاب بعنوان «من روائع الفكر الإسلامى» تحت الطبع

* مؤلف كتاب بعنوان «فاتنات وأفاعى» عن النساء الشهيرات اللاتى لعبن أدوارا حاسمة فى تاريخ العالم.. وقد صدر الكتاب فى سلسلة كتاب الهلال عن مؤسسة دار الهلال الصحيفية.

وهو الجزء الأول من كتاب «فاتنات الدنيا وأفاعى الزمان».

* مؤلف كتاب بعنوان «المدينة المنورة ودولة الإسلام الدولى». .... تحت الطبع.

* مؤلف كتاب بعنوان «أمراض العظماء والمشاهير».......... تحت الطبع

* كتب فى عدة جرائد ومجلات مصرية وعربية منها

مجلة الهلال مصر

مجلة المصور مصر

مجلة طبيبك الخاص مصر

مجلة حواء مصر

مجلة الكواكب مصر

مجلة الوعى الإسلامى الكويت

مجلة الرابطة السعودية عن رابطة العالم الإسلامى.

جريدة العالم الإسلامى السعودية عن رابطة العالم الإسلامى.

* حصل على جائزة (ميدالية ذهبية وشهادة تقدير) فى مهرجان القراءة للجميع من السيدة سوزان مبارك قرينة رئيس الجمهورية.

فهـــــرس

جمع وإخراج مركز 4H للكمبيوتر
م/ حسين الحماقى
ت: ٠١٠/٦٦٧٤٣٢٥